

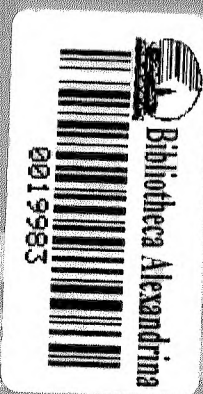
من معارك التراث

دكتور كامل سَعْفَان

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ



دار المعارف



الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ

من معارك التراث

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ

دكتور كامل سَعْفَان

دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟)

وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون .
وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، ما كان حجّتهم إلا أن قالوا : اتّوا بآبائنا ، إن كنتم صادقين .

قل ، الله يجزيكم ، ثم يمتّكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ، لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .
ولله ملك السموات والأرض ، ويوم تقوم الساعة ، يومئذ ينحسر المبطلون) .

صدق الله العظيم

نقد الفكر الدينى ..

كتاب صدر عن دار الطليعة ببيروت ، وتكررت طبعاته في زمن وجيز ، لا لمرافقة المادة التي يقدمها ، أو لجدتها ، ولكن لغرابتها ، وجراتها ، وقدرتها على تجلية الباطل في صورة الحق ، ولشراسة الدكتور (المسلم) في التهجم على المقدسات ، وتطويع كل الوسائل الممكنة لديه في الإنكار والرفض ، والنيل من أسس معتزها ، ونستمسك ، ونقيم عليها كياننا الروحي والاجتماعي والقومي .. وكان بوسعنا أن نتجاهل الكتاب والكاتب بدعوى أن في عرض هذه الأفكار

الكافرة إشاعة للكفر .. لكن هل يكفي أن نتجاهل الجرائم لتتقيا ١٩
إن الدكتور (صادق جلال العظم) يمتاز بقدرته على الحجاج ، ويستغل (الأقلام الدينية) في عرض مفترياته .. ومن هنا كانت خطورة ما قدم ، وتكون خطورة السكوت على هذا اللون من التناول ، لأنه يعرض الأفكار الإسلامية عرضاً خاطئاً ، ولكن لأنه يعرّي منهجاً محسوباً على الإسلام في تناول الفكر الدينى ، ولأنه يعمل في إطار سياسى مرسوم ، يقصد به التشكيك والبلبله الفكرية ، وصولاً إلى تمزيق الوحدات الاجتماعية ، إلى الشعور بالآغتراب ، إلى الجفاف الروحي ، إلى الفكر المادى ..

و (الدكتور) لا يداجى ، ولا يخاتل ، فيما يعرض ، وفيما يقدم ، ليوهمك بأنه يملك الحقيقة ، فلا حاجة به إلى أن يلف ويدور ، ولأنه يعلم - بحكم الممارسة السياسية - أن المواجهة تختصر الطريق ، وأن المبادرة تشل إرادة الخصوم ..

* * *

صدر كتابه بفقرة لياسين الحافظ تقول :

« إن نقد جميع جوانب المجتمع العربي الراهن وتقاليده نقداً علمياً علمانياً صارماً ، وتحليلها تحليلًا عميقاً نافذاً - واجب أساسي من واجبات حركات الطليعة الاشتراكية الثورية في الوطن العربي ، وإن مثل هذا النقد هو وحده القادر على تهئية الظروف التي تمكن من اقتلاع جميع الجوانب السلبية المعطلة والكابحة في إرثنا الاجتماعي » .

« إن تفجير الأطر التقليدية للمجتمع العربي سيؤدي بالضبط إلى إسراع وتيرة العمل لبناء مجتمع عربي عصري كلياً وبدون هذا التفجير فإن إمكانية نمو منتظم وسريع وثورى في البنيان الفكرى والاجتماعى التقليدى للشعب العربى سيغدو أمراً مشكوكاً فيه ، إن لم نقل مستحيلاً ، كما أنه في نفس الوقت - سيلقى بظلاله السلبية المعطلة للنمو الاقتصادى الجاد السريع » ص ٥ ط ٣ سنة ١٩٧٢ م .

هذا هو الهدف . . « اقتلاع جميع الجوانب السلبية المعطلة للنمو الاقتصادى السريع . . وتفجير الأطر التقليدية لبناء مجتمع عربى عصري كلياً » . .

والاقتلاع والتفجير في الواقع الاشتراكي الذي تعيشه كثير من الدول حولنا لا يمثل إلا بريقاً لفظياً مجازياً ولكنه الحقيقة الممثلة في (التصفية الجسدية) ، وفي إهدار الحرمات ، وامتنصاص كل الطاقات الحيرة الواعدة ، حتى إذا تجردت الأرض ، وجفت الينابيع الموروثة ، بدأ التفكير في البناء ، وأى بناء بعد أن تتقطع الأسباب ، وتهدد القوى ، وتموت العزائم ؟!

وعلى هذا يكون مفهوم (السلبية والتقليدية والتعطيل) . .

وما أكثر ما حمل (اليساريون المتطرفون) الألفاظ من دلالات ، وما أكثر ما أضافوا إلى اللغة ألفاظاً ذات حروف عربية ومضامين خبيثة ، غريبة على الذوق العربي والوجدان العربي . .

* * *

وقدم (الدكتور) لكتابه بقوله :

« ينبغي أن يكون واضحاً أن الفكر الدينى . . . ليس إلا الصعيد العلوى
الواعى لكنتلة هلامية شاملة ، غير محدودة الجوانب من الأفكار والتصورات
والمعتقدات والغايات » ص ٧ .

الرسالات السماوية إذن (كنتلة هلامية غير محدودة الجوانب) . . . وبهذا تخلو
من مفهوم (الرسالة) الذى هو تشريع ، أوامر ونواه ، حقوق وواجبات . . . ويحار
المراء : كيف يجمع بين هذا (المفهوم) وبين (الصعيد العلوى الواعى) ؟ وكيف
تكون (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) لكنتلة هلامية ١٩
أى يكون هذا القول منصرفاً إلى ما نسميه (الغيبات) وهل كل الفكر الدينى
غيبات ؟

إن (الفكر الإنسانى) لا يمتد إلى كل شىء ، ولا ينكشف له كل شىء . . . ومن
البديهيات أن الغيبات جزء من حياته ، رضى أم كره ، فإذا كان لا يعلم ما يجرى
خلف بابه ، أو تحت نافذته ، بل لا يعلم ما سيحدث له إن لم يكن لا يعلم ما حدث
له ، فكيف ننكر أن (يغيب) عنه من أمر الروح والملائكة والجن والجنة والنار ١٩
ما أجمل قول الحلاج : يا عجباً ممن لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت
سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكنون الأشياء ١١

الفكر الإنسانى قاصر ، ونموه دلالة قصورة ، ومن قصوره ألا تكتمل (الأفكار
والتصورات والمعتقدات والغايات) نابعة من ذاته ، ومن ثم كانت الحاجة إلى
الرسالات السماوية ، تقوّمه ، وتبصره ، وتهديه ، ولو ترك أمره بيده لما كانت
الهداية ، لأن (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) الإنسانية تأخذ شكلا
فردياً وشكلا جماعياً ، ومع الفردية والجماعية تتطور أو تتصارع ، وتتوالد ،
وتتفانى ، ولا يكون التكامل ، وإن حظيت فى مرحلة بالتأييد ، وبالمغلاة فى
التقدير .

* * *

وأول فصول الكتاب بحث عنوانه : الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني
التي جزءاً منه في النادي الثقافي العربي ببيروت ، ونشر في مجلة النادي (الثقافة
العربية) أيار سنة ١٩٦٥ ، والنادي والمجلة معروفان بلونها الأحمر . .
وجعل شعاراً لهذا البحث قول أبي نواس : « وداوئي بالتي كانت هي
الداء » . . ثم مضى يقول :

(إننا نمر ، في طور نهضة مهمة ، وبانقلاب علمي وثقافي شامل ، وبتحويل
صناعي واشتراكي جذري ، لأننا تأثرنا إلى أبعد الحدود بأخطر كتابين صدرا في
القرنين الأخيرين : رأس المال وأصل الأنواع) ص ٢٠ .
ومع هذا فأمامنا طريق طويل للنضال ، لأنه :

(يجب ألا يغيب عن بالنا أنه مرت على أوروبا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن
قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصاراً حاسماً في حربه الطويلة ضد العقلية
الدينية التي كانت سائدة في تلك القارة ، وقبل أن يثبت نفسه تثبيتاً نهائياً في تراثها
الحضاري ، ولا يزال العلم يحارب معركة ممائلة في معظم البلدان النامية ، بما فيها
الوطن العربي ، علماً بأنها معركة تدور رحاها في الخفاء ، ولا تظهر معالمها للجميع
إلا بين الفينة والأخرى) ص ٢١ .

وتساءل : لماذا المعركة بين العلم والدين ، ولكل ميدانه ، إذا قصدنا بالعلم
دائرة النشاط العقلي في المجال المادي ، فإذا قلنا : إن الدين يعالج الشئون الروحية
والأخلاقية والإنسانية بعامه ، فقد أصبح العلم في خدمة الدين ، أوفى خدمة
المجتمع الإنساني ، الذي يقوم الدين على تقويمه وهدايته . .

ثم ، إذا كانت هناك (معركة تدور رحاها في الخفاء) ، ممثلة في نشاط الخلايا
الشيوعية ، أو الحاقدين والمتمردين ، فإن (الخفاء) يوحى بأنها ليست معركة ضد
الدين بقدر ما هي معركة ضد رجال الدين . والمعركة ضد رجال الدين لا تعني
بالضرورة أنها ضد الدين ، لكن المعركة في الحقيقة معلنة بقدر ما يملك هؤلاء

الناقون (الكلمة) ، ومن ورائهم تنظيمات وأموال تغذى هذه المعركة . وهذه المعركة تأخذ أشكالا وأبعادا مختلفة ، وتتلون بألوان كثيرة ، لا للدلالة على عمق وسعة المعركة بل بسبب خبث وضعف أداة المثيرين والمؤثرين لئلا.. يقول (الدكتور) :

(من نافل القول أن نردد أن الطريقة العلمية في الوصول إلى معارفنا وقناعاتنا عن طبيعة الكون ونشأته ، وعن الإنسان وتاريخه ، تتنافى تماماً مع هذا المنهج الإيتباعي السائد في الدين) ص ٢٢ .

ويلاحظ أن قوله (تتنافى تماماً) منطق غير علمي ، لأنها قد تختلف ، لكنها (لا تتنافى) بل تتكامل ، لأن الدين لا يحدث عن طبيعة الكون ونشأته ، وعن الإنسان وتاريخه إلا بشكل (إجمالي) ، يخدم (الدعوة) ، ويؤدي إلى طاعة خالق الكون والإنسان والكشوف العلمية تزيد المؤمن إيمانا ، لأنها تزيه عظمة الخالق في خلقه ، أما الذين في قلوبهم مرض فإنهم يتلمسون أسباب الرفض والإنكار ، ويعكسون إفراساتهم الخبيثة على كل ما حولهم .

ثم من أين جاء أن المنهج الإيتباعي (سائد في الدين) ؟ قد يكون الأقرب إلى منطقته أن يقول (سائد في الفكر الديني) ، أما الدين ، وبرغم دعاوى نسبته إلى (الرسول) فإنه منهج أصيل ، قائم على أسس ثابتة ، لم يسبق إليها بما يمكن أن يكون مقلداً له

أما القول بأن : (وظيفة المؤمن والحكيم والفيلسوف والعالم ليست اكتشاف حقائق جوهرية جديدة ، أو اكتساب معارف هامة لم تكن معروفة من قبل ، وإنما العمل للوصول إلى نظرة أعمق وفهم أشمل للنصوص المتزلة ، والعمل للربط بين أجزاء هذه النصوص وتأويلها ، ومن ثم تأويل التأويلات ، حتى تستنبط معانيها الدفينة ، ويتوصل إلى الحقائق والمعارف الكامنة فيها منذ الأزل ، وهذا العمل ضروري وجوهري ، استناداً إلى الآية القرآنية : « ما فرطنا في الكتاب من

شيء» . ص ٢٣ . فهذا تلاعب لفظي يتوصل به إلى نتيجة رضا مسبقاً :
(فلا عجب إذن إذا وجدنا التاريخ الفكرى للدين يتألف دائماً من تفاسير ،
وشروح ، وشروح الشروح) ص ٢٣ . لأن الحقيقة غير المنكورة أن هناك نصوصاً
دينية وشروحاً ، وشروحاً للشروح ، لكن ليس مصدرها عقم الفكر الدينى ، ولكن
تطور هذا الفكر ونموه وقدرته على الحركة ، إذ لا بد أن تتطور الرؤية للنص بتطور
الثقافة الإنسانية والمؤثرات العامة ، وهذا ليس مقصوراً على النص الدينى ، بل على
كل النصوص ، فهناك شروح لأرسطو وأفلاطون ، وشروح وشروح الشروح
لماركس ولينين ، ولا مأخذ على هذا كله من هذه الزاوية .

ثم إن هذه الحقيقة لا تمثل (منهجاً) ، ولكنه لون من النشاط الفكرى ، أما إذا
كان هناك تطالب للمنهج فليظهره فى كتابات المعتزلة والصوفية ، وفى كتابات أهل
السنة فى الملل والنحل . . . وهناك دراسات وافية ، قديمة وحديثة ، عن مناهج
هؤلاء جميعاً . .

أما (أن الروح العلمية بعيدة كل البعد عن هذا المنطق وهذه النظرة الدينية ،
لأن العلم لا يعترف بوجود نصوص لا تخضع للنقد الموضوعى والدراسة الجدية ،
ولأن من أبرز سمات النشاط العلمى فكرة الاكتشاف) ص ٢٣ فهذا افتراء آخر ،
لأن (فكرة الاكتشاف) بالمفهوم العام تتمثل فى دعوة القرآن الكريم إلى النظر فى
أنفسنا . وإلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وإلى النظر فى تاريخ من
سبقنا ، ومثل هذا النظر يولد المعرفة ، ويحقق اليقين . . .

ثم إن الدين لا يقف دون (النظرة العلمية) التى (تخضع النصوص للنقد
الموضوعى) ما دام الناقد يملك عدة النقد وآدابه ، ويتعرف المنهج الدينى ، لأنه
بهذا النقد الأمين الذى يتحرى (الحقيقة) ، ولا شيء إلا الحقيقة - يستطيع
(اكتشاف) دلالات خفيت عليه ، وهى فى جملتها تمثل حقائق إنسانية ،

لاحقائق مادية ، لأن ما تضمنه النصوص من حقائق مادية إنما هو في خدمة الحقيقة الإنسانية أو الحقيقة الكونية بصورة عامة . .

* * *

ويدعى : أن الإسلام أصبح (الأيديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي وخارجه) ص ٢٣ . ولو سلمنا بهذا فالذنب ليس ذنب الإسلام ، بل ذنب الذين يتظاهرون بالإسلام ، لأن الإسلام قوة ثورية خيرة ، ترسم الطريق إلى وحدة الإنسانية ، القائمة على المحبة والمساواة ، في الحقوق والواجبات ، وعلى الحرية والعزة ، بحيث لا يخضع الإنسان إلا لله ، ولا يعتز إلا به ، لا أن يخضع خضوعاً أعمى لزعيم أو مذهب ، ولا أن يسخر قواه التي منحها الله إياه من أجل (الاقتلاع والتفجير) والتخريب والهدم ، وشن الحرب الطبعية ، وإفقار الأغنياء ، وزيادة فقر الفقراء ، من أجل أن تسود عصابة تعتصر كل الخيرات ، وتعيش في رفاه وتجبر الأباطرة والملوك .

* * *

ويدعى أن (الدين بطبيعته مؤهل لأن يلعب هذا الدور المحافظ ، وقد لعبه في جميع العصور بنجاح باهر ، عن طريق رؤياه الخيالية لعالم آخر تتحقق فيه أحلام السعادة) ص ٢٤ .

قد يكون هناك من استغل الدين لطمع دنيوى ، وقد يكون للأمل في ثواب الآخرة ما يدعو إلى الرضا والاستهانة بعذابات الدنيا ، لكن أن تتحول (أحلام السعادة) في الآخرة إلى (رؤيا خيالية) فهذا هو التجاوز الذي يقوم على إنكار البعث ، وإنكار الحساب والثواب والعقاب ، مع أن المنطق العادل الذي أقرته الفلسفات (غير المادية) ألا تنتهى حياة الإنسان المثمنية بهذا الموت العارض . . ثم إن ميزان الحياة القائم على العدالة والمحبة والخير والتضحية مرده إلى الإيمان بالآخرة ، وإلا أصبحت الدنيا غاية ، يسعى كل من فيها - خلال حياته التي

لا يدري متى تنتهى - إلى أن ينال أكبر نصيب من السعادة ، فى حدودها الموهومة والمتخيلة ، ولعل هذا ما يفسر جنوح (الماديين) إلى العنف والقسوة والتضحية بالملايين ، فى سبيل التسلط والانتقام وإشباع الغرائز الجاحمة ، يقول ديستوفسكى على لسان أحد أبطاله : (إذا كان الله غير موجود فكل شىء مباح) .

ويقول أفلاطون (الوثنى) فى جمهوريته : إن الرجل العادل إذا عانى فى حياته الفقر والمرض أو غيرهما من المصائب فسوف تكون عاقبة أمره خيراً ، سواء فى هذه الحياة الدنيا أو فى الآخرة ، لأن الآلهة لن تهمل من جاهد نفسه حتى صار عادلاً ، ومن استطاع بره وفضيلته أن يتشبه بالآلهة على قدر طاقته .

ويقول فى كتابه (جورجياس) : إن « راداسانت » يحاكم النفوس فى الحياة الآخرة ، فيرسل النفوس الشريرة تهوى إلى أعماق الحمم ، ويرسل أرواح الفلاسفة إلى الجزر السعيدة . .

وهذا قال أرسطو وزارادشت وكثير من المفكرين الذين آمنوا بالحياة وبالإنسان ، ولم يقعوا تحت طائلة العبثية والعدمية الصماء ، ولم يقعوا فى إسار الإنكار والرفض لمجرد أن عيونهم لا ترى ، وأن آذانهم لا تسمع ، وأن قلوبهم خاوية ، وأن عقولهم زاوية .

وما أجمل قول جلال الدين الرومى فى هؤلاء المفكرين عن عمى وغباء :
لو أن شخصاً قال لجنين فى الرحم : إن فى الخارج عالماً بالغ النظام ، أرضاً طيبة ذات عرض وطول ، فيها مائة نعمة ، وكثير من الأكل ، وجبالاً وبحاراً ومروجاً وبساتين وحدائق ومزارع ، وسماءً سامقة العلو ، مليئة بالضياء ، وشمساً وقرراً ومائة من الكواكب ، وحدائق حافلة بالأعراس والولائم .

إن عجائب هذا العالم لا يحيط بها الوصف ، فلماذا أنت فى هذه الظلمة أسير

المحنة ؟

إنك تحتسى الدماء ، وأنت مصلوب في مكان ضيق ، أسير حبس ودنس وعناء .

لكان الجنين - بحكم حاله - مُكبراً ذلك القول ، مُعرضاً عن تلك الرسالة ، كافرأ بها قائلًا : إن هذا محال ووهم وخداع . . ذلك لأنه خيال الأعْمى ، لا تصور له . .

وهكذا عامة الخلق في هذه الدنيا ، يحدّثهم المرشدون الروحيون عن هذه الدنيا ، قائلين : إنها عالم بالغ الظلمة والضيق ، لكنّ خارجها عالم تسامى عن الروائح والألوان ، فما تنفذ إلى سمع أحدهم كلمة قط ، فالطمع حجاب جسم كثيف . . إن الطمع هو الذي يسد الأذن عن الاستماع ، والغرض هو الذي يغمض العين عن الاطلاع^(١) .

* * *

ويدعى أن (الدين بديل خيالي عن العلم ، ولكن تنشأ المشكلة عندما يدعى الدين لنفسه ولعقدااته نوعاً من الصدق ، لا يمكن لأى بديل خيالي أن يتصف به ، إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليس إلا محاولة يائسة للدفاع عن الدين ، يلجأ إليها كلما اضطّر الدين أن يتنازل عن موقع من مواقعه التقليدية ، أو كلما اضطّر لأن ينسحب من مركز كان يشغله في السابق ، إن نمط هذه العملية معروف جيداً ، إنها تبدأ بصدام شديد بين النظرة العلمية الجديدة حول موضوع ما ، وبين النظرة الدينية السائدة إلى الموضوع ذاته ، وبعد نزاع قد يستمر سنين طويلة تنتصر النظرة العلمية الجديدة ، وتسود بين كبار المفكرين ، وتنتشر بين الفئات المثقفة تماماً ، عندما يوشك العلم أن يتجاوزها إلى نظرة أفضل ، عندئذ يقول أصحاب النظرة الدينية ، إنه لم يكن من موجب لهذا النزاع أصلاً ،

(١) - جلال الدين الرومي - د . كفاي - بيروت سنة ١٩٧١ ص ١٣٣ / ١٣٤ .

لأن الخلاف لم يكن بين جوهر الدين وروحه من جهة وبين العلم من جهة أخرى ،
لذلك لا يضير الدين أن يتنازل للعلم عن أمور لا تمس روحه ، ولكن الحق يقال ،
إن هذا النمط من التفكير يجبئ وراءه سلسلة طويلة من التراجعات الهامة والحاسمة
اضطر إليها الدين عندما وقف وجهاً لوجه أمام العلم) ص ٢٤ .

لو أن (الدكتور) فحص مقدماته التي بنى عليها نتائجها لأراح واستراح ، ولكنه
مصر على المغالطات التي تخدم أهداف (الاستعمار الأحمر) الذي كشف عن مخالبه
وأنيابه في كثير من بلاد الدنيا . . ويتعمى العملاء والأدعياء عن الحقائق المرة التي
تقوم على الإيادة والتخريب ، على أمل أن يكونوا في يوم الفئة القليلة المستغلة
المستبدة ، أوفى ركاب هذه الفئة . .

يقول : (إن الدين بديل خيالي عن العلم) ، مع أن الدين غريزة ، والإيمان
فطرة ، وهذه حقيقة نفسية حدثت بها النصوص الدينية ، وأيدها علم النفس وعلم
الاجتماع ، والغريزة والفطرة أصل لا بديل ، وحقيقة لا خيال ، لكن الكاتب
(الدكتور) يريد اختلاق معارك بين العلم والدين ، ينتصر فيها العلم ، وينهزم
الدين ، مغطياً انسحابه بما يثير من غبار ! !

وقد سبقت الإشارة إلى أن منهج الدين وميدانه غير منهج العلم وميدانه ، وأن
العلم المرتكز على قاعدة نفسية سليمة يؤدي إلى الإيمان وتعميقه ، والعلم مع النفوس
القلقة المضطربة يساعد على التمرد والطيش والتجاوز ، شأن أية قوة مادية ، فالمال
والجاه يفعلان هذا الفعل ، وإن اختلفت الصورة . .

وقد ثبت أن الدين يكثر طلابه في حالة الإحساس بالضياع ، لأن فيه العزاء ،
ولأن الحقيقة الإنسانية الجاحدة تتجلى في قول الله سبحانه : (وإذا مس الإنسان
الضرر دعانا لجنبه ، أو قاعداً ، أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضرره مَرَّكَانَ لم يدعنا إلى
ضرر مسه) (يونس ١٢) .

الدين عزاء فطري ، وعلاج نفسي ، وملاذ الضائعين والخائفين والمعوزين ،

لأنه سبيل الارتباط بالقدره الإلهية ، وبالقوة الكونية المسيطرة ، يستوى في ذلك العالم والجاهل ، إلى حد ما ، وأى منكر للكائنات غير المرئية ، المعتر بعلمه ، حين يحتويه الظلام ، سيتعري عن مكتسباته العزيزة ، ضارعاً إلى الله . . ليس هذا بحكم موارث البيئة ، بل هى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) . (الروم ٣٠)
ولعل (فرعون) الممثل للقوى المادية ، حين أدركه الغرق ، وقال آمنت بالذى آمن به موسى - خير معبر عن هذه الحقيقة . فالدين حقيقة قائمة فى البنيان الإنسانى ، بل فى كل بناء ، (والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض) (النحل ٤٩) ولكن دواعى الغفلة ودواعى الغرور تدفع إلى الاعتزاز بالإثم ، وإلى أن يهرف الإنسان بما لا يعرف ، تطاولا وادعاءً وجحوداً .

ولو أن الدين انهزم فى معاركه مع العلم ماكان له أن يعيش فى عصر الذرة والصاروخ وسفينة الفضاء ، وماكان بوسعه أن يقف بصدر عارية فى وجه أعنى وسائل الإبادة التى يملكها الشيطان الأحمر .

إن المعركة لم تقم بين الدين والعلم ، ولكن بين رجال الدين ورجال العلم ، أوبين سلطان دنيوى وسلطان آخر ، ومن هنا كان تساقط الحجج ، وكانت الهزائم رهناً بقدره كل فريق على الإبانة ، لا بقدره الدين ولا بقدره العلم .

* * *

ويقول : (إن الاعتقاد بأننا سنلقى فى العالم الآخر أولئك الذين نكن لهم الحب يعطينا أكبر العزاء عند موتهم ، ولكنى لا أجِد أى مبرر لافتراضنا أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا . . ولا أحسب أنه من الصواب والحكمة أن نعتنق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية) ص ٢٧ .

وهى دعوى اصطنعها الكاتب ، لأن أحداً لم يقل بأن الآخرة مطلب لقاء الأحباب : (يوم يقرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم

يومئذٍ شأن يغنيه) (عبس ٣٤/٣٧) . وإن كان من كمال السعادة في الجنة أن
يجتمع شمل الأسرة المؤمنة الصالحة . .

ركز على الجانب العاطفي - وهو ما تلقفه من كتابات وثنية - ليشير إلى أن العالم
الآخر من صنع الإحساس بالفراغ ، أو الشوق إلى المجهول ، وليس حقيقة دينية ،
عالجها القرآن الكريم في آيات كثيرة ، لأنها إحدى ركائز الإيمان ، ولأن الخير والشر
والطاعة والمعصية رهن بما يجرى في الآخرة من حساب ، ولأن المشركين طالما عجبوا
من البعث بعد الموت : « أَتُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ مِنْ آيَاتِنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا ، أَتُنْصِرُونَ » ؟ (الصافات
١٦) . (إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) . (الدخان - ٣٥) .
(الدكتور) ما زاد على أن ردد ما قاله المشركون منذ قرون طويلة ، ولم يكلف
نفسه جهد الإمساك بالقرآن الكريم ، ليعرف ما إذا كانت هناك (أدلة بيّنة وعلمية)
أم لا . .

إنه لا يؤمن إلا بما يرى ، مع (علمه) أنه لا يرى ملايين الكائنات الدقيقة التي
تسكن جسمه ، وتسكن الغلاف الجوي الذي يحيط به ، إلا بوسائل (علمية)
مكبرة ، كما أنه لا يرى ملايين الأجرام السماوية ، مع ضخامتها ، ولا يدري من
أمرها ، مع قدرته (العلمية) على الوصول إلى القمر والمريخ .
ومع أن العلم لا يجرؤ على القول بأن حركة الأجرام السماوية - (وكل في فلك
يسبحون) منذ ملايين السنين - يمكن أن تتم بهذا التنسيق والتناسق الرائع بفعل
الطبيعة أو المصادفة فإن (الدكتور) ينكر وجود الله ، مكتفياً بذكر (الكون) ،
وكانه بهذا الإنكار قد احتفظ لنفسه بحق (المعرفة) ، مع أن (الإنكار) يمثل عجزاً
وضعفاً وخذلانا ، وهو موقف الكافرين منذ الجاهلية الأولى ، « وما يُهلكننا
إلا الدهر » (الجاثية ٢٤) فهل الدكتور يمتص أفكاره من قبور الجاهلية في عصر
الأكثرون والنيرون ؟ .

الماركسية دين :

(إن الاشتراكي الحقيقي لن يكون مسروراً عندما يكتشف أن أهم مبدأ في عقيدته هو الإيمان بالله) ص ٤٧ .

إعلان صارخ مهد له بقوله :

(أما النظرة العلمية فقد عبر عنها أحسن تعبير فيلسوف وعالم رياضي آخر - لا بلاس - Laplace عندما قدم كتابه نظام الكون هدية إلى نابليون ، فسأله الإمبراطور : وما المكان الذي يحتله الله في نظامك ؟ فأجاب لا بلاس : الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي.. فهل من عجب إذن أن نسمع نيتشه يعلن في القرن الماضي أن الله قد مات ؟ وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوروبا بدأ يحتضر في كل مكان ، تحت وقع تأثير المعرفة العلمية ؟) ص ٢٧ .

(إن النظرة العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان

خالية من ذكر الله ، تماماً كما قال لا بلاس) ص ٢٨

مجرد أن يقول لا بلاس أو نيتشه - من الملاحظة - قولاً في حالة من العمى أو الهذيان ، فإن هذا القول في نظر (الدكتور) يمحو كل قول جاء به الرسل والأنبياء والحكماء والفلاسفة والعلماء ، ويغطي على كل هذا النشاط الديني العام المتمثل اليوم في شباب الجامعات ، وبخاصة كليات العلوم والهندسة والطب .

ويورد (قطعة أدبية) لبرتراند رسل بعنوان (عبادة الإنسان الحر) تقول بان الكون نشأ من (السديم الحار الذي دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى ، ثم بدأ يتقوّل ، فخرجت منه الكواكب ، وبردت . . . إلخ) ص ٢٥/٢٦ .

ونحن - إذا تجاوزنا عن كلمة (عبثاً) لعامل أو لآخر - نجد أن قول (رسل) لا يبعد عن قول الله سبحانه : (ثم استوى إلى السماء - وهي دُخان - فقال لها وللأرض : اتنيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين) . (فصلت - ١١) .

ثم إن قول (رسل) لم ينكر أن هذا تم بإرادة الله ، لأن هذا السديم الحار لا يتقلب في ملايين الشمس التي تدور في مدارات منتظمة ، دون أن تتصادم ، على مدى ملايين السنين ، مستقلة عن إرادة عقل كلى يحكم هذا النظام الكونى . . ومع أن رسل وغيره من المتحدثين عن أولية الكون إنما يتحدثون عن ظن وحس وتخمين ، ممسكين ببعض الخيوط التي لا تملك الجزم أو اليقين . . ومع أن (الاعتراف الصحيح بأننا لا نعرف ما لا نعرفه من أهم مقومات التفكير العلمى) ص ٢٩ - فإن (الدكتور العالم) يأبى إلا أن يكون الرفض والإنكار سبيله ، بحيث إذا قلنا من أين جاء السديم؟ قال : ومن أين جاء الله ؟

(وبذلك يحسم النقاش ، دون اللجوء إلى عالم الغيبيات ، وإلى كائنات روحية بحجة لا دليل لدينا على وجودها) ص ٢٨ - وينسى (الاعتراف الصحيح بأننا لا نعرف) ، ويبنى على هذا موقفاً عاماً من الأخبار الدينية ، فيقول : (كيف يكون موقف الإنسان الذى تعرض للثقافة ، وتأثر بها تأثراً جذرياً ، من المعتقدات الدينية التقليدية والمؤسسات التي تتجسد فيها ؟ يستطيع هذا الإنسان أن يستمر فى الاعتقاد بآدم وحواء ، وبالجهنم والنعم ، وبأن موسى شق البحر الأحمر ، وحول عصاه حية تسعى ؟ كيف يكون موقف الإنسان الذى نشأ نشأة دينية ، وتقبلها جملة وتفصيلاً ، من النظرة العلمية الطبيعية للحياة وللكون والإنسان ؟ من العسير أن نجد بيننا شخصاً يتمتع بشيء من الحس المرهف ، وبقسط ولو متواضع من الذكاء والثقافة العلمية ، لم يعانِ التوتر الذى تنطوى عليه هذه الأسئلة ، والقلق الذى تثيره فى إحدى مراحل حياته ونموه) ص ٣٠/٢٩ . وما أظنه يغيب عن فطنة (الدكتور) أن القلق طبيعة مرحلية ، نتيجة الانكشاف على عالم لم يستطع أن يجمع فيه بين إملاءات مورثة لم يتم هضمها ، وإملاءات مدروسة لم يحسن دارسوها الربط بينها وبين الموروثات ، فكان الانفصام الذى لا يلبث بعد أن يرتوى من الموروث والمدرّوس أن يجد المصالحة النفسية والعقلية

ولو أن (الدكتور) بعيد من المؤثرات السياسية ، والخضوع لأوهام الأممية ،
التي يستهويه دوره فيها ، لأمكنه بقدر من المعرفة ، وبقدر من التواضع ، أن يجد
نفسه في محراب من المحاريب يسبح باسم الله .

ولو أن (الدكتور) أزاح عن عينيه وعن أذنيه العصابة الحمراء قليلاً لعرف
ما يعرفه تلامذة المدارس من أن تاريخ العلم والعلماء ليس مقصوراً على الكافرين ،
بل إن نسبة الملحدين من العلماء إلى المؤمنين - في الأديان المختلفة - لا تكاد تصل
إلى واحد في المائة ، فمن أين له هذه الأحكام ؟ ألا يرى أنها آفة الرفض ، لوثت
كل الآبار العذبة ، بالرغم من (الاعتراف الصحيح) بأن العلم لا يزال قاصراً عن
التعرف إلى كثير مما حولنا ، وإلى تعليل كثير مما عرف ؟

ويقف وقفة قصيرة عند قصة السجود لآدم ، لأنه سيخصصها ببحث آخر ، ثم
يعلق على الآيات الكريمة (١٢/١٤) من سورة «المؤمنون» بقوله :
(وخلاصة القول هو أن نمو الخلية البشرية يشكل معجزة إلهية لا تعليل لها سوى
قدرته المطلقة على الخلق ، وتدخله المباشر في سير أمور الكون ، هل يتفق هذا
الوصف والتعليل مع معارفنا العلمية عن الموضوع ، ومع ما يبينه لنا علم الأجنة
حول تطور الخلية البشرية في مراحلها الأولى ؟ الجواب هو حتماً بالنفي ، لأن علم
الأجنة لا يدع مجالاً للشك في أن الخلية تنمو بالتطور العضوي من طور لآخر وفقاً
لقوانين طبيعية معينة ، بحيث تنمو المرحلة المتأخرة من صلب المرحلة السابقة عليها ،
وعلى أساس معطياتها الأولية ، كل ذلك بصورة تسمح لنا بالتنبؤ بتطور الخلية ،
وبالمراحل المستقبلية التي ستمر بها ، وتمكننا من التحكم بنموها ، بحيث نستطيع
تأخيرها أو إيسرعه ، أو تشويهه - إن شئنا ذلك - بتعريضها لمواد كيميائية معينة ،
أو أنواع محددة من الأشعة) . ص ٤٠ .

ولنسأل السيد الدكتور :

من أوجد هذه القوانين الطبيعية التى تتحرك الخلية على هديها ؟

من هيأ الخلية لحمل الصفات الوراثية ؟

من جعل النواة قادرة على أن تتحول ذكرا أو أنثى أو خنثى ؟

من مكن النواة الأولى من أن تعتبر فرداً أو تنقسم إلى أفراد ؟

كيف لهذه الخلية أن تتحول إلى جهاز هضمى ، وجهاز تنفسى ، وجهاز عصبي ، وإلى مخ ، لو أريد صناعة مثله لكان المصنوع فى حجم الكرة الأرضية ؟
أنى للخلية أن تحمل كل إمكانيات العواطف الإنسانية ، والأفكار الإنسانية ،

والتاريخ الإنسانى ؟

ماذا يقول الدكتور فى أن جسم الإنسان يحوى أكثر من مائة ألف نوع من البروتين ، وكل بروتين يعرف رسالته وتخصصه الدقيق ؟

لو أننا تناولنا عالم الروح الذى يحرك هذا التكوين المادى ، والذى لا يسهل على الدكتور إنكاره (مادياً) ، فماذا هو قائل ؟

هل يختلف التكوين البيولوجى فى الإنسان عنه فى الحيوان ؟

ذكر أن العالم الألمانى هانس مان عثر فى المناطق القطبية على نوع من السمك يخلو دمه من الكريات الحمراء ، فكيف فرقت الطبيعة بين الكائنات الحية المختلفة ؟
لماذا كان الخير والشر فى طبيعة الإنسان دون سواه ؟

لماذا عمقت الطبيعة فلم تستمر فى إنجاب الأجيال المتطورة عن الخلية الأولى ؟
أسئلة كثيرة أجدر بالسيد الدكتور أن يشغل نفسه بها قبل أن يقول :
(باستطاعتنا أن نتدخل فى سير الخلية) .. طبعاً .. مادامنا نعرفنا على خط السير نستطيع أن نتدخل ، كما نتدخل فى مجرى النهر .. لكننا لا نستطيع أن ننشئ نهراً ، ونسير سحباً ، نسقطها لتغذى النهر ، وأن نخلق سمكاً ، وكائنات يتغذى عليها السمك ، وننوع الأسماك ونلونها ، ونجعل بعضها يضىء والآخر يعتم .. إلخ ..

فكوننا نستطيع أن نتدخل بالتأثير على مرحلة النمو لا يبنى أن النمو خاضع لتقدير الخالق ، وتدخلنا رهن بمعرفة قدر من مكونات هذا (التقدير) ، لكننا لا نستطيع أن نخلق ، ولا نستطيع أن نضع القوانين . .

* * *

ويهاجم الأستاذ سيد قطب فيما تناوله (ص ١٦٥) من كتاب (الإسلام ومشكلات الحضارة) لأنه (يرفض نظرية التطور العضوى ، مع أنها توجت البحوث العلمية فى علم الحياة ، ونظرية فرويد ، مع أنها من أهم النتائج التى توصلت إليها البحوث العلمية فى مجال الدراسات النفسية ، ويرفض الماركسية أو الاشتراكية العلمية ، مع أنها أهم نظرية شاملة صدرت فى العلوم الاجتماعية والاقتصادية فى العصور الحديثة) ص ٤٣ .

ومن المعروف أن تلامذة دارون وفرويد وماركس اختلفوا معهم فيما انتهوا إليه ، لأنها مجرد (اجتهادات) قد تصيب وقد تخطئ ، ولم يقل العلم كلمته الأخيرة فيما ذهب إليه هؤلاء الأقطاب ولن يقول ، وهذه بدئية ، لا تجدى معها العبارات الاستهوائية مثل (أهم النتائج . . أهم نظرية) . .

ولا شك فى أن الأستاذ سيد قطب كان يتحرك من منطلق أن كل ما يتعارض مع الإرادة الإلهية فهو مرفوض ، وأن كل ما هو داخل هذه الإرادة خاضع لقيم أخلاقية ، وما خرج على هذه القيم فهو مرفوض ، فأئى للسيد الدكتور - وهو يتحرك من منطلق العبثية العدمية - أن يكون حكماً فى فكر أخلاقى رشيد؟! ثم يهاجم مجموعة من الكتاب الإسلاميين والمسيحيين ، على أساس أنهم يعمدون إلى التوفيق بين الدين والعلم ، خضوعاً للانصياعات العلمية التى تكسب كل يوم أرضاً جديدة ، ليؤكد أن الدين ضد العلم . ص ٤٥ .

كما يهاجم الدول الإسلامية التى تسير فى ركاب أمريكا ودول الغرب ، ويهاجم المؤسسات الإسلامية التى « تحشد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والاجتهادات

الفقهية والشرعية ، لتبين أن موقف دولتها هو الحق بعينه » ص ٤٦ .
ثم يعرض لجانب هام يغشى حياة الفكر الدينى ، وهو محاولة الزج بالعلم المادى فى كل معرض دينى ، وإقحام الاكتشافات والمقررات العلمية على القرآن الكريم بصورة إعلانية عن معارف الكاتب دون مبرر . . وللأسف راج مثل هذا اللون العاثر فى أيامنا هذه ، فاستغله أعداء الدين ما وسعهم الاستغلال . .
كتب يوسف مروة فى (العلوم الطبيعية فى القرآن) ، وقدم للكتاب سماحة الشيخ موسى الصدر والشيخ مصطفى الغلايى [قرر السيد مروة أن فى القرآن ٦١ آية فى علم الرياضيات ، و ٦٤ آية فى علم الفيزياء ، و ٥ آيات فى علم الذرة ، و ٦٢ آية فى النظريات النسبية ، و ٢٠ آية فى المناخيات ، و ٢٠ آية فى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) إلى آخر اللائحة المعروفة لفروع العلم الحديث ، ويرر السيد مروة هذا التوفيق التعسفى المحض بالكلام الآتى : بل إن الفيزيائيين والكيميائيين والجيولوجيين عندما يقرءون القرآن لا يرون فيه أى تناقض بين أبحاثهم وتجاربهم وبين الأفكار والمرامى العلمية التى تحملها الآيات القرآنية فى مواضيع اختصاصهم ، ذلك أن القرآن كتاب إلهى (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) الكهف - ٤٩ . و (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) الأنعام (٣٨)] .
و (تمكن السيد مروة من تحديد معنى اليوم الإلهى و « الثانية الإلهية » تحديداً رياضياً على أساس النظرية النسبية العامة ، ومن هنا توصل هذا العالم الفذ إلى قياس سرعة النور الإلهى) . ص ٥١ - ٥٤ .

محاولات أقرب إلى العبث منها إلى الروح العلمى تروج هذه الأيام ، وتجد من يصفق لها ، دون أن يدرى صاحبها أنه يسىء من حيث يريد أن يحسن ، وأنه يضيف عبثاً على الفكر الدينى ، ويفتح الطريق أمام أعداء الدين ليقولوا إنهم أعرف بطبيعة الدين ممن يتحدثون باسم الدين . . . فى هذا (خروج عن تعاليم الدين - من وجهة نظر الدين الذى يدافع عنه - لأنه خروج عن مبدأ التنزيه ، وسقوط فى

تشبيه الصفات الإلهية بالحداثات المادية ، بل هو سقوط في أقصى أنواع التشبيه ، أى التجسيم ، النور الإلهي في الدين هو طاقة روحية لامتناهية ولا محدودة - أى لا يمكن تحديدها كمياً ورياضياً على طريقة مزورة - ولا يدرك كنهها إلا بالإيمان والسريرة والبصيرة الداخلية (ص ٥٥ .

وهكذا مكن هؤلاء المبتدعون المتجاوزون أولئك الخارجين المارقين من أن يصبحوا معلمين مرشدين .

ولو أن هؤلاء المبتدعين وقفوا عندما حدد الله من مفهوم القرآن : (هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان) البقرة - ١٨٥ (لتندر به ، وذكرى للمؤمنين) الأعراف ٢ . (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) (إبراهيم ١) .

لو أنهم درسوا الأسلوب القرآن وأسرار إعجازه ، وعرفوا على من نزل هذا اللسان العربي المبين .

لو أنهم أدركوا طبيعة رسالة الرسل والأنبياء ، ماكان لهم أن يفتروا على الله كذباً ، وأن يدعوا على اللفظ القرآني ما لا علم للعربية به زمن النزول .
ولهذا وجب ألا ينهض لهذا الأمر الجليل - أمر تفسير القرآن الكريم - إلا من تأدب بآداب المفسر ، من طهارة النفس ، وفقه للغة ، وبصر بالبيان ، وعلم بالإنسان وتاريخه ، وبخاصة ذلك الإنسان العربي الذي نزل عليه القرآن الكريم ^(١) .

* * *

ثم يعرض للعلاقة بين الإنسان وربّه ، معلقاً على قولهم عن الله : (كل ما يخفى في بالك فهو خلاف ذلك) . يقول : (توجد عدة اعتراضات على هذا الموقف :

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا : المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم ، وفي : القرآن والتفسير العصري .

للدكتورة عائشة عبد الرحمن .

أولاً : هل بإمكانى أن أقيم أية علاقات جدية بينى وبين هذا الإله الذى تتجاوز طبيعته تجاوزاً مطلقاً منطقي ومشاعري وأفكارى ومثلى وآمالى ؟
هل بإمكانى أن أجد عزاءً فى إله جلّ ما أعرف عنه هو أنه مها خطر فى بالى من أفكار وصفات فهو يختلف عنها اختلافاً مطلقاً ؟

إن وجود مثل هذا الإله وعدم وجوده سيان بالنسبة إلى . إن هذا الإله ليس إلا تجريداً فارغاً من كل معنى ومحتوى ، ولا يمكن لإرادة إنسان أن تتعلق بتجريد محض تتجاوز بمراحل التجريد الذى وصفه أرسطو باسم « المحرك الأول » ، فإذا كان بإمكانك أن توجه ابتهالاً أو دعاءً إلى « المحرك الأول » فمن المؤكد أنك لن تستطيع أن توجهه لإله لا يمكنك أن تصفه بشيء على الإطلاق ، لأنه بطبيعته مخالف لكل ما يرد فى ذهنك من أفكار وكل ما تنطق به من صفات .

ثانياً : إذا كان الإله لا يوصف ولا يدرك بالنسبة للبشر ، فما معنى قولنا إذن بأنه « رحيم وبأنه عادل » ؟ عندما ننتع الله بالرحمة والعدل ، ماذا نعنى بهذه الصفات ؟ أليس هناك من شبه على الإطلاق بين الرحمة والعدل عندما نطلقها على الله وبين تصورنا الإنسانى لهاتين الصفتين ؟ إذا كان الجواب بالنفى ، هل تكون إذن أذهاننا فارغة من كل معنى وتصور عندما ننتع الله بالرحمة والعدل ؟ هل ننسب إليه كلمات لا معنى لها على الإطلاق بالنسبة للبشر ؟ فى الواقع ، إننا فى موقف حرج حيال هذا الموضوع ، فإما أن ننتع الله بالعدالة وفقاً لتصور يشبه إلى حد ما وبصورة غامضة تصورنا الإنسانى لهذه الصفة ، وإما أن يكون قولنا بعدلته كلاماً فارغاً من كل معنى ومحتوى ، أى أننا مرغمون إما على التشبيه ، وما يترتب عليه من عواقب ، أو على التنزيه التام ، وما يستتبع من نتائج . ص ٧٢/٧٣
بمجرد كلام ذى بريق ، لا يحمل دلالة ذات قيمة ، لأنه لا علاقة يمكن أن يقيمها المخلوق مع الخالق سوى الإجلال والطاعة ، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات ٥٦ ، ثم الافتقار (إياك نعبد وإياك نستعين) الفاتحة ٥

وإذا كان الله أبعد من كل تصور ، فلأنه (نور السموات والأرض) . . (نور على نور) . التور ٣٥ وليس في وسع العقل الإنساني القاصر أن يحده ، وحسبه أن يتعرف عليه من خلال آثاره ، وهذا أبلغ في التعظيم ، وأدعى إلى الطاعة الخالصة من كل رياء . .

أما صفات الله فهي من واقع آثار الله فينا ، وليست من واقع تعرفنا على ذاته ، لأن الربط بين الذات والصفات بهذا المفهوم الذي عناه الكاتب تنزيل الخالق - سبحانه - إلى صفات مادية تنزه عنها . .

ورحمة الله وعدله وبقية صفاته إنما هي مدركات لكمال الصفات ، وحسبنا - إذا عجزنا عن الإدراك - أن نتعرف إليها من خلال إخباره ، جل شأنه .
ولهذا وجب ألا نسمى الله - سبحانه - إلا بما سمى به نفسه ، لا كما فعل السيد (الدكتور) حين سمى الله الماكر ، دون وعي للأسلوب البلاغي الوارد في قوله تعالى : (ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) . . الأنفال - ٣٠ .

* * *

ويختم بحثه ملخصاً الهدف بقوله :
« حسن أن يفرق بين الدين والشعور الديني ، فالشعور فطرة ، والدين آداب والتزامات ، ولا يصلح أحدهما بغير الآخر ، ولهذا قيل : « دين الفطرة » ، جمعاً بين الدستور والحاجة إليه ، والرغبة في تحقيقه والشوق إلى ثماره » ص ٧٨ .

لكن السيد (الدكتور) ، اتخذ من هذا التفريق وسيلة للخلاص من الدين ، اكتفاءً بالشعور به ، ليفرغ الدين من كل قيمه ، إلا الإخلاص والتضحية والتسامي ، حتى يجد (الماركسي) في كفاحه ما يشبع غريزة التدين فيه ، أو ليخدع الإنسان فيه عن هذا الشعور بالتسامي . . وكأنه - من خلال (بحثه) الطويل ، مع أنه لم يلتزم آداب البحث - إنما أراد أن يقول : لا حاجة إلى هذا الدين الذي

تدينون به ، لأنه صارف عن الماركسية ، وإذا كان لابد من دين ، فالماركسية دين .

مأساة إبليس :

محاضرة أُلقيت في النادى الثقافى العربى سنة ١٩٦٥ ونشرت بمجلة « الثقافة العربية » ، شباط سنة ١٩٦٦ م ، جعل شعارها قول جوتة على لسان فاوست : أنا روح رافضة أبداً . .

وفىها يقول : (كان إبليس من المقربين بين الملائكة ، وكان له شأن عظيم فى نظام الملأ الأعلى ، إلى أن عصى أمر ربه ، فطرده من الجنة ، ولعنه لعنة أبدية ، فأصبح بذلك تجسيدا لما هو شر ، وجمع فى ذاته كافة الخصائص التى تنتفى عن الله ، ويلاحظ هنا أن اسمه يدل على جوهره ، وهو (الإبلاس) أى اليأس التام من رحمة ربه ، ومن العودة إلى الجنة (وفقاً للتفسيرات لمعنى الإبلاس) . . ص ٨١ .

وقد اعتمد - للأسف - على كتابات (إسلامية) واستغل الاجتهادات والعبارات (الملونة) فى خدمة الهدف الذى خطط له . . وهو - منذ البداية - يلجأ إلى المغالطة ، فيختار من كتابات (الإسلاميين) ما يتفق وهواه ، وليس من شك فى أننا نجد فى كتاباتهم أقصى اليمين وأقصى اليسار ، بل إن فى كتابات المفكر الواحد جمعاً بين النقيضين فى مكانين مختلفين ، بسبب سيولة الكلمة ، والتهاب العاطفة ، وافتقاد المنهج .

ولنسأل : من قرآن إبليس كان (من المقربين بين الملائكة) والنص القرآنى أنه (كان من الجن) ؟ الكهف - ٥٠ فلما قال له الله سبحانه : (ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) الأعراف - ١٢ . والملائكة فى كتابات جمهرة الإسلاميين من نور والجن من نار ، إذن فإبليس

ليس من الملائكة ، وليس من المقربين « هذا إلى أن عالم الملائكة والجن ليس مما ينكشف أمره لنا ، والحديث عنه اجتهاد ظني ، لا مجال للقطع فيه ، وكلّ يفسر على وفق ما ترتاح إليه نفسه ، ولهذا نجد من يقول عن الملائكة : إنهم شخوص ، ومن يقول : إنهم قوى معنوية ورموز.. والذي يروج في أقلام المفكرين المحدثين أنهم قوى معنوية ، ولو أننا أخذنا بهذا التفسير لوجدنا حلول كثيرة من المشكلات . . فإذا كانت الملائكة تمثل قوى الخير ، وإبليس يمثل قوى الشر ، فالأمر (في القصة) أمر كوني ، بمعنى أن قوى الخير في الإنسان تمثل الاستجابة والطاعة ، وقوى الشر تمثل العناد والمعصية ، والأسلوب القرآني - في عرض هذه الحقيقة - أسلوب (تمثيلي) جرى في عرض كثير من المعاني القرآنية ، كما في الحديث عن الأمانة : (إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبّين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان) الأحزاب - ٧٢ ، وكما في الحديث عن فطرة الإيمان بالله : (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا) الأعراف ١٧٢ ، وغير هذا كثير في حديث الجنة والنار . .

إذن فالمراد بعيد من مخالفة أمر الله ، وبعيد من (الواقع التشخيصي) الذي يتخيله السذج والبسطاء ، لأنه ليس من المعقول في شيء أن يعصى الكائن خالقه (على مشهد منه) ، وهو يعلم قدرة الخالق على أن يقضى فيه ، ويعلم أن عصيانه لن يجديه ، ولن يحقق له رجاء .
هذا إلى أن (التشخيص) تجسيد ، وتشبيه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

* * *

ولقد أخذ الكاتب على ابن الجوزي في (تلييس إبليس) أنه (من حيث لا يعلم ولا يدري) أسبغ على إبليس (قوى خلاقية مبدعة ، تثير الإعجاب والتقدير ، وعلى سبيل المثال ، يعزو ابن الجوزي معظم الحركات الدينية والفكرية الكبرى التي

قامت في تاريخ الحضارة الإسلامية إلى عمل إبليس ، ويجعله مسئولاً عنها ، فيحوّله بذلك إلى فيلسوف كبير ، ومتكلم قدير ، يقول إمامنا المحترم : إن السوفسطائية ، والدهرية ، والطبائعية ، وأديان الشرق الأقصى ، والمسيحية ، وعلم الكلام ، وفرقة المعتزلة ، هي من أعمال إبليس ، ونتيجة لتبليسه على المفكرين والعلماء ، كما أنه يرد حركة الخوارج ، والرافضة ، والزهد ، والتصوف ، إلى تبليسه على أئمة هؤلاء القوم ، بما فيهم أبو طالب المكي والإمام الغزالي . . . إلخ)
ص ٨٢/٨٣

وهو - فيما يعرض من كلام ابن الجوزي - إنما يقصد إلى السخرية من (الفكر الإسلامي) ، ممثلاً في هذا المسلك العاطفي الذي إذا رضى أغدق ، وإذا سخط أحرق ، ويجعل منه (الفكرة الشائعة) ، ثم يبنى على هذا (أن إبليس يسير قسماً كبيراً من مجرى الأحداث) ويكون شريكاً لله في ملكه ، مع أن كلام ابن الجوزي لا يعدو النقمة على من لم يرض عنهم ، فوصف دوافعهم بالشر ، وبالشر صاروا أتباع إبليس (رمز الشرور) . .
والكاتب يكشف عن هويته التي تختار وتلون المختارات ، كما تهوى ، مما يهون من أمره ، لأنه - كما يقولون - إذا عرف السبب بطل العجب ، وهو لا يوارى ولا يدارى ، بل يعلن صراحة :

(سأختتم هذا الجزء من بحثي بالتأكيد على أن كلامي عن الله وإبليس والجن والملائكة والملا الأعلى لا يلزمني على الإطلاق بالقول بأن هذه الأسماء تشير إلى مسميات حقيقية موجودة ، ولكنها غير مرئية ، إن تركيب اللغة يتطلب مني بطبيعة الحال أن أكتب وأتكلم بطريقة معينة ، توحى في الظاهر وكأن الشخصيات التي أذكرها موجودة بالفعل ، ولكن يجب ألا نخدعنا هذا الوهم اللغوي) ص ٨٦ .
وقد وجد بغيته في كثير من العبارات التي تخضع في تفسيرها لمعرفة حال صاحبها ، وإلا خدعنا عن حقيقة مدلولها (الوهم اللغوي) المتعلق بظاهر اللفظ . .

ولهذا لجأ إلى الصوفية الذين تتلون ألفاظهم بألوان موهمة لمن لن يألف أجواءهم النفسية . . استعان بكتاني (الطواسين) للحلاج ، و (تفليس إبليس) لعز الدين المقدس ، وكلاهما صوفي يعبر عن مشاعر خاصة ترتبط (بحال) يمر بها ، فإذا عبّارة ذات ظاهر وباطن ، وكثيراً ما ينزع ظاهرها منزع الخروج على التقاليد والأعراف الدينية . . وكان (الدكتور) ذكياً في استخدام النصوص (الصوفية) للوصول إلى هدفه .

(يقول الإمام عز الدين المقدس ، في كتابه تفليس إبليس ، مخاطباً الشيطان : وأنت الذي خلقك الله بيد قدرته ، وأطلعك على بدائع صنعته ، وألبسك خلع توحيده ، وتوجك بتاج تقديسه وتمجيده ، وجعلك تجول في مجال ملائكته ، يقتبسون من نورك ويستأنسون بحضورك ، ويهتدون بعلمك ويقتدون بعملك ، فما برحت في الملاء الأعلى ، تشرب بالكأس الأملئ ، وتتلذذ بالخطاب الأحلى ، طالما ، كنت للملائكة معلماً ، وعلى جميع الكرويين مقدماً) . ص ٨٧ .

كلام تعجب صياغته ، وتغرب دلالته ، تحار من أين أتى بهذه الأفكار : (يقتبسون من نورك ، ويستأنسون بحضورك ، ويهتدون بعلمك ، ويقتدون بعملك) . . لكنها شطحات الصوفية ، يكفرهم بها ابن الجوزي وابن تيمية وابن قيم الجوزية ، ويستغلها من لم يألف أسلوب القوم ، وكان في قلبه مرض ، ليتخذ منها وسيلة للتهكم والتهجم والانفلات .

* * *

ثم يورد الآيات القرآنية التي تحدث عن قصة السجود لآدم (البقرة - ٣٠/٣٤) ، و (الحجر ٣٨/٤١) ، و (الأعراف ١٠/١٧) ، وبين الفرق بين الأمر والمشيئة الإلهية ، ويعلق بقوله :

١ - (لا شك أن إبليس خالف الأمر الإلهي عندما رفض السجود لآدم ، غير أنه كان منسجماً كل الانسجام مع المشيئة الإلهية ، ومع واجبه المطلق نحو ربه . .

٢ - لو وقع إبليس ساجداً لآدم لخرج عن حقيقة التوحيد وعصى واجبه المطلق نحو معبوده .. أراد الله للملائكة أن يقدسوه وأن يسبحوا باسمه ، لذلك كان السجود لآدم وقوعاً على ما يضيفه أهل الشرك إلى الذات الصمدية ، مما هي منزهة عنه ، إذ إن السجود لغير الله لا يجوز على الإطلاق لأنه شرك .
في الواقع يثير اختيار إبليس سؤالاً هاماً جداً ، هو : هل تكمن الطاعة الحقيقية في الإذعان للأمر أم في الخضوع للمشيئة ؟ هل يكمن الصلاح في الانصياع للواجب المطلق أم لواجبات الطاعة الجزئية ؟

لو كان الجواب على هذا السؤال بسيطاً وواضحاً لما وجدت المأساة في حياة الإنسان ، ولما وجد إبليس نفسه في هذه المحنة ، ولما وقع بين برائن الأمر والمشيئة . نستنتج إذن أن موقف إبليس يمثل الإصرار المطلق على التوحيد في أصفى معانيه ، وأنقى تجلياته ، وكان لسان حال إبليس يقول : « جبن سجد للأحد لا يذل في الوجود لأحد (تفليس ص ١٥) وعبر شهيد الصوفية الحلّاج عن هذه الحقيقة في « كتاب الطواسين » بالكلمات الآتية : « التقى موسى وإبليس على عقبة الطور ، فقال : يا إبليس ، ما منعك عن السجود ؟ فقال : منعى الدعوى بمعبود واحد ، ولو سجدت له لكنت مثلك ، فإنك نوديت مرة واحدة : (انظر إلى الجبل) فنظرت ، ونوديت أنا ألف مرة : « أن اسجد ، فما سجدت لدعوى بمعناى » (طاسين الأزل والالتباس) .

٣ - برر إبليس رفضه السجود لآدم تبريراً منطقياً واضحاً ، إذ قال : (أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) ، وبالإضافة إلى ذلك تتضمن الآيات القرآنية التي أشرت إليها تبريراً خفياً لرفض إبليس ، وهو معرفته المسبقة بأن آدم وذريته سيعيثون في الأرض فساداً ، ويسفكون الدماء ، وكان هذا شعور الملائكة أجمعين ، عندما قالوا لربهم : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أى كانت الملائكة بما فيهم إبليس ، على علم

بما سيرتكبه آدم وذريته من الكبائر والمعاصي فاستكبرت واستعظمت أن يخلق الله من يعصيه ويسفك الدماء - ص ٩١/٩٠ .

جدل تطمئن إليه بعض النفوس ، مادامت تجهل أن من معاني السجود الانقياد والتسخير ، (وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة ، وأنها خلق فاعل حكيم) - مفردات الراغب الأصفهاني - الحلبي سنة ١٩٦١ ص ٢٢٤ - كما هو وارد في قوله سبحانه : (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض) - النحل ٤٩ ومادامت تجهل أن من معاني الأمر تنفيذ سنة الله في الخلق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً) - الإسراء ١٦ .

ومن الآداب المعروفة أن يفسر القرآن بالقرآن ، ولا شك أن فهم السجود والأمر على هذا الأساس سيبتل سحر الساهر ، ولا يصبح مجالاً لاتهام الملائكة بأنها أشركت ، أو بأنها (استكبرت واستعظمت أن يخلق الله من يعصيه ويسفك الدماء) ، لأن الخبر لا يعدو تقرير واقع جرى به أسلوب الحوار (التمثيل) البليغ ، ولا يصبح مجالاً لوصف إبليس (بالإصرار المطلق على التوحيد في أصفي معانيه) ، لأنه سيترتب على هذا وصف الملائكة بخلاف ذلك ، ومن ثم ، يلتبس مفهوم الطاعة بالمعصية ، وهو ما يهدف إليه الكاتب . . ثم إن قول إبليس : (أنا لمحير منه) ينفي إرادة التوحيد ويصبح الموقف تعبيراً عن زهو وكبرياء .

أما ما هو من أمر التعبير الصوفي في هذا المجال وغيره فالصوفية يوظفون (الشخص) توظيفاً فنياً ، من أجل إبراز معاني متسامية ، ومن أجل الترجمة عن مشاعر أكثر شفافية وأبقى صفاءً ، وموقف الحلاج والمقدسي هنا رهن بتصوير التوحيد المطلق ، والارتباط بحدود القصة .

ولعل الحوار الذي أجراه الحلاج بين موسى وإبليس ليفيد أن الأمر أمر ابتلاء يكشف عن أن الحلاج إنما يعالج مشاعره الخاصة من خلال هذا التناول :

قال موسى لإبليس : تركت الأمر .
 فأجاب إبليس : كان ذلك ابتلاءً لا أمراً .
 فقال له موسى : لا جرم ، قد غير صورتك .
 فأجاب إبليس : يا موسى ، ذاودا تلييس ، والحال لا معول عليه ، فإنه
 يحول ، لكن المعرفة الصحيحة كما كانت ، وما تغيرت ، وأن الشخص قد تغير
 (عن طاسين الأزل والالتباس) .

ويأخذ على الأستاذ العقد تفضيل آدم على الملائكة لأنه عرضة للخير والشر ،
 في حين أن الملائكة بمنجاة من الغواية ، ويقول : إنها (دعوى فاسدة من أساسها
 للأسباب الآتية :

(أ) تبرهن قصة إبليس أنه حتى سادة الملائكة والقربين منهم ليسوا بمنجاة من
 غواية الشر ، وإلا لما عصى إبليس ربه ، وانتهى إلى بشس المصير .

(ب) لو افترضنا جدلاً مع العقد أن الملائكة ليست عرضة للخير والشر ، وإنما
 هي تفعل الخير دائماً بطبيعتها وجوهرها . . . أيها أفضل : الكائنات التي تصنع
 الخير أحياناً ، وتصنع الشر أحياناً أخرى . فتفسد في الأرض ، وتسفك الدماء ،
 أم الكائنات التي لا تصنع إلا الخير بصورة مستمرة ودائمة ؟

فهل يريد العقد أن يجعل من قدرة آدم على الإفساد وسفك الدماء مصدراً
 لسموه على الملائكة ؟ ص ٩٤ .

طبعاً لا يريد العقد ذلك ، لأن العقد يقصد إلى فكرة فلسفية ، مصدرها
 الأمانة التي حملها الإنسان ، وهي أمانة (الاختيار) وخوض التجربة . . .
 ولا شك في أن معاناة الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل بين الواجبات
 ونوازع الشهوات - ترتفع بالمنتصر درجات .

ولو أننا فرضنا إمكانية المقارنة بين حال الإنسان هذا ، وحال من لم يتبل بهذه

المعاناة ، فإن تفضيل (الإنسان) سيكون أقرب إلى مدركاتنا ، دون حاجة إلى المغالطة في وصف الملائكة بأنهم (ليسوا بمنجاة من غواية الشر) والبارى - جل شأنه - أخبر عنهم بقوله : (وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون) النحل ٥٠/٤٩ . (لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون) التحريم ٦ .

وقد تنكشف المغالطة لو أننا أعدنا صياغة السؤال ، فقلنا ، أيها أفضل : الكائنات التي تصنع الخير مختارة ، أم التي تصنعه دون اختيار؟ فكيف إذا أضفنا إلى اختيار الخير نوازع النفس الأمارة بالسوء ، وبهرجة الحياة وزخارفها ؟ (١٩) .

* * *

والأستاذ العقاد - شأن الكتاب الإسلاميين - يفضل آدم على الملائكة ، لأن الله علمه الأسماء كلها ، فيرد عليه بقوله : (ولا شك أنه كان باستطاعة الملائكة تعلم الأسماء كلها لو شاء الله ذلك) ص ٩٥ . مع أن تعليم الأسماء مرتبط بالتجارب المتصلة التي يمر بها آدم في المجتمع الإنساني . فعن (علم آدم الأسماء كلها) أعطاه القدرة على المعرفة ، ومجتمع الملائكة لا يوفر هذه المعارف لأنه ليس في حاجة إليها . ولو أننا قيدنا كل فعل بقولنا : (لو شاء الله ذلك) لما كان لأحد من المخلوقات كلها فضل .

ثم يقول : (إن جوهر إبليس أفضل وأسمى من جوهر آدم ، لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من صلصال . وهو الذي أراد للصلصال ألا يسمى سمو النار) ص ٩٦ .

ولم يكن بشار (مفتياً) في هذا المجال ، حتى نقول : (والطين لا يسمى سمو النار) . . فالطين مادة أولية ، تشكلت ونفخ فيها من روح الله ، وقيمة المادة في

القدرة على تشكيلها ، فإذا شكلت في أحسن تقويم ، وكرمت ، فلا وجه لتفضيل النار عليها ، ثم إن إبليس يدعى هذه الدعوى ، وليس يقره عليها إلا أمثاله من الأبالسة . . .

* * *

وتستهويه المعالجة الصوفية لهذه القضية (الإنسانية) فيمسك بظاهر اللفظ ليشوّه القيم ، ويضرب ضربات (دونكيشوتية) واهماً أنه يصيب مقاتلاً ، فيقول : (عبر الحلاج عن محنة إبليس بإيجاز رائع بقوله : لما قيل لإبليس : اسجد لآدم ، خاطب الحق : أرفع شرف السجود عن سرى إلا لك حتى أسجد له ؟ إن كنت أمرتني فقد نهيتني) ص ٩٧ .

معان نفسية تعالج مفهوم (التوحيد) الخالص ، وترجم عن وساوس وهواجس ، تتاب (الإنسان) في معركة طويلة مريرة ، يعرض عنها الكاتب ، حاجة في نفسه ، وتوصلاً إلى عقد مقارنة بين محنة إبليس ومحنة إبراهيم عليه السلام ، لا ليرجح ، أو يوازن ، بل لينال من قيمة أخلاقية كبرى ، ومن درس في طاعة المخلوق للخالق ، لا أسمى ، ولا أبلغ . .

يقول : (خضع إبراهيم لأمر ربه ، ووضع المديّة على عنق ولده ، خالف بذلك القواعد الأخلاقية المطلقة التي أنزلها الله على عباده ، عن كيفية معاملة الآباء للأبناء والأبناء للآباء) ص ١٠٢ .

إذن : (مأساة إبليس كانت أعظم وأفجع من محنة إبراهيم ، ولا يقول مأساة إبراهيم بسبب ذلك الكبح الذي ذبحه عوضاً عن إسحق ، لأن التناقض الذي واجهه إبليس لم يكن بين واجبات الطاعة الدينية ، وبين واجبات الطاعة الأخلاقية ، بل كان بين واجبات الطاعة للأوامر الإلهية فحسب ، بعبارة أخرى واجه إبليس الرب ، وهو يناقض نفسه ، بصورة مباشرة ومفضوحة ، فذهب ضحية هذا التناقض وضحية الموقف الذي اختاره ووقفه) ص ١٠٣ .

وتعجب لهذه (الوقاحة) في عبارته (وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة ومفضوحة) ، لكن ، بماذا أدب (الكفار) أنفسهم ؟ إنه لا يكتفى بالكشف عن سوء أدبه وخبث طويته ، بل يكشف عن غبائه في تعامله مع عبارات الحلاج فلا يدرك أن قوله :

(أفردى ، أوحدى ، حيرنى ، طردنى ، لئلا أختلط مع المخلصين ، ما نعى عن الأغيار لغيرى ، غيرنى لحيرى ، حيرنى لغيرى ، قبحنى لمدحى ، أحرمنى لهجرى ، هجرنى لمكاشفى ، كشفنى لوصلتى) . . (طاسين الأزل والالتباس) . إنما هو ترجمة عن محنة نفسية عاشها الحلاج ، من واقع تأملاته العميقة في العلاقة بين الناسوت واللاهوت ، وقد اتخذ من إبليس (مشجباً) علق عليه (الزبد الخالد) الذى تفرزه سياحته الروحية . . وقد سار سيرة الإمام المقدسى وهو يقول على لسان إبليس :

(ثم لكألم شقوتى سألت الإنظار ، فصرت أضحوكة للحضار ، أذوب إذا سمعت الذاكرين وأتمزق إذا رأيت الشاكرين ، واحد أفر من ظله ، وواحد أهرب من ذكر فعله ، وواحد تحرقنى أنفاسه ، وواحد يعجزنى مراسه ، إذا تاب التائب قصم ظهرى ، وإذا رجع الآيب نقص عمرى ، كل ما بنيته مع العاصى فى سنة تهدمه التوبة فى سنة ، فأنا فى ويل لا يزول ، وحرب لا يحول ، وحزن شره يطول) ص ١٠٤/١٠٥ .

فظاهر النصين ترجمة صوفية عن (حال) هى مزيج من الوجد والخوف والرجاء ، وعلى طريقة الرمز فى الكتابة الأدبية اتخذ إبليس (معادلاً موضوعياً) يسقط الكاتب الصوفى عليه مشاعره وانفعالاته الخاصة ، ومن ثم ، لا يحسن الاستشهاد بمثل هذه النصوص فى مجال (موضوعى) ، يراد به (تعرية) الفكر الإسلامى ، وبيان تأثير (الأسطورة) عليه !

* * *

(وصف الحلاج موقف إبليس من ربه. بعد أن نزلت عليه اللعنة الأبديّة في محادثته التي تخيلها بين موسى وإبليس . . قال : قال موسى لإبليس : الآن تذكره ؟ فأجاب إبليس : يا موسى ، الفكرة لا تذكر ، أنا مذكور وهو مذكور ، ذكره ذكرى وذكرى ذكره ، هل يكون الذاكرون إلّا معاً ؟ خدمتى الآن أصنى ، ووقتي أنخلى ، وذكرى أجلى ، لأنى كنت أخدمه فى القدم لحظى ، والآن أخدمه لحظه) ص ١٠٩ (عن طاسين الأزل والالتباس) . ونظر الإمام المقدسى إلى مصير إبليس وكبريائه نظرة غير مألوفة ، متأثراً فى ذلك برأى الحلاج فقال :

(قال لى : اسجد لغيرى ، قلت : لا غير ، قال : عليك لعنتى ، قلت : لا ضير ، إن أدنيتنى فأنت أنت ، فقال : تفعل ذلك استكباراً وفخاراً ؟ فقلت : سيدى ، من عرفك فى عمره لحظة ، أو خلا بك فى دهره غمضة ، أو صحبتك فى طريق محبتك ساعة ، حق له أن يفتخر ، كيف بمن قد قطع الأعمار ، وعمر بحبك الآثار ، كم قد قت فى صحائف توحيدك فى الليل والنهار ، كم قد درست من دروس تقديسك وتمجيدك فى الإعلان والأسرار ، والآثار تشهد لى ، والديار تعرف بحقى ، والليل والنهار يصدقنى) . ص ١١ (عن تفليس ص ٢٢/٢١) . هذه المناجاة - وهى لا تخرج عمّا جرى على لسان إبليس بقلم الحلاج - ليست إلّا ترجمة نفسية للكاتب فى (حال) ، مردها الحس الواعى بالحضور الإلهى ، وبالرحمة التى وسعت كل شىء :

لم يبق عفوك فى السموات العلّا والأرض شبراً خالياً للنار
ومن هنا تتفتح أبواب الأمل والعزاء معاً ، الأمل فى المغفرة ، والعزاء فى الاستمتاع بالحضور ، حتى فى حالة (التجاوز) ، لأن التجاوز يذكر بالله ، كما تذكر الطاعة ، لأنها ثمرة (إنشاء) إلهى ، و (إرادة) إلهية .
وهذا تصور شائع على ألسنة كثير من الصوفية المتأخرين ، وبخاصة ابن عربى

الذى دافع عن إيمان فرعون دفاعاً طويلاً فى كتابيه (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) ..

* * *

ثم فرق بين سجود الملائكة وعدم سجود إبليس بقول الحلاج :
(سجدوا لآدم على المساعدة ، وإبليس جحد السجود لمذته الطويلة على المشاهدة ، لأنه هو الذى كان أعلمهم بالسجود ، وأقربهم من الموجود ، وأبذلهم للمجهود ، وأوفاهم بالعهد ، وأذناهم من المعبود) .. (طاسين الأزل والالتباس) .

وبما أن هذه الأوصاف لا مصدر لها إلا خيال كاتبها ، فالحلاج إذن يعالج قضية فلسفية ، لا قصة دينية ، ومن ثم لا ينبغي تحميل النص القرآنى تأملات (ذاتية) لا تعبر إلا عن رؤية نفسية متجردة ، لا يملكها إلا صاحبها ، ولا يسهل على الكثيرين أن يمحوا بنفس (حاله) ، وأن يفعلوا بانفعاله .

* * *

وألح على مفهوم القضاء والقدر ، من أجل أن يبرئ إبليس مما ينسب إليه ، مستعيناً بقول المقدسى على لسان إبليس :
(إن زل أحدهم قال : إنما استزهم الشيطان ، وإن نسى أحدهم قال : فأنساه الشيطان . وإن عمل أحدهم قال : هذا من عمل الشيطان ، فأنا حمال أوزار المذنبين ، وحمال أثقال الخاطئين) . (تفليس ص ٣٦) .
مع أن إبليس لا يملك لنفسه نقعاً ولا ضرراً لأن الله هو صانع الخير والشر بدليل الحديث القدسى القائل :

« إن الله عز وجل - يقول : لا إله إلا أنا ، خلقت الخير وقدرته ، فطوبى لمن خلقته للخير ، وخلقته للخير له ، وأجريت الخير على يديه ، أنا الله ، لا إله إلا أنا ، خلقت الشر وقدرته ، فويل لمن خلقت الشر ، وخلقته الشر له ، وأجريت

الشر على يديه » (الاتحافات السنينة فى الأحاديث القدسية ٧١) .

فلما من يجب أن ينسب لإبليس عصيانه وجحوده ؟ أو على حد قول إبليس :
« فلئن كنت لإبليس آدم ، فليت شعرى من كان لإبليس ؟ » (تفلير ١٦) .
وبطبيعة الحال أحال إبليس جحوده إلى مصدره الحقيقى والنهائى بقوله : (فبما
أغويتنى) فأعطى بذلك لله ما لله ، ولم يعط لقيصر شيئاً ، لأن قيصر لا يملك شيئاً
على الإطلاق بالنسبة لإبليس ، ولا حول له ولا قوة حتى ينسب له أى شىء
ص ١٢٤/١٢٦ .

وهدف الكاتب من هذا كله أن يصل إلى (عبثية) محنة إبليس ، إن كان هناك
إبليس ، وليطعن فى مفهوم العدالة الإلهية ، إن صحت هذه القصة ، وليسخر من
الموقف كله بقوله مدافعاً عن إبليس :

« تمسك إبليس بحقيقة التوحيد تمسكاً لا مثيل له ، ولذلك لا يمكن أن ينتهى
فى جهنم ، عملاً بالحديث القدسى القائل : « قال الله - عز وجل - إني أنا الله ،
لا إله إلا أنا ، من أقرئ بالتوحيد دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن عذابى »
(الاتحافات السنينة ٤) .

(ولقد) نجح إبليس فى التجربة التى ابتلاه الله بها ، وصبر على البلاء الذى
حل به ، من جرائمه ، وعليه ، فإن مكافأته النهائية مضمونة بدليل الحديث القدسى
القائل : « قال الله عز وجل إذا ابتليت عبداً من عبادى مؤمناً فحمد منى ، وصبر
على ما ابتليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول
الرب للحفظة : إني قيدت عبدي هذا ، وابتليته ، فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل
ذلك من الأجر » (الاتحافات السنينة ١٠) .

ثم يقول معقّباً على هذا كله ساخراً :

(أعتقد : أولاً : أنه يجب علينا إدخال تعديل جذرى على نظرتنا التقليدية إلى
إبليس ، وإحداث تغيير جوهرى فى تصورنا لشخصيته ومكانته .

ثانياً : يجب أن نرد له اعتباره - بصفته ملاكاً يقوم بخدمة ربه بكل تفران وإخلاص ، وينفذ أحكام مشيئته بكل دقة وعناية .
وأخيراً : يجب أن نكف عن كيل السباب والشتائم له ، وأن نعفو عنه ، ونطلب له الصفح ، ونوصي الناس به خيراً بعد أن اعتبرناه - زوراً وهتافاً - مشغولاً عن جميع القبائح والنقائص (ص ١٢٨ .
ثم يحذرنا من مغبة رد الاعتبار لإبليس ، مستشهداً بمسرحية (الشهيد) لتوفيق الحكيم ، التي يقول فيها جبريل مخاطباً إبليس :
(زوالك من الأرض يزيل الأركان ، ويزلزل الجدران ، ويضيع الملامح ، ويخلط القسمات ، ويمحو الألوان ، ويهدم السمات ، فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة . . ولا للحق بغير الباطل . . ولا للطيب بغير الخبيث . . ولا للأبيض بغير الأسود . . ولا للنور بغير الظلام . . بل ولا للخير بغير الشر . . بل إنَّ الناس لا يرون نور الله إلا من خلال ظلامك . . ووجودك ضروري في الأرض ، ما بقيت الأرض ، مهبطاً لتلك الصفات العليا التي أسبغها الله على بني الإنسان) ص ١٢٨ .

* * *

وبعد فالكتاب فيما عدا هذين (الباحثين) - لا يكاد يحرك ساكناً . . .

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط

٢

أراد أبو حيان التوحيدي أن يحدد المعرفة فذكر قصة العميان والفيل ، مبيناً أن كل أعمى عرف الفيل من حيث تحسس أحد أعضائه .

والمعروف أن الأعمى من فقد الرؤية البصرية ، وفقد الرؤية يتم عن طريق الرائي كما يتم عن طريق المرئي ، ولا شك في أن خفاء المرئي أدلّ على عدم القدرة . وإذا كان الفيل - مع جسامته - قد صعب الاتفاق على تعريفه ، عن طريق

تحسسه ، فكيف بمن عز على جميع وسائل الحس !!

هذه الحقيقة يجب أن تكون ماثلة أمام أعين الذين يطرقون باب التفلسف ، فلا يتجاوزون بقصورهم حدوداً منيعة ، وتأخذهم العزة بالإثم فيبالغون في الضلال باسم الحرية الفكرية ، كأن من الحرية أن أخوض معركة بلا سلاح أو أن يكون أى سلاح صالحاً لكل معركة .

إن الفلاسفة والعلماء وذوى القدرات الفائقة شهدوا بالقصور العقلى أمام كثير من الحقائق الكونية العالية ، وإن كنا في غير حاجة إلى شهادتهم . . . يكفى أن أحداً منا لا يستطيع أن يدرك ما وراء بابه المغلق ، لا يستطيع أن يرى ما تراه البوم ، ولا أن يستشعر ما تستشعره الحفافيش ، ولا أن يشم ما تشمه الكلاب ، ولا أن يسمع ما تسمعه الأفاعى ، ولا أن يعي ما يعيه الطيور المهاجرة .

إن الإنسان يجب أن يتحرك في إطار إمكانياته المحدودة . أقول هذا في صدر تقديم كتاب (مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر

الوسيط) للدكتور طيب تيزيني (دمشق ١٩٧١) .

والكاتب في كتابه يتحرك من منطلق الفكر المادى ، ومعاداة الفكر المثالى . . وهو - كصاحبه الدكتور صادق العظم ، الذى سبق تناوله - كافر بالله ، إلا أنه لم يجهر بمعتقده فى مقدمة بحثه ، كما فعل صاحبه ، لكنه سلك مسلك الباحث عن الحقيقة المتحدث بلسان غيره . . ولأنه يتحرك بدوافع مسبقة ، وبأفكار اعتقدها فهو حريص على أن يلوى كل عبارة حتى تخدم الهدف الذى يريد ، لكنه يختلف عن صاحبه فى اعتزازه بالتراث العربى أو فى إعلانه عن هذا الاعتزاز ، على حين كان العظم ساخراً متهمكاً . . ولعل الإعلان عن اعتزازه بالتراث من واقع تزييف المكتسبات العربية الإسلامية حتى تكون شاهداً على صحة معتقده ، وسبيلاً إلى ترويج مذهبه .

ولهذا ، يطالب (بإعادة النظر الشاملة بمجمل قضايا هذا التراث العملاق) ، إعادة (تتطلب أخذ موقف ملتزم منه ، موقف يعيد الاعتبار للجوانب المشرقة منه ، وقيم الجوانب المظلمة على نحو علمى دقيق) ص ١٠ والنظرة العلمية تقتضى أن (اللحظة الجدلية ، فى مفهوم ما ، يمكن استنطاقها واستخراجها بشكل أدق وأكثر شمولية ، حين تبحث فى وحدتها العميقة مع تاريخها ، أى مع تاريخ المفهوم نفسه) ص ٤ أو بصورة أوضح ، هى (أن فكرة ما بمضمون معين ، يمكن - فى إطار اجتماعى حضارى آخر مختلف - تبنيها ، مع إكسابها مضموناً آخر مناقضاً تماماً لمضمونها السابق) ص ٩٧ .

ومن ثم فهو يدرس التراث من واقع استخدامه لصالح معتقده المادى ، وليس على وفق ما تتطلبه الدراسة العلمية الصحيحة التى تقوم على أساس الاستقراء والمقارنة والاستنتاج بعيداً عن أى مؤثر سابق .

والالتزام بهذا المنهج - الذى لا ترتضيه القيم الفنية ، والذى يزعم أنه (المنهجية العلمية المعاصرة) - هو سبيله خلال هذه الدراسة الطويلة التى شملها كتابه ،

وجهد أيما جهد في جمع مادته ، وتطويعها لماديته ، بالرغم من دعواه أنه (يجب على تاريخ الفكر أن يلتحم ويتآخى مع قوانين الفكر نفسه) ص ٥ .

١ - بداية الفكر المادى والمثالى :

وإذا كان يطمح إلى أن يبحث (تاريخ الفكر ذاك ، من خلال منظار جديد ، يؤكد في الخط الأول على وحدة التاريخ الإنسانى ، وعلى عملية النمو الذاتى لهذا التاريخ ، وبالتالى على كون المنهجية العلمية المعاصرة قادرة على تمثل التاريخ ذاك واستيعابه بشكل أعمق وأكثر غنى ودقة مما فعلته ص ٥ - فقد عمد إلى استكناه الجذور الأولى للفكر المادى والمثالى ، ابتداء من الأسطورة ، التى (تعبر عن اتجاه عملية استيعاب وفهم الواقع الموضوعى الطبيعى) ص ٢٤ .

كتب ف . انجلز حول ذلك ما يلى :

(إن مسألة علاقة الفكر بالكون ، العقل بالطبيعة لها جذورها بشكل لا يقل عن كل الأديان ، فى التصورات الجاهلية البدائية الخاصة بحالة التوحش) ص ٢٤ .
والفصل بين علاقة الفكر بالكون وبين الأديان - منذ البداية يؤكد فساد الطرح الفكرى لهذه القضية ، لأن هذه (العلاقة) صمم المعرفة الدينية فى الكتب السماوية وصمم البدايات الدينية فى الأفق الإنسانى العام ، ذلك لأن (اللا واقعية انبعثت عن العجز النسبى للإنسان البدائى ، تلقاء محيطه الطبيعى الموضوعى ، وتلقاء نفسه هو) ص ٣٠ .

وهذا العجز أو الإحساس بالضعف استدعى البحث عن قوة غير مرئية ، من وراء المظاهر الطبيعية . . . وسواء تم هذا البحث عن طريق الوهم أو الخوف ، أو الأمل ، أو الحب ، فإن شيئاً ما صار يتخلق فى وجدان هذا الإنسان البدائى ، بفعل الغريزة والفطرة ، وبفعل الاحتكاك المباشر بما حوله ومن حوله ، (تعبيراً عن الموقف الإنسانى المهادف واقعياً ، هذا الموقف المشترك وجوده حياتياً) ، و (تعبيراً

عن رد فعل الإنسان على محيطه والتأثير عليه) ص ٣٠ .
واللحظة اللا واقعية (أرست الحجر الأساسي للتطور اللاحق للفكر الفلسفي
المثالي وللتصور الديني) ص ٣٠ .

وعلى هذا يمكن فهم (موضوعه) ماركس : (إن كل الأسطورية
Mythologie تتغلب وتسيطر على القوى الطبيعية وتكيفها في الوهم ، ومن خلال
الوهم ، إنها تتلاشى إذن مع السيطرة الحقيقية على هذه نفسها) ، أى القوى
الطبيعية ص ٢٦ .

(إن هذه العلاقة العملية والوجودية - الانطولوجية - بين الإنسان والعالم
الخارجي كانت في نفس الوقت المنطلق الأولى المحوّل ، والترسانة الحقيقية -
الأصلية - للتطور اللاحق الخاص بالاتجاه الفلسفي المادى ، وبالعالم
عموماً) ص ٣١ وكذلك كانت (الترسانة الحقيقية - الأصلية - للتطور الخاص
بالاتجاه الفلسفي) المثالي ، وبالعلوم الدينية عموماً لأن العالم الخارجي الممثل في الله
سبحانه ، وفي العلاقات الإنسانية والطبيعية هو مجال العقائد والتشريعات الدينية .
(يبد أنه - مع تعمق «وعى» العجز الإنساني ، وتعمق انحراف الخيال
Imaginatin والمعرفة عن الواقع الطبيعي والاجتماعي - أخذ الميل المادى يخسر
من هيمنته أكثر فأكثر) ص ٣٥ .

و(تعمق وعى العجز الإنساني وتعمق انحراف الخيال والمعرفة عن الواقع
الطبيعي والاجتماعي) مرده إلى زيادة النمو الفكري وطرح أسئلة أكثر لا تجد
إجابات ، ويتمثل هذا في تفسير (اللاعقلاني الفرنسي جوستاف لوبون) الذى
يرى التطور التاريخي عبارة عن تطور «الوجدية الوهمية» ، إذ يقول : (وتنمو
الأمة إذا ما حازت أوهاماً دينية أو سياسية قادرة على تحريك وجودها) . هامش
ص ٣٦ .

فما لا شك فيه أن الفكر الديني الأسطوري كان محركاً ذاتياً لتسخير الحياة ،

وكان من ضرورات (التبنيُّ الطبيعي ، بهدف حفظ واستمرار الحياة) ص ٣٤ وليس كما يدعى (طبيب تيزيني) من (أن الدينية التي استقت جذورها من العجز الإنسانى الموضوعى والذائق قد وقفت فى تعارض متسع أكثر فأكثر مع مطامع الإنسان الأولية فى تحقيق سيطرة حقيقية لا وهمية على عالمه المادى المعطى ، وفى تحويل « أنسنه » هذا العالم تحويلاً هادفاً ، ولقد حمل هذا فى أحشائه نتيجة سلبية تلقاء عملية المعرفة ، حيث أدى بها إلى الشلل) ص ٣٠/٣١ .

مجموعة افتراءات وأحكام متجاوزة ، لأن مجموع المقدمات التى طرحتها الدراسات لم تصل إلى النتائج التى ينشدها .

٢ - شروط نشوء الفلسفة فى اليونان القديمة :

(لقد أخذت تتكون بدايات فكر فلسفى ، بالمعنى المتميز ، لأول مره فى تاريخ البشرية ، لدى اليونان القدماء فى القرن السادس ق . م مع أن تقسيم العمل إلى فكرى ويدوى كان موجوداً قبل ذلك فى بلدان أخرى ، مثل مصر ، وما بين النهرين) ص ٤٥ .

فما الذى حال دون مصر وما بين النهرين من التمتع بهذه البدايات الفلسفية ؟

إذا كانت الأهرام والمعابد الفرعونية لا تقوم على فلسفة دينية ، قوامها خلود الروح ، والبعث والحساب ، وإذا لم تكن ثورة أخناتون بسب وحدانية الإله ، وإذا كانت تشريعات حمورابى لا تمثل فلسفة اجتماعية حياتية ، وإذا كانت تعاليم كونفوشيوس وبراهما وبوذا وزرادشت بعيدة عن أن تكون بدايات فكر فلسفى ، فما سر تمتع اليونان - دون سواها - بالتفوق فى هذا الميدان ؟ .

(لا شك فى أن إدخال الإنتاج التبادلى إلى الحياة الاقتصادية للمجتمع اليونانى كان الممهد الحقيقى لتكون وتبلور وجه اجتماعى جديد فى تلك الحياة) ص ٤٦ .

ولكن مصر وحضارات أخرى كثيرة سبقت اليونان فى إدخال الإنتاج التبادلى .

وإذا كان الإنتاج التبادلى يتم وفق فائض الإنتاج فى سلعة أو نقصه فى أخرى ، فإن بدايات قديمة لتبادل السلع حدثت - دون شك - قبل هذا التاريخ المكتوب . وعلى هذا لا ينبغي ربط نشوء الفلسفة بتقسيم العمل إلى فكرى ويدوى ، أو بالتبادل الإنتاجى ، أو بالصراع الطبقي ، ولا ينبغي التسليم للإنجلز على أساس (أن مرحلة الإنتاج البضائى التى تبدأ بها الحضارة ، تحدد - من الناحية الاقتصادية - من خلال :

١ - دخول النقد المعدنى ، وبالتالي الرأسمال المالى - كذا - والفائدة والربا .

٢ - دخول التجار كطبقة وسيطة بين المنتجين .

٣ - دخول الملكية الخاصة والرهن العقارى .

٤ - دخول العمل العبودى من حيث هو الشكل المسيطر للإنتاج) ص ٤٧ .

إن النشاط الاقتصادى أحد المظاهر الحضارية ، ومن ثم ، لا يكون عامل نشوء الحضارة ، لأن الحضارة - فى مفهومها العام - ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء كان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية ^(١) .

وليس هناك شك فى أن الفلسفة من عوامل التطور الحضارى ، كما أن التطور الحضارى من عوامل التأثير فى الاتجاهات الفلسفية ، لكن هل يمكن القول : إن (تقسيم العمل الإنسانى إلى واحد فكرى ، تقوم به النخبة ، وآخر جسدى ، تنجزه الحثالة ، والتطور الواسع للتجارة ، وبالتالي للرأسمال التجارى ، بمواكبة تطور الإنتاج البضائى ، واكتشاف واستخدام النقد المعدنى ، وإخضاع عملية الإنتاج الاقتصادى للدورة التجارية والموقف المتوثب والطموح والمغامر والمعتل للتجار تلقاء مصالحهم فى الدولة والمجتمع) . وضعت حجر الأساس لإمكانية نشوء وتطور فكر فلسفى متميز ؟ ص ٥٥ .

(١) الحضارة - د. حسين مؤنس - سلسلة عالم المعرفة رقم ١ ص ١٣ .

إن هذا القول قد يصدق على الفلسفة الاقتصادية مثلاً ، وقد يكون له ما يبرره إذا كان الفلاسفة من طبقة التجار ، والمرايين ، أو ممن ينشئون في الأسواق لكن الفلسفة - كأي نشاط فكري - قائمة على التكامل ، وعلى رصد الروابط والعلاقات على المستوى الإنساني والطبيعي والكوني .

وإذا كانت (الفلسفة والعلم اليونانيّان قد نشأ وتطورا بعلاقة وثيقة مع تمثل وتعميم وتطوير المكتسبات النظرية والتكنيكية لحضارات شرقية سابقة ، وبشكل خاص تلك المكتسبات الرياضية والفلكية للبابليين) ص ٥٧ .

وإذا كان (على المرء ألا ينسى أن علم الشرق في ذلك الحين تجاوز كثيراً العلم اليوناني ، ولكن التكنيك أيضاً لم يكن في ذلك الوقت في اليونان متطوراً كتكنيك الشرق ، وقد كان خلال بعض قرون غير ممكن للعالم الهيليني أن يقترب من الشرق في هذا المجال) هامش ص ٥٧ .

فإذا يدعى إلى ربط الفلسفة بالعامل الاقتصادي ، والتأكيد على (أن النزعات الاجتماعية والسياسية بين ملاك الأراضي الكبار والجنّاح ذاك - الجناح الديمقراطي ضمن طبقة مالكي العبيد - حددت بقدر كبير ملامح الوجه الفكري الثقافي للبلد ، ولكن ليست هذه الملامح فقط تحدت بذلك القدر من خلال تلك النزاعات ، بل أيضاً درجة تطور وتوسع الإنتاج البضائعي والنقد المعدني والتجارة في الحياة الاقتصادية للمجتمع) ؟ ص ٥٦ .

إن الإنسان يخضع لمؤثرات كثيرة ، مادية ومعنوية ، وكل مؤثر لا يقوم بمقدار حجمه أو كثافته .

لقد قالوا عن تأثير زوجة سقراط في حياته الفلسفية ، وعن سقوط تفاعلة في تفتق ذهن نيوتن على الجاذبية ، وعن خيوط من العنق تعلق بها نجم فلمنج مكتشف البنسلين . إلى كثير من الأحداث الصغيرة والعلاقات التي لا تكاد تطفو على سطح الحياة ، فتحرك الهمم، وتصنع كبار القادة والمفكرين والعظماء .

وعلى هذا يمكن أن تكون (الفلسفة ثمرة الحرية الفردية السياسية والاقتصادية والوعى الفردى ، والحكمة المنفتحة على العالم الطبيعي المتحرك ، وأخيراً الفكر المجرد وغير المباشر ، وليس الفكر العملى المباشر) ص ٥٧ .

لكن ، لا نصدق أن (الحكماء) رأوا (موضوع حكمتهم فى الواقع المادى الجوهرى . . وسيلتهم فى ذلك عقلهم النير المنجرب فى الحياة الجديدة ، هذا العقل الذى ظل - إلى حد بعيد - مرتبطاً بحسية الواقع المادى) ، ص ٦٢ لأن هذا القول يقصر الوجود الفلسفى على الجانب المادى ، فضلاً على أنه لا يلتقي مع القول (إن الأسطورة لم تتلاش تماماً من عالم الفكر اليونانى المثالى والمادى على حد سواء ، بل أكثر من ذلك أن الأسطورة قد كونت آن ذاك منظومة ذهنية متماسكة) ص ٦٢ . ولقد كان للأسطورة دور كبير فى صناعة الآلهة عند اليونان ، تلك الآلهة ذات النشاط الكبير فى لإنتاج الأدبى والفنى والفلسفى أيضاً .

ولا ريب فى أن من مجافاة الصواب أن نقول : (قد مارست الآلهة خلال ذلك دوراً غير جوهري فى حياة الفرد) ص ٥٧ . لأن الآلهة نتاج حس ووعى فردى ، قبل أن تكون نتاج حس ووعى جماعى ، كما أن من مجافاة الصواب أن نقول : إن التبادل الاقتصادى مع شعوب مختلفة ، قد رافقه تبادل سياسى وأخلاقى وفكرى - (قد أتاح لليونان التوصل إلى الاعتقاد بعدم جدوى تلك الآلهة والأساطير) ص ٥٧ ، إلا إذا كان التبادل الأخلاقى والفكرى كان مع شعوب أكثر تقدماً فى المجال الدينى ، بمعنى أن الفكر الدينى فى مصر ، وفى بابل وآشور ، كان أقرب إلى التجريد منه إلى التجسيد ، بالرغم من أنه كان لكل فرد من البابليين إله خاص ، هو إلهه الحامى الشفيع ، عدا تعلقه بالآلهة الأخرى ، وكان الملوك والأمراء كل منهم ينتسب إلى إله أو آلهة ، وذلك لإيمانهم بعالم ما بعد الموت (فبالوت تنفصل الروح عن الجسم ، وتنتقل إلى طور جديد من الوجود) وقصة الخليقة البابلية لا تخلو من عنصر التجريد ، وإن ارتبطت بالماء والتراب والهواء ،

بمساعدة الشمس ، لأنها منتزعة من خصوبة الحياة المثلثة في الاستنبات ، وكان هناك إيمان بالخلود ، تمثله قصة جلجاميش ، وإيمان بالآلهة في أعماق السماء ، تمثله ضراعة أيوب البابلي . (لأعبدن رب الحكمة) التي جاء فيها :

(فمن ذا الذى يستطيع أن يدرك فكر الآلهة وقصدها في أعماق السماء ؟ إن أفكار الآلهة كالمياه العميقة فمن يستطيع سبر غورها ؟ وكيف يستطيع البشر وهم محفوفون بالظلام أن يدركوا قصد الآلهة وطرقها ؟)^(١) .

ومن يقرأ (كتاب الموتى) يتعرف إلى مدى ما وصل إليه المصريون القدماء من فهم لما بعد الموت ، ولم يصل المصريون إلى فن التخطيط وبناء الأهرامات إلا من خلال الإيمان بالخلود ، وكانت لهم أساطيرهم حول أصل الآلهة والأشياء وخلق الإنسان ، ولم يكن دور الكهنة والمعابد في الحياة المصرية عملاً مصطنعاً لا يقوم على قواعد فلسفية وأخلاقية مكيفة ، ولنقرأ هذا النشيد الأخناتوني لتبين إلى أى حد وصل وعى المصريين بالآلهة :

ما أبهى وأجمل شروقك في أفق السماء ، يا أتون الحى ، يا مبدع الحياة .
حين تطلع في الأفق الشرقى تملأ كل أرض بجمالك وجلالك .
أنت رحيم ، عظيم ، سنى ، مضىء ، تعلو فوق كل أرض .
تحتضن أشعتك جميع الأرضين وجميع ما صنعت .

أنت « رع » وأنت « الكل » أنت مقام في البعد ولكن نور أشعتك فوق الأرض^(٢) . والبيروني وثيق الصلة بالثقافة الهندية القديمة ، ينقل عن براهمن (أن الله هو الذى لا أول له ولا آخر ، لم يتولد عن شيء ، ولم يولد شيئاً إلا ما يمكن أن يقال إنه هو ولا يمكن أن يقال إنه غيره ، وهل يمكن إدراك معرفته حتى يعبد حق عبادته إلا بالاشتغال به عن الدنيا بالكلية وإدامة الفكر فيه) .

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة طه باقر - بغداد ١٩٥٦ - ج ١ ص ٢٢٩ / ٢٤٣

(٢) المصدر السابق - ج ٢ ص ١٣٣ .

كما ينقل عن كتاب باتنجل :

(قال السائل : من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته ؟

قال المجيب : هو المستغنى بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل أو ترتجى ، أو شدة تخاف وتتنق ، والبرىء عن الأفكار لتعالیه عن الأضداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدًا ، إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أوحال .

ثم يقول السائل بعد ذلك : فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟
ويقول المجيب : له العلو التام فى القدر ، لا المكان ، فإنه يجل عن التمكن وهو الخير المحض التام الذى يشناقه كل موجود ، وهو العلم الخالص عن دنس السهو والجهل .

وإذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم براهيم وغيره من الأوائل على أنحاء شتى ، فمنهم من ألقى إليه كتابًا ، ومنهم من فتح لواسطة إليه بابًا ، ومنهم من أوحى إليه فنال بالفكر ما أفاض عليه ^(١) .

معنقد هندی قديم لا يكاد يبعد فى شىء عن المعتقد الإسلامى ، فيما يتصل بذات الله وصفاته ، مما يؤكد وحدة المعرفة الإنسانية ، بالرغم مما أصاب هذه المعتقدات ، خلال الأزمنة المتطاولة ، من تحريف .

٣ - مفهوم الطبيعة لدى الفلاسفة الميليين (الملطيين) :

طاليس أول فلاسفة اليونان نشأ فى ملطية من جزيرة أيونيه ، بين سنتى ٦٢٤ - ٥٤٧ ق. م ، وقد احتلت الطبيعة مكانًا مركزيًا وانطلاقًا فى فلسفته وفلسفة تلميذه أناكسمينس وأناكسمندر .

(١) عن سلسلة تراث الإنسانية - م ٣ عدد ٢ ص ١٣٤ بحث للدكتور السادق .

ومن خلال الأنظمة الفلسفية لهؤلاء الفلاسفة يمكن الكشف عن أفكار أسطورية أودينية ص ٦٤/٦٥ .

لقد حاول طاليس أن يرجع (الكثرة) في العالم إلى مفهوم (الوحدة) لهذا العالم . وفي الحقيقة لم تكن هذه المحاولة ، من حيث الشكل ، أصلية ، أى أنها لم تكن المحاولة الأولى من نوعها ، فهي قد وجدت لدى مفكرين ضمن شعوب أخرى سابقة . ص ٦٧ .

إن بلوتارك أعلن أن الحكيم اليوناني المعروف طاليس تعلم في وقت لاحق من المصريين فإنه يفترض الماء كأصل وكبداية لكل الأشياء . هامش ص ٦٧ . إن طاليس قد برز في الحقول الرياضية والفلكية بشكل خاص ، ص ٦٧ . وكان مذهبه الفلسفي تحولاً مبرراً ، من حيث المضمون والشكل ، من الأسطورة إلى الفعل عموماً ص ٦٧ .

ويقرر س . لوريا في (بداية فكر يوناني) أنه لا يجوز للمرء أن يُحمَلَ كلمات طاليس بأن للماء المادة الأولى معنى معرفياً إنه تصور العالم جزيرة صغيرة تسبح في المياه اللانهائية لبحر العالم . هامش ص ٦٨ .

هكذا تبدو طريقة عرض الكاتب لأفكاره ، نُقُولُ لم يحسن هضمها وتحويلها إلى عصارة حية تزيد في طاقة المعرفة ، كأنما يكتب بقلمين مختلفين ، أو كأنما يقدم حواراً بين فكرين متعارضين .

يقول إنجلز : (إن الفلسفة القديمة كانت مادية مبكرة بدائية ، وهي - من حيث هي كذلك - لم تكن قادرة على إيصال علاقة الفكر بالمادة إلى النقطة الدقيقة ، أما ضرورة إيضاح ذلك ، فقد قادت إلى القول بوجود نفس ممكنة والانفصال عن الجسد ، وبعد ذلك إلى التأكيد على عدم فناء هذه النفس ، وأخيراً إلى القول بإله واحد ، فالمادية القديمة نفيت إذن من خلال المثالية) ص ٧٢ .

إنجلز يقرر آسفاً حقيقة ترددت في الفكر المصرى والبابلى والهندي ، ثم جاءت بها الديانة اليهودية واضحة صريحة ، وذلك قبل طاليس بقرون ، ولا تكاد تجد فكراً أصيلاً تتجاوز هذه الحقيقة الكونية إلّا في حدود عدم القدرة على التعبير عما يعيه ، أو في حدود عدم القدرة على الوعي الكامل .

يقول أرسطو : (ينبغى أن توجد طبيعة ما - سواء كانت واحدة أو أكثر من واحدة - يتكون منها كل شيء ، بينما تظل هي نفسها ثابتة) ص ٦٩ .

وطاليس نفسه - في بداية الفكر الفلسفى اليونانى - صار يرى الحقيقة الكونية ، ولكن في إطار أسطورى يؤكد حقيقة تحلّف الفكر اليونانى عن الفكر المصرى والبابلى والهندي ، فهو بلغة الدكتور تيزينى - مع ملاحظة أن اللغة تتلون بلون أصحابها - يقول (إن أصل العالم ، أو « الجوهر الأصيل » ، يتضمن في ذاته ، بشكل ضرورى ، حركته الذاتية ، فهو بمعزل عن هذه الحركة لا يمكن أن يتصور ، وأن يتفكر به . . والحركة في « المادة » هي كونها « حية » و « نفسية » ، ولذلك كانت النفس العنصر الحركى ، أو مبدأ الحركة في الطبيعة) ص ٧٣ (وعلى هذا فالآلهة يعتبرها قوى أو « نفوس » الماء . . ولذلك ربما اعتقد طاليس أن الكون مملوء بالآلهة) ص ٧٧ .

هذا هو الفكر الأسطورى البدائى القائم على العجز عن التفسير الصحيح لما يجرى من حوله ، ومن داخله . . ومع هذا يدعى أن فكر طاليس (ضد الأساطير القديمة المتوارثة ، وضد التصورات الدينية حول محرك قديم لا يتحرك) ص ٧٣ ، وأنه يمثل (خطوة رئيسية على طريق تقدم الفكر والمعرفة الإنسانية للعالم المادى ، بما فيه الطبيعة والمجتمع والإنسان) ص ٧٣ .

وهذا يمثل حرص الدكتور على توجيه النصوص (التى يختارها) لصالح الفكرة المادية المسيطرة عليه ، مع أن طاليس كان طامحاً إلى المعرفة ، لكن قصور المرحلة وقف به عند رصد الحركة داخل المادة ، وجاء تلميذه أناكسمندر فخطا خطوة إلى

أمام ، وإن عدها الدكتور تيزيبي إلى وراء إذ (لم يحدد الماء أو شيئاً آخر ، مما يدعى بالعناصر ، كأصل للكون - وإنما اتخذ جوهراً آخر لا نهائياً ، عنه نشأت مجموع السموات والعوالم) ص ٧٨ ، (إن أصل العالم الذى يسميه أناكسمندر Aperon ليس هو المادة الكونية المشخصة والحسية) ص ٧٩ (إن اللانهاى - من حيث هو مادة - السبب) ص ٧٨ وبهذا يتم فصل السبب عن المسبب لأن الأبرون اللانهاى السبب ، ليس هو المادة الكونية المشخصة والحسية ، أى أنه غير مشخص ومحسوس بذاته ، والمادة المتحركة والمسببة هى المشخصة والحسية ، هذا الفصل يعد فى حساب الفكر المثالى وليس (تعبيراً بارزاً من الحركة الذاتية للمادة نفسها) ص ٧٩ حتى يكون فى حساب الفكر المادى . . إن الأبرون (يمثل شيئاً غير متميز من حيث الكيف ولا يمكن تحديده كيفياً) ، هو (جوهراً لا يتضمن شيئاً من التناقضات ، بل يكون هوية مطلقة) ص ٨٠ .

وقد كتب أرسطو - فى (ما بعد الطبيعة) - أن أناكسمندر قد اختار الأبرون كمبدأ أساسى لكى (لا تتوقف الصيرورة) . هامش ص ٨١ .
ونتيجة التسليم بهذه الحقيقة لا يملك الدكتور إلا أن يعترف بأن (هذا المنطلق يؤدي إلى نتيجة هامة ، وهى أن « الفكر العرض » غير قادر على معرفة الفكر الجوهري ، والإحاطة به ذهنياً) ، ص ٨٢ لكنه - وهو المأخوذ بفكرة لا يملك الخلاص منها - يعلق فيقول (على هذا النحو تسد آفاق اللقاء بين الفكر « العارف » والجوهر المعروف ، وتلقى الظلال اللا أدريّة حول العلاقة بين كليهما) ص ٨٢ .

* * *

ولا يكاد يحظى أناكسمينس إلا بالإشارة إلى أنه (يمثل خطوة إلى وراء ، فيما يخص الجانب التجريدى فى أصل العالم) وهو (يرجع كل الاختلافات النوعية للأشياء إلى اختلافات كمية) ص ٨٢ .

لكن الدكتور يعترف بأن الفلاسفة الأيلين الثلاثة قد أكدوا على (الوجود الواحد والثابت الذى لا يتغير ولا يتحرك) ص ٨٦ .

٤ - المعالم الأساسية لمفهوم الذرة لدى ديمقريطس :

كاد ديمقريطس (٤٦٠ - ٣٧٠ ق . م) يرى هو ولويكيوس (أنه لا يمكن تقسيم عنصر ، أو جسم ما ، إلى « لا نهاية » ، ذلك لأن تقسيمًا لا نهائيًا يؤدي ، - برأيها - إلى القول بأن كل الأجسام والمواد تتألف من « خلاء » أى يؤدي إلى نفي وجود « الملاء » ، على العكس من ذلك أنها قد جعلنا من « الملاء » مفهومًا مركزيًا فى عملية لإرساء الأساس للنظرية الذرية الجديدة (ص ٨٨ .

مفهوم من عرض الدكتور لهذه النظرية أن الفيلسوفين يفكران تفكيراً رياضياً ، قوامه أن التقسيم إلى ما لا نهاية يمثل « العدم » بالنسبة لهذا « الوجود » المحسوس ، وهذا مستحيل ، لأن الوجود المحسوس يتكون من ذرات ، فإذا انقسمت الذرة إلى ما لا نهاية فنت ، و(الذرة تمثل القاع الأسمى لهذا البنيان ، وهى تتمتع بوجود حقيقى موضوعى ، أما « الخلاء » ، فإنه - بالرغم من كونه ، كما يقول أرسطو : لا يتمتع بوجود أقل من وجود الجسم « الملىء » - لا يملك نفس الأهمية الوجودية المتمثلة فى حيازة « الملاء » ذلك لأنه ببساطة يمثل « اللا موجود » بينما « الملاء » يمثل الوجود (ص ٨٨ .

(والذرة - فى صفتها هذه تحتاج إلى وجود الذرات الأخرى ، فى أحسن حال ، من أجل القيام بحركتها الميكانيكية ، من خلال فعل ميكانيكى ، مثل دفعة من الخارج ، تمنح الذرات نوعاً من التوحيد أو الترابط) ص ٩١ .

وهكذا تنتهى النظرية الذرية إلى الاعتراف (بالتحرك) صاحب (الدفعة من الخارج) .

ويقول سمبليسز Simplicins : (ديمقريطس يقول بأن الذرات بطبيعتها

غير متحركة ، وبأنها تحرك من خلال صدمة) ص ١٢ .

ويقول بلوتارك : (ما الذى يؤكده ديمقريطس ؟ إن نشوء أى حركة « من اللا وجود لا يوجد ، أما من الموجود فسوف لا يكون شىء - « بالمعنى الحقيقى » - ناشئاً ، لأن الذرات - نتيجة صلابتها - لم تعانِ أى خلل أو تغير ، وعلى هذا فلا يمكن أن يأتى لون من أجسام أولى لا متغيرة وغير ملونة ، كما لا يمكن أن تأتى طبيعة أو نفس من أجسام أولى لا متغيرة وعديمة الكيفية) ص ٩١ .

إذن لابد من ملون مغير ، هو الإله .

إذن من العبث القول : (إن ديمقريطس لا يلجأ فى ذلك كله إلى فعل إلهى خارج عن الذرات) ص ٢٥٩ لأن الحقيقة المستقاة من النصوص التى اختارها السيد الدكتور أدت إلى هذه النتيجة ، وإن كان ديمقريطس لم يذكر اسم الله ، فإن من الفلاسفة الإسلاميين أنفسهم من عبر عن الخالق الأعظم بلفظ (المحرك الأول) .

وإذا لم تكن هذه النتيجة (مرة) فى حلق السيد الدكتور فما حاجته إلى القول (إن الفلسفة المثالية قد استطاعت أن تكتسب أبعادها وآفاقها النظرية المعرفية على حساب نقاط الضعف والثغرات فى الفلسفة المادية نفسها إلى حد أساسى) ص ٨٦ .

ألا ينطبق هذا الحكم على طريقة عرضه لهذا الأفكار ؟

٥ - أرسطو :

الخطوة الفعلية الأولى على طريق تكون « مفهوم » عن المادة - الجوهر . . قبل تناول أرسطو لخص الدكتور فكر أفلاطون فى أنه (يرى بأنه من غير الممكن أن يوجد تعريف عام لشيء حسى ، لأن الأشياء الحسية موجودة فى تغير مستمر) ص ١٠٠ .

وهذه ملحوظة دقيقة عبر عنها المتأملون بأنك لا ترى النهر على حاله مرتين .
وما دامت الأشياء الحسية في تغير مستمر فلا بد من التعرف - إذا أمكن - على
عامل التغير ، وقد تبين أفلاطون أن العالم الخارجى موجود على نحو موضوعى ،
ولكن بشكل نتيجة فعالية روحية خالقه ، ص ١٠٠ .

توصل أفلاطون إذن إلى أقصى ما وصل إليه الفكر الإنسانى وحدثت به الكتب
السماوية ، فهل خالفه تلميذه النجيب ، كما يرجو السيد الدكتور ؟
ينظر أرسطو إلى الكون من خلال : المادة الهوى ، الشكل ، الصورة ،
العرض ، العدم .

(إننى أدعو الأول ، المتأصل فى كل شىء ، بالمادة ، هذا الأول الذى ينشأ
عنه شىء ما) ص ١٠٣ وهذه المادة تمثل (مجموع كل الأشياء التى تملك جوهرًا
مادياً وتتحرك وتتغير بشكل خالد ، دون بداية ودون نهاية) ص ١٠٦ .

وما دام الزمان مرتبطاً بالحركة ، فإننا نفهم حدوده (دون بداية ودون نهاية)
على أساس مدى استمرارية الحركة ، ذلك لأن (الجوهر لا يبعث تغييره الخاص)
فهو يستمد هذا التغير من خارجه ، كما سبق إلى ذلك المليون وديمقريطس
وأفلاطون . ومن ثم علينا (أن نبحث عن مصدر مختلف عن المصدر المادى)
ص ١١٠ وعلى هذا يمكن فهم المادة على أنها الهوى (الوجود المطلق غير المتعين
والممكن ، والذى لا يمكن تحديده بأكثر من ذلك) ص ١٠٩ لأن هذه المادة
الهوى لا تخرج من الإمكان إلى التحقق إلا فى (صورة) فهى (دائماً بحاجة إلى
صورة ، لكى تتحول إلى واقع) ص ١٠٩ إذ (لا يوجد فى الواقع شىء دون
صورة) ص ١٠٧ .

إذن فالمادة الهوى ليست إلا الحقيقة الكونية فى علم الله ، حتى تصبح
(معلوماً) صورة ، والصورة فى علم الله (شكل) ، لأن (الشكل أقدم وأكثر
وجوداً من المادة) ص ١١٠ والتغير الذى يلحق الصورة (عرض) ، فالأعراض

(ليست أقدم من الجوهر ، لا حسب المفهوم ، ولا حسب الزمان ، ولا حسب
النشوء وإلا فلإنها شيء مستقل) ص ١١٠ .

وما دام الكون قبل وجوده فعلا موجوداً في (الإمكان) - أى في علم
الله - ، إذن فلا (عدم) حقيقة (فاللاوجود لا يحمل لديه - أرسطو - معنى
اللا وجود المحض إطلاقاً ، إذ يرى أنه من الممكن أن يكون مماثلاً « للوجود » وإن
كان وجوداً (بالإمكان) وعلى هذا الأساس يكون (الشيء الذى يتغير شيء ما من
خلاله ، هو المحرك الأول ، أما ما يتحرك فهو المادة ، وأما بأى اتجاه يتغير هذا
الشيء فهو الشكل) ص ١١٤ . ويصبح الشكل واقعاً ووجوداً في (الصورة) .
وهكذا يتحدد التمييز بين الخالق والمخلوق ، بين الجوهر الأصل والمادة الصورة ،
فالجوهر الأصل (هو ذلك الشيء الذى يتحدد من خلاله ، ويمتيز عن الأشياء
الحسية) ص ١١٦ والمادة الصورة (غير ممكن أن يتعرف عليها انطلاقاً منها نفسها)
ص ١١٧ وهذا تعبير آخر عن فكر أفلاطون (العالم الخارجى المادى ليس معترفاً
بوجوده موضوعياً ولا هو موضوع للمعرفة)^(١) ص ١٠٠ إلا من خلال متغيراتها
، والعامل الأول على تغييرها ، سبحانه .

بهذا ينتهى الخط الأرسطى إلى غير ما هياً له صاحبنا ، ولذلك يعلق قائلاً :
(إذا أخذنا الجانب المثلث الميثافيزيقي للحل الذى قدمه أرسطو للقضية تلك
فإننا سوف نجد أن الحل هذا يمثل خطوة إلى وراء بالنسبة إلى وجهات نظر الفلاسفة
الأيونيين البدائية حول « أصل العالم » وكما بالنسبة إلى الذرية
الديموقراطية) ص ١١٢ .

(إن أرسطو يتحدث أيضاً عما يسميه « بغاية الوجود » ، وبحسب هذا يصبح
كل شيء في الوجود خاضعاً لغائية مطلقة ، بدءاً من المادة اللا متعينة وانتهاءً
بصورة الصورة التى هى الله) ص ١١٣ .

(١) كل النصوص المأخوذة عن أرسطو نقلا عن كتابه : الطبيعة وما بعد الطبيعة

ولو أننا أخذنا في الاعتبار دراسة أساتذة الفلسفة لوجدنا اعترافاً صريحاً بالإله في كتابات أفلاطون ، متحدثاً عن النفس بأنها (من جنس العالم الإلهي الثابت الدائم ، عالم الأمر والسيطرة)^(١) . . وفي كتابات أرسطو (يشبه النفس بالله في أنها المحرك الذي لا يتحرك ، وأنها مصدر حركة الجسم) . . مما يفيد أن (الدكتور) يختار من النصوص ما يخدم الاتجاه المادى ، لا ما يخدم الحقيقة .

٦ - ملاحظات حول مسألة تقويم جديد لتراثنا الإسلامى ولما كتب حوله . .
(إن كثيراً من المستشرقين والباحثين العرب قد فشلوا بحدود متبينة في استخراج وتطوير رؤية علمية حول العهد العربى الإسلامى الوسيط .
إنهم لم يحاذوا على رؤية علمية تاريخية دقيقة إلى التاريخ ، ذلك لأنهم انطلقوا في أبحاثهم من أطر فلسفية مثالية ، أو غيبية ساذجة) ص ١٢٧ .
(لم يستطيعوا الاقتراب من المنهج التاريخى في بحث المجتمع والتاريخ الإنسانى ، وذلك نتيجة الضعف والضحالة اللذين لحقا بالذهنية البورجوازية ، من جراء تواطئها مع الذهنية الإقطاعية .

فأحمد أمين يصنف التاريخ العقلى الإسلامى تصنيفاً مثالياً ، لا تاريخياً يبعده عن تفهم هذا التاريخ بشكل دقيق ، إنه يتحدث عن « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « ظهر الإسلام » - غير أنه - يظهر في كثير من خطوات بحثه حساً تاريخياً جديلاً في تفهمه لقضايا معينة من ذلك التاريخ .

أما طه حسين ، فيمكن اعتباره أبرز المجددين في فهم تراثنا الفكرى ضمن ممثلى الذهنية - الأيديولوجية - البورجوازية الإقطاعية - لأنه القائل - إن هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ، ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر

(١) في النفس والعقل - د . محمود قاسم - الأنجلو المصرية ١٩٤٩ - ص ٥٥ و ١٠٦ .

فردية ، أى أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة ، أكثر منها أثراً من آثار الفرد الذى رآها وأذاعها .

أما سلامة موسى فأبرز ممثلى تيار فكرى تجديدى متميز بشكل واضح عن منحى المجددين ، إذ يقوم فى أساسه على محاولة تتجاوز شامل للتراث العربى الإسلامى . . ونحن نرى أن من نتائج هذا التصدى للتراث كانت محاولة استبدال الحروف الأبجدية العربية بحروف لاتينية - كذا - حتى تستطيع استيعاب الثقافة المعاصرة استيعاباً عميقاً) ص ١٣٠/١٣٢ .

* * *

حمل على المستشرقين والباحثين العرب ، لأنهم لم يستطيعوا الاقتراب من المنهج المادى فى بحث المجتمع والتاريخ الإنسانى ، نتيجة الضعف والضعف .
وحين عرض لمظاهر الفشل ، أنكر على أحمد أمين أن يربط تاريخه بالإسلام مع أنه يجوز أن نقول : فجر الاشتراكية ، وانتكاس الشيوعية ونهاية الأممية ، كما نقول : عصر الكلاسيكية ، وازدهار الرومانسية وانتشار الواقعية . . كل ذلك على أساس أننا ندرس ظواهر دينية ، أوسياسية ، أو أدبية .
ولما كان الإسلام هو المحرك الأول للمجتمعات التى أرخ لها أحمد أمين ، سياسياً واقتصادياً وثقافياً - على الأقل من وجهة نظره - فقد أضاف زمن التحرك إلى الإسلام .

وأنكر على طه حسين أنه أمسك بخيط البيئة ، وأهمل أهم خيط فى نظره ، وهو العامل الاقتصادى الممثل للتاريخية المادية .

أما عن سلامة موسى فلا ندرى ما إذا كان ينكر عليه الدعوة إلى الأخذ بالحروف اللاتينية وتجاوز التراث (الحضارى العملاق) ، أم أنه يكبر فيه هذه الجرأة التجديدية المتميزة .

ودون شك فإن الثلاثة لم ينحصر جهدهم فى هذه الحدود الضيقة ، إذ كانت

لهم أعمال رائعة ذات تأثير كبير في مسار الحركة الفكرية العربية بعامة .

* * *

والدكتور تيزيني - في معرض التمهيد لتناول الفكر العربي - يطالب من أجل مجابهة التخلف الاجتماعي الشامل ، والتجزئة القومية في وطننا :

- (أ) بتنوير القطاعات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية والسياسية .
- (ب) بثورة ثقافية منظمة ومخططة ، تتمثل في تراثنا الفكري الإيجابي ، والجوانب الإيجابية من الواقع الثقافي الحضاري الراهن ضمن وحدة جدلية عميقة .
- (ج) بتطوير ذلك بالتآخي العميق مع مقتضيات تحركنا وتقدمنا الاجتماعي والقومي ص ١٢٥ .

٧ - الملامح الاجتماعية الأساسية لمجتمع الجزيرة العربية الجاهلية :

تتمثل هذه الملامح في كون العرب لم يكونوا بمعزل عن العالم من حولهم ، إذ كانوا على اتصال بالفرس والروم والأحباش ، (ولقد رأى المؤرخ أوليري - في كتابه « العرب قبل محمد » - أنه كان يوجد في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية ، استخدمها الرومان للشئون التجارية ، وللتجسس على أحوال العرب ، كما كان فيها أحباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية) ص ١٤٣ .

ونحن نقرأ في كتب التاريخ أن المصريين القدماء قد أسسوا عام ٣٠٠٠ ق . م مستعمرة في يثرب من أجل البحث عن النحاس واستخراجه ، كما هاجم قائد الإسكندر الأكبر المسمى « أنتيجونوس » مدينة سلع ، عاصمة الأنباط ، من أجل إخضاعها لحكمه ، ولكنه لم يفلح في ذلك . إلا أن هذه المدينة أخضعت لاحقاً عام ١٠٥ م ، من قبل الإمبراطورية الرومانية ، وعام ٥٤٠ م من قبل الفرس ، وأخيراً عام ٥٥٠ م من قبل الرومان ، كما ينبغي الإشارة إلى النزاعات المديدة والعنيفة التي دارت بين الفرس والبيزنطيين في الجنوب والشمال ص ٢٠٠ .

وكان لعرب دولة المناذرة علاقة بالفرس والروم ، ودولة الغساسنة في علاقة بالروم والفرس وبالمصريين .

وكانت دولة الأنباط تمثل محطاً تجارياً كبيراً يقيم علاقات مع مصر والروم، كما كانت اليمن على اتصال وثيق بالفرس والأحباش ، ومن خلف الأحباش الدولة الرومانية الشرقية .

ومن خلال هذه المنافذ تسلت اليهودية في شكل هجرات استقرت في اليمن وفي يثرب وخيبر وتيماء وفدك، وتسلت النصرانية واستقرت في نجران والحيرة وغسان واليمن .

وحمل التجار والسائحون الأديان والأساطير القديمة فارسية وهندية ويونانية ، رومانية ومصرية وإفريقية .

و (نستطيع القول إن الطقوس الدينية قد نشأت في الجزيرة العربية تحت تأثير حركة التبادل الاقتصادية والفكرية هذه ، بل نحن نميل هنا إلى الافتراض بأن العرب القدماء قد تعرفوا على تأليه الأوثان والأصنام عن طريق المصريين أيضاً) ص ٢٠٠ .

و (إن الدهريين العرب قد تأثروا بشكل مباشر بالدهريين الفرس) . . يقول دى بور : (إن الدهرية قد اكتسبت اعترافاً مكشوفاً خلال حكم الساساني يزدجرد الثاني) ص ٢٠٢ بل إن المزدكية تسلت إلى الجزيرة العربية عبر حكم الحارث بن عمرو الكندي . وقد دخلت اليهودية والمسيحية الجزيرة العربية ممتزجتين متأثرتين بالثقافة اليونانية الهيلينية .

* * *

هذا العرض السريع للملامح الاجتماعية والسياسية والفكرية جميعاً يحتاج إلى كثير من المراجعة ، لأن ما أقدم لا يتجاوز خطوطاً باهتة لا تمثل قوة تحريك أو تحرك . . لكن الدكتور يمهّد للقول : (إن الإسلام قد نشأ تاريخياً عبر ملامسات

عميقة ، كثيراً أو قليلاً ، للمسيحية واليهودية الوثنية حيث جعل من اللحظة الدينية موضوع وجوده الدينى ، ولقد حدث هذا بالرغم من الخلافات والتناقضات التي برزت بينه وبين هذه الاتجاهات الدينية ، أما الإرهاصات الطبيعية الإلحادية ضمن الوثنية فإنها لم تتلاش نهائياً مع نُشوء وتطور الإسلام ، إنها اكتسبت وجوداً جديداً ضمن الاتجاهات الفكرية المادية اللاحقة (ص ٢٠٣ .

كأن الدكتور بهذا يريد أن يقول : إن الصراع بين الإسلام وأعدائه كان صراعاً دينياً ، مع أن واقع العداء كان من جانب أعداء الإسلام لأهداف سياسية واقتصادية واجتماعية في الدرجة الأولى . فالإسلام لم يحارب المسيحية واليهودية ، وإنما أنكر على المسيحيين واليهود تزييف ما جاء به عيسى وموسى ، لكن اليهود والمسيحيين خافوا انتشار الإسلام فحاربوه دفاعاً عن كياناتهم السياسية والاجتماعية . أما عن الوثنية فقد حارب أصحابها الإسلام ، لا بسبب اطمئنانهم إلى صحة معتقدتهم ، ولكن أخذتهم العزة بالإثم ، على المستوى العام ، ووجدوا في انتشار الإسلام قضاءً على (السلطة) القرشية ، سياسياً واقتصادياً ، وبخاصة أن الآلهة في مكة كانت من أهم العوامل السياسية والاقتصادية ، هذا إلى أن أكثر من أقبلوا على الدين الجديد كانوا من الفقراء ، والعبيد ، لأنهم وجدوا فيه الأمل والرجاء دنيا وأخرى ، ومن ثم عُدَّ الإسلام ثورة لإعادة تشكيل الأسس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعاً .

ولعل الدكتور كان صادقاً في قوله : (إن التجار والمرابين في مكة . . أخذوا يحسون بعمق متزايد وبحقد متأجج ، خطر الرسول وأتباعه ضد مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحقوقية والدينية) ، ص ١٥٨ ، لأنه جعل المصلحة الدينية آخر ما كان يفكر فيه المكيون ، وإن كان القرآن الكريم قد جادل الوثنيين والدهريين واليهود والمسيحيين جدالاً دينياً ، فلأن هذه هي طبيعة (الرسالة) ، ولعله أراد أن يشغلهم عن حقيقة أمرهم ، لينقلهم إلى ما ينبغي أن ينشغلوا به ، وهو

ما فيه صلاحهم دنيا وأخرى ، ولأن السلطة (الزمنية) لم تكن هدفاً إسلامياً ، وإن كانت ثمرة حتمية ، نتيجة انتشاره .

ولعل هذه السياسة الإسلامية تبرز في شروط (صلح الحديبية) التي يتخذ منها الكاتب وسيلة غمز ، كما اتخذ من (تأليف القلوب) ومن (تحرير العبيد) وسيلة طعن .

يقول : إن صلح الحديبية (كان بشكل عام لصالح التجار والمرابن المكيين) ص ١٥٩ . لأن (من شروط هذا الاتفاق إيقاف النشاط الإسلامي الاجتماعي والسياسي والفكري المعادي للملأ المكي ، وقد كان تعبيراً عن تنازل سياسي واقتصادي وفكري لصالح الملأ ذاك ، والذي حدث بعد ذلك هو أن كبار التجار والمرابن دخلوا الإسلام) ص ١٦٠ .

وإذا كان هذا الشرط الوارد في الاتفاقية سبباً في إسلام رجالات قريش ، أيكون لحساب المكيين أم لحساب المسلمين ؟ .

إن الدكتور يقول : لقد دخلوا إلى الإسلام (محاولين تحويله من حركة للفقراء المعدمين والريقق إلى حركة للأثرياء ولأعداء التقدم الاجتماعي) ص ١٦٠ .

ونسى الدكتور أن الإسلام ليس دين طبقة كالشيعية ، وليس دين شعب كاليهودية ، ولكنه للناس كافة ، غنيهم وفقيرهم ، عرباً وعجماً . . كما أن كثيراً من الأغنياء ، مكيين ومدنيين ، دخلوا الإسلام قبل صلح الحديبية .

وإذا كان هنالك من أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، فهذا ليس ذنب الإسلام ، ولا ذنب الاتفاقية ، فالمتلونون المنافقون لا يتحركون من واقع اتفاق ، وسماحة الإسلام تتعامل مع الآخرين على الظاهر ، والله يتولى السرائر .

إن الشرط الذي اتخذته الدكتور وسيلة غمز يقول :

(على أنه من أتى محمداً من قريش ، بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد ، لم يردوه عليه) .

ولقد استشعر عمر من ظاهر اللفظ إهانة لحقت بالمسلمين ، فذهب إلى رسول الله يقول : (أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ، قال فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني) ص ١٦١ .

قال الرسول : (لن أخالف أمره ، ولن يضيعني) ، واكتفى بهذه الإشارة إلى الكسب الذي سيجنيه المسلمون من وراء هذا الشرط ، ولم يوضح حتى لا يتسرب الخبر إلى المشركين فيدركوا خطره وتفوت على المسلمين فوائد الاتفاقية .
إن الاتفاقية تقوم على شرطين آخرين أكثر أهمية :

١ - وضع أوزار الحرب بين المسلمين الثائرين والقرشيين والتجار والمرابين عشر سنوات .

٢ - من أحب الدخول في عقد الرسول وعهده دخل فيه ، ومن أحب الدخول في عقد قریش وعهدهم دخل فيه . ص ١٦٠ .

إن هذين الشرطين يعطيان الدعوة كل ما تريده ، فالكف عن الحرب تفرغ لنشر الإسلام وإضعاف للحمية الجاهلية التي تناصب الإسلام العدا ، ومن ثم تكون فرصة للتفكير السليم والمقارنة بين ما أتاهم به الرسول وما هم عليه ، بين ما صار إليه المسلمون وما صاروا إليه ، ومن هنا يتوفر الدخول في دين الله أفواجا ، وقد تم هذا ، وفتحت مكة بعد أشهر معدودة وليس بعد عشر سنين .

والشرط الذي أثار عمر كان عامل توتر وإرهاق نفسى وعسكرى واقتصادى للمشركين ، لأن أحداً من المسلمين لا يرتد عن دينه ، فيخشى من رجوعه إلى مكة ، وكثير من المكيين خرجوا على قومهم وآمنوا بالدين الجديد ، منهم من بقى في مكة لأنه ممنوع من الذهاب إلى المدينة فصار بلغة السياسة اليوم (طابوراً خامساً) هواه مع الإسلام يدعوله سراً ويكيد لأعدائه ، ومنهم من آثر الخروج من مكة

فأقام ما بين مكة والمدينة لا يخضع لشروط الاتفاقية ، ومن ثم فهو في حلّ من قطع الطريق على المشركين .

وهكذا تتبين القدرة السياسية والمرونة والدهاء في صياغة الاتفاقية .

* * *

ويقول الدكتور ناقلًا عن (فجر الإسلام - ص ٣٣٨) : (وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يعطى بعض الناس ، يتألف قلوبهم للإسلام ، كما أعطى أبا سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعباس بن مرداس ، وصفوان بن أمية ، ويمينه بن حصن ، كل واحد منهم مائة من الإبل ، حتى قال صفوان : لقد أعطاني ، وهو أبغض الناس إليّ ، فما زال يعطيني حتى كان أحب الناس إليّ) ص ١٦١ .

والمعروف أن عطاء المؤلفة قلوبهم نص قرآني ، يقول الله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) التوبة - ٦٠ .

يعقب الزمخشري على هذه (الفريضة) بقوله : (حين كان في المسلمين قلة) ويقول العقاد في التعريف بهم (هم المسلمون حديثو العهد بالإسلام ممن تخشى عليهم الفتنة أو الكفر ، يستألفهم ولا يعملون ما يؤذى المسلمين)^(١) .
وقد فصل صاحب المنار القول فيهم : (ضريين من الكفار وأربعة من المسلمين)^(٢) .

وجاء الأمر هو خير الإسلام ودفع الأذى عنه . . ولعل قول صفوان أدل على المقصود ولهذا لما قوى الإسلام بالمسلمين ألغى عمر هذا التأليف وقال (إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم ، فإن ثبتم عليه وإلا فبيننا وبينكم السيف) ص ١٦١ .

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - دار الهلال ١٩٦٩ - ص ١٧٤

(٢) ج ١ ص ٥٧٤ وما بعدها .

أما عن تحرير العبيد في الإسلام ، فما أكثر ما كتب فيه الكاتبون قديماً وحديثاً ، ولهذا أكتفى بعرض نصوص (الدكتور) نفسه .

يقول : (إن القرآن والحديث لم يحرمهما - الرق - قطعاً ، وقد لاحظ هذا الواقع كثيرون من المؤرخين العرب والمستشرقين) ص ١٦٣ ، وهو قول أشبه بقول الممارين إن القرآن لم ينص على تحريم الخمر وإنما قال « فاجتنبوه » مع أن الأمر بالمجانبة يستوجب عدم القرب منها ، بالاتجار فيها ، أو بالعمل على ترويجها ، أو بحضور مجالسها لكن التحريم فقط ينصرف إلى شربها .

والملاحظ أن الدعوة إلى التحريم في القرآن بدأت والمسلمون في مكة قلة مضطهدة وقد أقدم التحرير على الإطعام : (فلا تقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك ربة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة) - سورة البلد - ١١ - ١٦ . ويلاحظ أن القرآن لم يستخدم لفظ الرقيق أو العبيد عن هذه الفئة ، كما أن تعبير (فك ربة) يوصى بخطورة الاسترقاق ، الذي يغفل العنق ، وينوه بجلال التحرير الذي يمزق هذا الغل .

و (لقد طولب بمنع استرقاق المسلمين من أية أمة أو شعب كانوا ، مما أدى إلى فتح باب كبير أمام العبيد ، ليحصلوا عبره على حريتهم وكرامتهم ، وهذا ولا شك من الأسباب العميقة والمباشرة التي كمنت وراء كون الناس - والعبيد على الأخص - أخذوا يدخلون في دين الله أفواجا) ص ١٦٤ .

(إن الإسلام كحركة اجتماعية - أطلق عملية التحرير من عقلاها وفتح بذلك بابا عملت الأحداث اللاحقة على ألا يوجد أبداً وعلى أن تتحقق انتصارات رائعة في حياة العرب والإنسانية) ص ١٦٤ .

(لقد كانت هناك سبل عدة للحد من الاسترقاق . . من تلك السبل كان مثلاً منع استرقاق المسيحيين واليهود والآخرين من المؤمنين بأديان قائمة على إله واحد) . ص ١٦٤ .

(وهناك خطوة جدية أكد عليها الإسلام في بداياته . . وهي تخصيص مبلغ من المال من أموال « بيت المال » لتحرير الرقيق ، إن هذه الخطوة قد تمت انسجاماً مع الخلفية التاريخية الاجتماعية للإسلام ، فهو نشأ اجتماعياً كتعبير عن طموح الفئات المسحوقة ، في التحرر تحرراً تتحدد آفاقه وأبعاده ضمن إمكانات العصر ، آن ذاك) ص ١٦٦ .

ويكفي أن نشير إلى أن المصدر الرئيسي للرق كان الأسرى في الحرب ، وقد أوقف القرآن هذا المصدر بقوله : (فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب ، حتى إذا أنخنتموهم فشدوا الوثاق ، فلأما منّا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها) سورة محمد - ٤ فقد قصر الحكم في الأسرى على التحرير منّا أو فداءً ، وليس غير .

* * *

ونكتفي بهذا القدر من التناول لهذه المسائل التي تعد استطراداً لا يستدعيه خط سير الكتاب ، وإن كان يكشف عن هوية الكاتب .

٨ - العوامل الأساسية في تكوين علم وفلسفة في المجتمع العربي الإسلامي الوسيط . .

تحت هذا العنوان يتناول المؤلف عدة قضايا ، سيعرض لها مرة أخرى من خلال رجالات الفكر الذين يتناول مذهبهم بالتفصيل ، لكنه يركز - تحت هذا العنوان - على الفكر المعتزلي ، مهبطاً للفكر الفلسفي والاجتماعي .

(١) وحدة الوجود : كان يمكن تأخير القول في هذه القضية حتى يحين حينها مع الفكر الفلسفي، لكن الكاتب يعجل بها كأحد العوامل المكونة لهذا الفكر ، أي أنه يقصر القول على علاقة هذه القضية بالفكر الإسلامي ، لاعلى ما انتهى إليه القول فيها .

يقول : (لقد توجب على الفلاسفة والمتصوفين - فى إطار الدولة العربية الإسلامية البوسطة - أن يكافحوا من أجل أنسنة العلاقة بين الإله والإنسان ، بغاية إبراز الإنسان كمحصن فعال ليس فقط فى العالم المادى ، وإنما أيضاً فى العالم الآخر الإلهى ، ولهذا السبب بالضبط كانت فلسفة « وحدة الوجود » و « نظرية الفيض » قد احتلتا مكاناً بارزاً فى الحياة الفكرية للدولة تلك .

فليس « العذاب » السلى هو طريق إلى الخلاص ، كما هو الحال فى المسيحية وإنما « الكفاحية » الدنيوية المغلفة بأغلفة دينية هى محتوى الخلاص فى الإسلام . إن تصوّر « المفارقة » و « العلوية » يتمتع بهما الإله من حيث « الذات » ، فى الحال الذى يظل ضمن العالم الإنسانى ، من حيث الفكر والتأثير وانطلاقاً من مقتضيات « العناية الإلهية » .

والحقيقة أن فكرة تصوّر الإله المطلق المحيط بالعالم والمسير له كله ، نشأت كتعبير عن رفض الإله المسيحى المؤنس والإله اليهودى المحدود الأفق والفاعلية فى العالم ، وهى - أى تلك الفكرة - حيث تكونت ، فإنها كانت بذلك تعبيراً عن النشاطية العملية غير المباشرة للمكين ، الناحية منحى توحيدى فى الحقول الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

ولقد أثر فى تبلور « الوضع الروحى » الجديد فى الجزيرة العربية عاملان أساسيان :

الأول : هو الضرورة التاريخية الملحة لخلق وحدة اجتماعية اقتصادية سياسية فى المجتمع ، وذلك بالعلاقة مع تعاظم ونمو واحتياجات الحركة التجارية المفتوحة على العالم .

الثانى : هو التأثير العميق بمستوى التطور الدينى المسيحى واليهودى آن ذاك ، مرتبطاً بالمحاكمات العنيفة المتشعبة والخصبة بين الوثنيين والدينيين (والواحدين) ص ٢٠٤/٢٠٧ .

المقدمة التي تتحدث عن (الكفاحية الدنيوية المغلفة بأغلفة دينية) المثلة للنشاط الإسلامي ، في مقابل (السلبية) في النشاط المسيحي ، ليست سبيلاً إلى (أنسنة العلاقة بين الإله والإنسان) ، التي حددها تحديداً موهماً بقوله : (ضرورة «الصعود» من الإنسان إلى الإله ، «والتزول» من الإله إلى الإنسان) . ص ٢٠٩ ، لأن مفهوم «وحدة الوجود» ومفهوم «الفيض» بعيدان كل البعد عما توجيه هذه الألفاظ المادية والإلحادية . كما سنبين بعد ، وإنما هو يبيىء للقول بأن «واحدة» الإله طرح اجتماعي ، (تعبيراً عن النشاطية العملية غير المباشرة للمكيين) فالدين حاجة اجتماعية ، ومن ثم يحمل خصائص مرحلية ، الإله في اليهودية رهن بحاجة اليهود زمن موسى ، عليه السلام ، والإله في المسيحية رهن بحاجة المجتمع المسيحي زمن عيسى ، عليه السلام ، وكذلك إله المسلمين رهن بحاجة المجتمع المكي ، فهو إله واحد ، بسبب (الضرورة التاريخية الملحة لخلق وحدة اجتماعية اقتصادية وسياسية في المجتمع) ، و (ارتباطاً) بالمحاكمات العنيفة المتشعبة والخصبة بين الوثنيين والدهريين والواحديين) ، وبذلك يصبح «محمد» مجرد زعيم معبر عن حاجة المجتمع ، ويصبح القرآن الكريم مجموعة خطبه وبياناته ، ويتحول الدين الإسلامي من دين إنساني عام إلى دين المتسلطين من (التجار والمرايين) ، أصحاب المصالح الحقيقية ، بدلاً من أن يكون أمل المقهورين من الفقراء والعبيد ، بالرغم من زعمه أن (الارتفاع بعلاقة هؤلاء المضطهدين إلى علاقة بينهم وبين «قوة» خفية غيبية تحتض في يديها العادلتين مصيرهم - كان قد أدى ضمن ذلك الواقع التاريخي إلى تقليم أظافر البؤس الاجتماعي والروحي من خلال «رفض» شرعية التملك الاضطهادي لخيرات المجتمع من قبل هؤلاء المضطهدين) ص ٢١١ .

هكذا ثم (تقليم أظافر البؤس) عن طريق (الرفض) لا عن طريق دستور

قوم ؟ !

(ب) العلم والدين : يذكر أن (العلم والفلسفة « أمكن لها » النماء والتقدم ، تحت ظلال ذلك التقدم التكنيكي المادى) ممثلاً فى نظام سقاية متطور تكنيكياً بشكل عال ، وعلى تبادل بضائعى واسع الأبعاد ، وأخيراً على حركة تجارية منفتحة على العالم (وهذا ما يدعوننا إلى تخطى رأى القائل بأن حاجة العرب إلى العلم انبعثت من الدين) ص ٢٠٩ .

وينسى أن نظام السقاية المتطور من مكتسبات التوسع الإسلامى فى أراضى زراعية كانت خاضعة لحضارات متقدمة ، وأن التبادل البضائعى ازداد سعة عن طريق الفتوحات الإسلامية ، كما أن من ثمار هذه الفتوح الاطلاع على ثقافات الفرس والروم والهنود والصينيين ، فالفكر الدينى كان المحرك لألوان النشاط هذه ، لأن الدين لم يضع قيداً على المعرفة ، ولم يجعل للكهنة والأجبار قوامة على التفكير . . فنذ الآيات الأولى من القرآن الكريم والدعوة إلى العلم ، وإعظام القلم ، والحث على النظر فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسنا ، وفى آثار السابقين ، وكيف يحى الله الأرض بعد موتها ، وكيف يتخلق الإنسان من نقطة فعلة فضغة ، وكيف يسلبنا الذباب ما لا نستنقذه منه ، وكيف سخر لنا البحار والجبال والشمس والقمر والدواب . . فتح مجالات واسعة ليبين لنا أنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ودعا الرسول إلى فرضية العلم على كل مسلم ومسلمة ، وإلى طلب العلم من أى مكان ومن أى كائن ، ولو كان فى الصين من المهدي إلى اللحد ، فأنخذ الحق من كل من جاء به، ولو كان كافراً، وأنخذ الرسول يعلم الناس ، وافتتح أول مدرسة فى تاريخ شبه الجزيرة للتعليم ، وجمع من حوله الكتبة لتدوين القرآن ، ودعا زيد بن ثابت لتعلم العبرية ، لأن من تعلم لغة قوم أمن شرهم . . ألا يعد هذا كله « انبعثاً » للعلم ؟ ألم يفجر القرآن الكريم حركة علمية واسعة حول التشريع والتفسير وأسباب النزول والقراءات وقصص القرآن وتاريخ الأمم السابقة وعلوم اللغة والبلاغة والنحو والأدب ؟ أليس علم الرواية والتجريح

والتعديل من أخطر علوم البحث والتحقيق والنقد؟ أليست المسائل الفلسفية ثمرة تفاعل اجتماعي سياسي ثقافي أعان عليه فكر ديني في القرآن والحديث؟ إن التأويل لدى الفرق الكلامية (عامل ساهم بشكل جوهري في تكوين وصياغة الإلهامات الأولى للفلسفة والعلم) ص ٢١٢ فأى تأويل هذا أيها الدكتور؟ ألا ترى أن داود ابن المحبر (برز من خلال كتاباته حول «العقل» وهو في كتاباته هذه قد ارتكز على «حديث قدسي» حول العقل رواه ابن تيمية في «بغيته» ومفاده أن أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزى ما خلقت خلقاً أكرم على منك، فبك آخذ، وبك أعطى، وبك الثواب والعقاب)؟ ص ٢١٢.

ليت الذين يلحدون في آيات الله يعرفون السر وراء كون أنبياء الله من الصانعين وكبار الأطباء والعلماء ليتم يقفون عند صناعة نوح السفينة، وصناعة داود الدروع، وتسيير سليمان الريح، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص وموقف إبراهيم الشمس والقمر والنجوم وحواره مع قومه، أليس في هذا كله دعوة إلى العلم والعمل معاً؟!

(ج) القدم والعدم: (إن الإيمان في السلب الصفاتي للذات أدى إلى تحويلها إلى نقيضها اللاذات، وقد ألح على هذا الاتجاه اللاهوتي السلبى معمر بن عباد السلمى) الذى يقول عنه إنه (كان ينكر القول بأن الله تعالى قديم)^(١) ص ٢١٤ مع أن سلب الصفات مرده إلى صفة القدم، لأنه لما كانت الصفات مرتبطة بمفعولاتها - كالعالم بالمعلوم، والسمع بالمسموع إلخ - والمفعولات

(١) يلاحظ أن قول معمر هذا من منطلق التنزيه، إذ يعلل ذلك بأن (القديم أخذ من قدم يقدم: فهو قديم (وهو فعل) كقولك: أخذ منه ما قدم وما حدث، وقال أيضاً: هو يشعر بالتقدم الزمنى ووجود البارى تعالى ليس بزمانى) أ هـ. الملل والنحل ج ١ ص ٨٦ وهذا دليل على أن الدكتور في مقتبساته يسير على نهج «لا تقربوا الصلاة» دون إتمام الآية «وأنتم سكارى».

محدثات ، نزه أصحاب هذا المذهب الله عن الصفات ، حرصاً على اختصاصه بالقدم ، وقالوا (إنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته ، بل هي ذاته) (١) .

ولأن هذه الصفات واردة في كتاب الله ، وصف الله سبحانه بها نفسه ، فقد كان على القائلين بسلبها أن يجدوا مخرجاً عن طريق التأويل .

(إن المعتزلة - ماعدا الصالحى - أكدوا على أن «العدم» يمثل شيئاً ، وقد غالى «الحياط» في إثبات المعدوم شيئاً ، وقال : الشيء ما يعلم ويخبر به ، والجوهر جوهر في العدم ، والعرض عرض في العدم) ص ٢١٤ .

ومع أن هذا القول سبق ترده في الفلسفة اليونانية ، فإنه فكر عربى إسلامى أصيل ، لأنه - كما قلنا - ثمرة نبي الصفات ، لأنه ماذا يقال في صلة الله - سبحانه - (بالمفعولات) أو بالموصفات ، وهى لم توجد إلا في زمان ، والزمان مرتبط بالحركة والله سبحانه سابق على الزمان والحركة . . إذن فالصلة بينها قائمة على العلم ، أو الإمكان ، كما يقول الفلاسفة ، في مقابل التحقق ، ومعر بن عباد السلمى يقول في ذلك (ليس علم البارئ تعالى علماً انفعالياً أى تابعا للمعلوم ، بل علمه علم فعلى ، فهو - من حيث هو فاعل - عالم ، وعلمه هو الذى أوجب الفعل ، وإنما يتعلق بالموجود حال حدوثه لا محالة ، ولا يجوز تعلقه بالمعدوم على استمرار عدمه) (٢) ، بمعنى أنه يتعلق بالمعدوم الذى لا يستمر عدمه .

ومن هنا تبطل الاستنتاجات (الإلحادية) التى تقول : (مما لا شك فيه أن المعتزلة بمقولتهم حول العدم ، من حيث هو شيء ، قد أصابوا مقتلا من التصور المثالى الغيبى للإله ، عن هذه المقولة تبرز ثلاث نقاط أساسية وهى :

١ - رفض المصادر الإسلامية حول الخلق من عدم محض . إطلاقاً .

(١) الملل والنحل - ج ١ ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق - ج ٥ ص ٨٧ .

٢ - التأكيد على قدرة العدم إلى جانب الإله .

٣ - الإضعاف من الموجود الأول وذلك بأسلوب مستتر وذكي .

إن هذه العملية قد تمت عبر منحنيين : الأول لإرجاع الفعل الإلهي إلى القيام بمساعدة الانتقال من الوجود الكموني إلى الوجود المتحقق للأشياء. أما المنحني الثاني فقد عبر عن نفسه من خلال السلوب الصفاتي للإله ، بحيث يتحول هذا الأخير إلى مجرد اسم . ص ٢١٥ .

وهكذا يكشف الرجل عن وجهه القبيح ، وعن هدفه من هذا البحث المطول ، مع أنه يعلم أن علم الكلام هو (الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية) ص ٢٦٣ نقلا عن ابن خلدون ، فكيف أصبح - في قلمه هدمًا للعقائد الإيمانية ؟

بدون مصادرة لآرائه ، يجب أن يوضع في الحسبان أن معظم ما تناوله المعتزلة كان من واقع الرد على أولئك الذين يكيّدون للإسلام ، وكانوا حريصين على أن يعضوا بالمتكلمين في مزلق ومناهات ، ولأن المتكلمين كانوا مؤمنين أشد الإيمان بالعقل ، وكانوا مطمئنين إلى قدرة العقل على الخوض في كل مجال ، ولأن المتكلمين كانوا فرقًا متنافسة ، فقد كان الحرص على إظهار البراعة والتفوق أكثر من الالتزام بالحدود الغيبية التي يعجز العقل عن تفحصها . ومن هنا كان معظم ما جاء به المعتزلة اجتهادات عقلية ، أقرب إلى أن تكون افتراضات رياضية ، من أن تكون مسلمات اعتقادية ، وقد يمدّوا قالوا : (من طلب عيباً وجهه) ، ولا شك أن هناك سقطات كثيرة لهؤلاء القوم ، (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ، ومن يقرأ مقالات الإسلاميين « أو الفرق بين الفرق » ، أو « الملل والنحل » ، أو « الفصل » فيسجد الكثير الكثير من الآراء الضالّة ، منسوبة إلى إسلاميين ، كما أن هذا الكتاب منسوب إلى مسلم ، ومع هذا فالنصوص التي

اقتبسها الدكتور لا تمثل خروجاً عن الخط الإسلامي العام ، وإن التبتت على من لا يفهمون لغة القوم .

يذكر أن (النظام لم يبحث في أى وضع كان يوجد فيه الجسم قبل الخلق ، أى فى أى وضع كمونى وجد فيه ، وبمعنى أدق ، أنه لم يصرح فيما إذا كان الجسم موجوداً بشكل عام قبل الخلق) ص ٢١٦ ذلك لأنه مؤمن بأن الخلق إبداع ، إيجاد ما لم يكن موجوداً إلا فى علم الله .

ويذكر أن الحياض قال : (الجوهر جوهر فى العدم ، والعرض عرض فى العدم) ص ٢١٧ . وهذا صريح فى أن المقصود بالوجود فى العدم هو « الإمكان » بالنسبة للخالق ، سبحانه . ولعل الدكتور لمس هذا ، بقوله مفسراً كلام الحياض : (أى أن الشيء موجود فى حالة الكون العدمية ، قبل أن يكون موجوداً فى التحقق) ص ٢١٧ ولو أننا استبدلنا لفظ (الإمكان) بالكون لزال كل لبس . ويستنتج وفقاً لهواه : (إذا استعدنا فى ذاكرتنا المقولة المعتزلية عن العدم كشىء قديم قدم الإله نفسه ، فإننا سوف نتوصل إلى الاستنتاج الهرطقي المادى بأن الأجسام الموجودة ، كاشياء معدمة ، متحركة بذاتها ، وليس نتيجة فعل خارجى ، وأن التأثير الإلهى فى عملية الخلق يرتد إلى عملية شكلية مرافقة) ص ٢١٦ . هكذا يتمثل المنهج العلمى الملتزم فى اختيار مقدمات بذاتها يحملها نتائج بعيدة عنها كل البعد ، فمقدمات النصوص تخلو من مضامين (قدم الإله نفسه . . متحركة بذاتها) ، ولكنه بصدد نفي الوجود الإلهى ينسى أين يتم (الكون العدمى قبل أن يكون موجوداً فى التحقق) .

(د) الحرية الإنسانية : كتب جوته على لسان فاوست ، مخاطباً الله : إبنى أنا فاوست ، إبنى نذكك ص ٢٢١ . فلم لا يكون المعتزلة صورة من فاوست الطموح المتحرر ؟

يقول : (إن المعتزلة جميعاً قد اتفقوا على أن العبد القادر خالق لأفعاله ،

خيرها وشرها ، ويناقش أبو الهذيل العلاف الجبرين قائلاً : فإذا كان الكافر عندكم غير قادر على الخروج من الكفر الذى هو فيه ، فقد صح أنه ليس بمختار ولا فاعل له ، بل هو مضطر إليه ، مجبر عليه ، لأن القادر على الفعل هو القادر على تركه ، فإذا صحت القدرة على أمر من الأمور صحت على تركه ، وإذا انتفت عن تركه انتفت عنه) ص ٢١٨ .

هذا القول الممثل قدرة الإنسان على الفعل والترك مأخوذ عن نصوص قرآنية كثيرة ، مثل : (كل امرئ بما كسب رهين) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) إلخ .

لكن الدكتور يدعى أن « الحرية الإنسانية تعبير عن التحولات الاجتماعية العميقة التى امتدت فى أديم المجتمع آن ذاك » ص ٢١٨ و (أن العصر المأمونى الذى تميز باحتوائه بوادر جديدة مبكرة للتطور الصناعى البورجوازي كان العصر المعتزلى والتأكيد العميق على العنصر الإنسانى كان يتضمن بشكل أولى إمكانية الانفتاح على واقع الحرية والمساواة بالمعنى البورجوازي المبكر المناهض للهيكل الهرمى الطبقي الإقطاعى) ص ٢١٩ .

مع أن الحقيقة التاريخية تقرر أن نشاط الاعتزال يرجع إلى وقوع المأمون تحت تأثير ثمامة بن الأشرس ، من كبار المعتزلة ، فلما كان المتوكل ، ولم يكن قد تغير حال المجتمع ، انكمش ظل المعتزلة وانتشر سلطان الخنابلة . . فالأمر - كعهدنا اليوم - كان يتحرك بحركة القيادة أكثر مما يتحرك بحركة المجتمع ، ثم إن الحرية التى أتاحت للمعتزلة كانت وبالأعلى أعدائهم ، ولا شك فى أن الغالبية العظمى من الجاهير كانت إلى جانب الخنابلة ، لأن المعتزلة لم يكونوا يمثلون إلا أنفسهم ، ولم تكن لهم قاعدة جماهيرية .

ويدعى الدكتور تيزينى - بلسان الدكتور على سامى النشار - أن المعتزلة قد

مضوا (في جرأة وقوة نادرين يعلنون أن قدرة الله وإرادته لا تؤثران على قدرة العبد وإرادته لأن من المحال اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، ولو أراداه معاً . إن الشيء المراد يتحقق إذا ما وجدت دواعيه) ص ٢١٩ . والعبارة يرد عجزها على صدرها ، فقوله (إن الشيء المراد يتحقق إذا ما وجدت دواعيه) يفيد أكثر من مؤثر ، وهذه حقيقة مادية لا يسهل إنكارها ، فسرعة جفاف الثوب تخضع لنوع القماش وكمية الماء به وسرعة الريح وحرارة الشمس . . وسرعة تمدد الحديد تخضع لكثافته وثقل المطرقة وقوة القبضة التي تمسك بها ومهارة الحداد وشدة حرارة النار . . وتنفيذ القصاص يتم بإرادة الحاكم والقاضى وأمور السجن وعشماوى ، وإرادات أخرى ، وكذلك الشأن مع الفعل الإنسانى .

يقول إبراهيم بن سيار بن هانى النظام الذى طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخط كلامهم بكلام المعتزلة (ج ١ ص ٦٧ الملل والنحل) . واتخذ منه الدكتور وسيلة زيغ وإضلال : (إن كل ما جاوز محل القدرة من الفعل فهو من فعل الله تعالى) ^(١) أى أن من وراء قدرة العبد قدرة الرب ، بمعنى أن العبد هو الفاعل في الظاهر ، والله من ورائه ، (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ، وبمعنى آخر أن الله أعطاه القدرة والاستطاعة والتمكين وتركه يختار الفعل ويفعله ، وأقرب مثال لذلك من الإنسان الآلى والكومبيوتر .

ولقد وضع ابن رشد حدود الحرية الإنسانية على أساس من الواقع الذى نعيشه ، فمن ذا الذى ينكر تأثير الفطرة ، والبيئة والثقافة والنظم الاجتماعية والأحداث العامة والخاصة ، القرية والبعيدة - فى تصرفاتنا ؟ بمعنى أن حريتنا محدودة مقيدة بهذه المؤثرات ، مع أننا - حين نباشر الفعل لا نحس بالوقوع تحت أى مؤثر ، ونحن محاسبون من المجتمع على أفعالنا على أساس الاختيار الكامل .

(١) الملل والنحل - ج ١ ص ٧٠

يقول ابن رشد : (إن إرادة الإنسان ، وإن كانت حرة ، إلا أنها مرتبطة بالقوانين والأسباب الخاصة التي وضعها الله في الكون . . . ولما كانت الأسباب التي من خارج تجرى على نظام محدود وترتيب منضود لا تخل في ذلك بحسب ما قدرها بارئها عليها ، وكانت إرادتنا وأفعالنا لا تتم ولا توجد بالجملة ، إلا بموافقة الأسباب التي من خارج ، فواجب أن تكون أفعالنا تجري على نظام محدود . . وليس يلغى هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التي من خارج فقط ، بل بينها وبين الأسباب التي خلقها الله تعالى في داخل أبداننا ، والنظام المحدود الذي في الأسباب الداخلة ، وأعنى التي لا تخل ، هو القضاء والقدر الذي كتبه الله تعالى على عباده) (١).

ويعلق الدكتور محمود قاسم على قول ابن رشد بأنه (يمتاز بحقيقة علمية وهي فكرة السنن والقوانين ، كما يمتاز بأنه يبين لنا أن الجبر لا يمكن أن يكون محضاً وأن الاختيار لا يمكن أن يكون مطلقاً ، بل نستطيع القول ، على نحو ما بأن الإنسان مجبر باختياره ، لأنه يستخدم قدرته في حدود ما خلق الله ، وكلما اختار طريقاً معيناً في حياته أصبح مجبراً ، إلى حد كبير ، على اختيار الطرق المستقبلية التي تتناسب مع هذا الطريق) (٢).

(هـ) الإيمان بالعقل : (إن الميل المعتزلي ، ولا أقول الاتجاه الواضح والواعي على نحو متميز ، لتجاوز العنصر الغيبي الغريب عن الإنسان ، ولإبراز العالم المادى الموضوعي في حركته الذاتية وقدمه ، قد خلق أساساً عميق الجذور ، من أجل تكوين وتبلور علم وفلسفة متطورين في العالم العربي الإسلامى الوسيط) ص ٢١٩/٢٢٠ .

(١) عن مناهج الأدلة - ص ٢٢٦/٢٢٧ .

(٢) تراث الإنسانية - م ٣ عدد ٢ - مقال الدكتور قاسم عن (الكشف عن مناهج الأدلة) لابن

رشد - ص ١٦٤/١٦٥ .

كأنه يعلن عن لباقة ودهائه ، فاستخدم لفظ (الميل) ليفترى على المعتزلة (تجاوز العنصر الغيبي الغريب عن الإنسان) ، وليدعى أن هذا (الميل) مجرد الميل ، (خلق أساساً عميق الجذور ، من أجل تكون وتبلور علم وفلسفة متطورين) . . أليس هذا لوناً من السذاجة والوهم ؟ هل يوجد تيار فكري مهما كان لونه وكانت قدرته إلا من مؤثرات كثيرة ، داخلية وخارجية أصيلة ووافدة ؟ ويقول (يرى عمر فروخ أنهم - أى المعتزلة - قد بالغوا في التأكيد على العقل حتى قالوا : « إذا تعارض العقل والنقل فاتبع العقل » ، والحقيقة أنهم وضعوا خطأ فاصلاً بين العقل - المعرفة العقلية - وبين السمع - الإيمان - لقد أخضعوا القرآن لتفسير عقلي متميز ، جلب معه نتائج مخالفة له في نقاط أساسية . . لقد قال الحسن البصري ، وهو أستاذ للشخصية المعتزلية الكبيرة ، وأصل بن عطاء : « ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها » (ص ٢٢٠ .

مع تحريفه الظاهر في المقابلة بين (العقل والسمع) ، وتفسيره السمع (بالإيمان) بهدف الخروج بالمعتزلة عن خط الإيمان ، سبيلاً إلى القول (بتجاوز العنصر الغيبي الغريب عن الإنسان) فإن تعارض العقل والنقل غير وارد ، ما دام العقل يأخذ الطريق السليم إلى المعرفة .

والجدل القرآني للكافرين والمنافقين والمحرفين من اليهود والنصارى يركز على عدم التزامهم بالفعل ، فيقول : (أفلا تعقلون ، أفلا تبصرون ، أفلا تذكرون ، لعلمهم يفقهون) وأكبر الله إيمان إبراهيم عن طريق النظر في النجوم والقمر والشمس ، فلما أفلتك جميعاً قال : (لا أحب الآفلين) ، (يا قوم إني بريء مما تشركون) ، (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً) ، (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين) .

والأخذ بأسلوب الجدل في القرآن هو اعتراف بالعقل وبالإيمان عن طريق الاقتناع ، لا عن طريق (السمع) .

أمّا ما يقصده الحسن البصرى ، فهو ما اتفق عليه أئمة المسلمين - فقهاء ومفسرين - أن تفسير الآية شهادة على الله أنه قال كذا ، ومن هنا كان تورع كثير من العلماء أن ينهضوا بهذا العب الخطير حتى لا يقولوا قولاً بخلاف ما أراد الله ، فيكونوا قد شهدوا شهادة كاذبة عليه سبحانه ، ولهذا يحب الله أن يعلم ما أراد بكلامه ، وإلا فما قيمة القرآن إذا لم يفهم ، ويعمل بموجبه ، وبالتالي تكون جسامة خطر من يقدمون على التفسير دون الأخذ بآدابه ، فكيف بمن يقصدون إلى التحريف والتزييف ؟ .

٩ - عمل المفكرين العرب في التراث اليوناني :

(لم يكن تحييطاً هؤلاء المفكرين ، بل كان تجاوزاً لهذا التراث ، وإكسابه مضامين أكثر عمقاً واقتراباً من وضع حلول للمشكلات الفكرية والاجتماعية التي طرحت نفسها آن ذاك) .

لقد تمّ (تقديمه بصورة أكثر مادية وهرطقية مما كان عليه هو أصلاً ، وقد كانت مواقف الطبقات الاجتماعية من العالم الطبقي والاجتماعي من وراء عملية استعادة أرسطو ، على نحو يتآخى مع مقتضيات وجودها التاريخي) ص ٢٢٢ .

(إنه من الضحالة الفكرية أن نقول بأن ذلك التمازج هو الذي كون الفكر العربي الإسلامي) ص ٢٢٤ . (بل إن الإسلام كون الرسالة الواسعة لمجموعة ضخمة من المشكلات الفكرية والدينية والاجتماعية التي عملت بفعل عامل التأويل واستخدامه حتى الحد الأقصى من قبل الأطراف الفكرية المتنازعة على تقديم وقود لتزاع تلك الأطراف) ص ٢٢٦ .

بهذا قدم لتناوله أعمال المفكرين العرب . . ولنا في حاجة إلى التعليق عليه ، ما دنا بصدد تفصيل القول عن هؤلاء المفكرين .

لكن لا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إلى أن الكاتب يتحرك من منطلق (تعليمات)

سادته ، التي يجدها تتردد على ألسنة الكتّاب اليساريين على مستوى المساحة العربية .

جاء في القاموس الفلسفي السوفيتي أن ابن رشد (طوّر المادية في فلسفة أرسطو ، وتحدث عن أثره وأثر ابن سينا في العالمين : العرب والأوربي ، وترد حول الكندي فقرات قصيرة ، تفيد أنه مؤسس الأرسطاليسية العربية . وهناك ملاحظات عن المتكلمين تفصل بوضوح بين المعتزلة والأشاعرة ، ويشير القاموس إلى عقلانية المعتزلة وسببهم ، وإلى مثالية الأشاعرة ، واستغلال المذهب الذري لخدمة اللاهوت . . أما الفقرة الخاصة بالإسلام فتسجل أنه ظهر في مرحلة انتقال الشعب العربي من نظام المشاعية البدائية إلى المجتمع الطبقي ، وتوحدتهم في دولة الخلافة الكهنوتية الإقطاعية ، والإسلام هو الانعكاس الأيديولوجي لهذه العمليات وقد أصبح الدين المدافع عن مصالح الطبقات الحاكمة ، أما الخصائص المميزة للإسلام فهي : معاداة الملحدين ، الحطّ من المرأة ، تعدد الزوجات ، الإسلام يبرر اللامساواة ، ويدفع الناس عن الكفاح الشعبي إلى ترقب عقيم للسعادة الأخروية) (١) .

١٠ - معالم المذهب الذري في الفكر العربي الإسلامي الوسيط . .

تحت هذا العنوان يحاول الكاتب أن يصنع من الحبة قبة - كما يقول المثل - مع أن الأمر لا يتجاوز أسطراً متناثرة على ألسنة الكلاميين حول الجزء ، (من حيث هو نهائى لا يتجزأ ، ومن حيث هو يتجزأ بشكل لا نهائى) .

وقد يبدو للخاطرة الأولى أن الكلاميين انساقوا في مساق اليونانيين ، لكنهم لم يجدوا إلا إعلان الموافقة أو الرفض ، لأنهم لم يتناولوا الأمر من واقع منهج طبيعى

(١) هادى العلوى - في الدين والتراث - دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٣ ص ٢١ .

أوفلسفى ، كما فعل اليونانيون ، وكان موقفهم أشبه بالاستفتاء حول رأى ما ، والإجابة بنعم أولا ، فإذا كانت براهين تجدها ملتوية غامضة جافة ، لأنها مُصطنعة فعل الذى يدافع عن قضية لا يؤمن بها أولا يجدها ذات جدوى .

جاء فى (مقالات الإسلاميين) : «اختلفوا ، هل يوصف البارئ بالقدرة على أن يرفع جميع اجتماع الأجسام حتى تكون أجزاء لا تتجزأ ؟ فأنكر ذلك النظام ومن أنكر الجزء الذى لا يتجزأ» .

ويفسر الكاتب موقف النظام هذا بأنه (يسير خطوة أخرى بتضييقه حدود القدرة الإلهية) ص ٢٤٢ مع أن موقف النظام يقوم على أساس تعلق إرادة الله بالمستحيل ، فإذا كانت نهاية للتجزئة يظل وجود المادة قائماً ، أما الوصول إلى التناهى بالتجزئة فهو العدم ، وعدم الكون - بحيث لا تبقى أجزاء مادته - مستحيل عقلا ، وحديث القرآن يفيد التغيير ، لا الإعدام ، (يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات) فقد اتفق العقل والشرع على الاستحالة ، وإرادة الله لا تتعلق بما لم يرد أن يكون ، لأن من العبث أن نقول إنه يريد ما لا يريد .

(قال هشام بن الحكم : معنى الجسم أنه موجود ، وكان يقول إنما أريد بقولى جسم ، أنه موجود ، وأنه شيء ، وأنه قائم بنفسه) ص ٢٥١ .

وهذا يعنى أن الأجسام لا تفتى ، وإلا لم تكن أجساماً ، وما دام الله قد خلق الأجسام فهى باقية ، مادة تتغير صورها ، وفق إرادة خالقها ولعل هذا ما يعنيه (معمر) بقوله : (محال أن يفنى الله جميع خلقه حتى يبقى وحده) ص ٢٥١ لأن الكون لم يخلق عبثاً ، بل لغاية يعلمها سبحانه ، قد تتمثل فى قوله جل شأنه : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) . . أوكما يقول الصوفية : (أراد أن يعرف فخلق العالم) ، وما دامت الغاية قائمة ، فمن العبث أن يكون العدم .

ولم يتجاوز القوم هذه التعبيرات المبسرة الغائمة ، ومن ثم داروا حول مفهوم الجزء .

(يرى أبو هاشم الجبائي : أنه من غير الممكن أن يتصور المرء الأجزاء دون امتداد . . أما البلخي فقد رأى أن الجزء الذي لا يتجزأ ليس له امتداد ، بينما الجسم هو الذي يملك امتداداً ، هذا الجسم الذي يتألف من عدد من الأجزاء) ص ٢٤٦ .

والروافض (يزعمون أن الجز يتجزأ أبداً ، ولا جزء إلا وله جزء ، وليس لذلك آخر ، إلا من جهة المساحة ، وأن لمساحة الجسم آخرًا ، وليس لأجزائه آخر ، من باب التجزؤ) ص ٢٥٣ .

ولعل مرد الاختلاف في مفهوم الجزء يرجع إلى مفهوم (الصفير) في العربية، (فالنقطة ليس لها من الناحية الهندسية كما اعتُقد أبعاد محدودة فهي الشيء الأخير الذي يمكن افتراض وجوده) ص ٢٥٦ .

وإذا صح أن النقطة هي منطلقهم فالأمر لا يعدو حدوداً رياضية وليس فلسفة ، أو وجهة نظركونية ، ولهذا يرى الأشاعرة أن (العالم الطبيعي هو موضوع الحديث عن الجزء الذي لا يتجزأ) لأن (العالم الطبيعي هذا يتألف من جواهر « أجزاء لا تتجزأ » وأعراض) ص ٢٤٧ .

والأشاعرة عملوا على تطوير الفكر المعتزلي بحيث يكون ملتزماً القضية التي نشأ من أجلها ، لا أن يدور في ماثاة (يحوز أولاً يحوز) دون الوقوف عند البراهين المقنعة التي يطمئن إليها العقل ، ويؤيدها الشرع ، ولهذا قالوا : (إن الجوهر ذاك لا يوجد إلا مع عرض ، وهو يعتبر في هذا المعنى محلاً للعرض ، وبما أن العرض هو ما يتغير فإن الجوهر « الجزء » محل للتغير ، والجسم الذي يتألف من جواهر وأعراض أي من أشياء ذات طبيعة متغيرة لا يمكنه إلا أن يكون من هذه الطبيعة ، ولكن هذا العالم المتغير الذي لا يمتنع وجوده من ذات نفسه يحتاج ، لكي يبقى موجوداً ، إلى قوة لا متغيرة وموجودة على الدوام ، إن هذه القوة هي الإله) ص ٢٤٨/٢٤٧ .

لقد حاكوا بهذا القول ما سبق إليه ديمقريطس ، وزادوا ففسروا (الصدمة) ، عامل التحريك للذرة ، بالإله وهذا ما لم ينل رضا ابن رشد ، فقال (وطريقتهم التي سلوكوها في بيان حدوث الجزء الذي لا يتجزأ ، وهو الذي يسمونه الجوهر الفرد ، طريقة معتاصة ، تذهب على كثير من أهل الرياضة في صناعة الجدل ، فضلا عن الجمهور ، ومع ذلك فهي طريقة غير برهانية ولا مفضية ييقن إلى وجود الباريء) ^(١) . ذلك لأن موضوع (الجزء الذي لا يتجزأ) لم يتناول من واقع دراسة طبيعية يتوصل بها إلى نتائج يقينية ، وإنما - كما قال الدكتور تيزيبي : (إن النظام لا يطرح المسألة هذه ، بحسب النصوص التي وصلتنا منه أو حوله ، بذلك الوضوح والتماسك) ، ومع هذا يحكم بأن (النظام رفض فرضية الجزء الذي لا يتجزأ ، لأن الأخذ بذلك سوف يقود برأيه - على نحو مباشر - إلى اعتبار هذا الجزء نقطة رياضية لا امتداد لها ، وهذه النقطة الرياضية تساوى صفراً) . ص ٢٤٣ .

ويبين على هذا الطرح (أن الذرية الإسلامية العربية تشكل نسخة فردية عن الذرية اليونانية ، ولكن زيفها هذا مشروع تاريخياً ، لقد كانت في جوهرها مناهضة للعلم والفلسفة المادية الهرطقية ، إنها انطلقت من مصادرات ومسلات دينية إيمانية) ص ٢٦٠ .

١١ - الكندي . . (٨٠١ - ٨٦٧ م) .

بدايات الفكر الفلسفي المتميز ، والتكريس الفلسفي لمصادرة الخلق من عدم . . كما يبدو من العنوان اتخذ الكندي من الفلسفة وسيلة لمصادرة المعتقد الديني (أن الله خلق الكون من عدم) ، بمعنى أنه يرى أن المادة قديمة قدم الخالق ، مع أن النصوص التي أوردها لا تشير إلى شيء من ذلك فهو يقول (الحركة ليست قديمة ،

(١) تراث الإنسانية - م ٣ عدد ٢ ص ١٥٧

وليست نهائية ، لأنها - كما يقول الكندي - بالأصل تنشأ مع الجرم) ص ٢٧٨ وهذا يعنى أن الجرم ليس قديماً ، لأن الحركة رهن بالجرم ، (فإن كان جرم كانت حركة ، وإن لم يكن جرم لم تكن حركة) ، فالجرم (حامل ، ومحمولاته هى الزمان والمكان والكم والحركة ، وباعتبار أن الحامل لا يمكن أن يكون لانهائياً فإن محمولاته لا يمكن أيضاً أن تكون لانهائية ، فى حالة التحقق) ص ٢٧٧ .

ومن ثم (فللكل محدث اضطرارا عن ليس) ، ص ٢٧٨ ، أوكها يقول الدكتور : (إن الآية القرآنية (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) تكتسب لدى الكندي مضموناً وطابعاً فلسفيين يطرحهما من خلال منظور منطقي منسق) ص ٢٦٧ أى أن الفلسفة والمنطق كانا فى خدمة النص القرآنى الذى يفيد الخلق من عدم ، ومع أن الكندي (عمل على طرح القضايا الفلسفية فى إطار إقناع علمى طبيعى رياضى) ص ٢٦٤ فإنه كان يرى (أن كل ما قاله النبى محمد يمكن أن يبرهن عليه من خلال « العقل » ومن لا يقبل ذلك فإنما هو من لا عقل له) ص ٢٦٥ أى أن الشرع الإسلامى لا يتعارض مع المنطق العقلى ، لأنه قائم على أساس هذا المنطق ، فمن أين إذن جاء الدكتور بما يفيد (التكريس الفلسفى لمصادرة الخلق من عدم) ؟ .

إنه يجد تفسيراً لمفهوم (النفس) عند الكندي يقول (إنها قريبة الشبه بقوة الإله ، تعالى شأنه ، إذا هى تجردت عن البدن ، وفارقت ، وصارت فى عالمها الذى هو عالم الربوبية) ص ٢٧٥ .

ومع أن العبارة تقول : (قريبة الشبه) أى أن التعبير قصد به التوضيح ، وتيسير الفهم ويشفع له فى هذا التعبير قول الله سبحانه : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - فقعوا له ساجدين) الحجر - ٢٩ . مع أن الآية قد تحمل على الجواز بمعنى من السر الذى اختصصت بمعرفته : (قل الروح من أمرى) الإسراء - ٨٥ . فإن الدكتور رفع راية حمراء مقررًا (أن فى هذا القول حول النفس أمراً خطيراً فيما يخص

تحديد موقع الكندي من تاريخ الفكر العربى الإسلامى الوسيط) ، لأنه (يبدو لنا فى محاولته غير المباشرة ، وربما غير الواعية ، لاكساب الإله الإسلامى طابعاً مغايراً يتميز بملامح من « وحدة الوجود » التى يبرز فيها الإنسان إلى جانب الإله ، فى علاقة شبه متكافئة) ص ٢٧٥ .

ومع أن النص بعيد من هذا الهذيان الذى يقيم قصوراً على فكر (غير واع) فإنه يضيف أن الوصول إلى (إله إنسانى - « مؤنس ») يرجع إلى (تبلور وضع طبقى وعلمى جديد فى المجتمع) ص ٢٧٥ فى الوقت الذى يدعى أن الكندي (قد أخذ أرسطو وعرفه ممزوجاً بملامح أفلاطونية حديثة ، ومن خلال مواقع إسلامية لاهوتية) ص ٢٦٤ . أى أن فكر الكندي رهن بالعامل الثقافى وليس بالعامل الاجتماعى الطبقي .

ويزيد أن (الكندي يسمى الله - بلغته الفلسفية - بالأزلى ، و « المطلق » والعلة الأولى) ، ويعلق على هذه التسمية بقوله : (ولا شك أن تحويلاً أولياً لتصور الله إلى مفهوم عن الإله ، من حيث هو علة أولى ، يمكن ملاحظته والتأكيد على إيجابيته ، ضمن الإطار الفكرى المهرطقى) ص ٢٧٩ والأمر لا يعدو استخدام مصطلحات فلسفية لا تخرج عن مجال المفاهيم الدينية .

ثم يقول : إن الكندي يؤكد أنه (ليس فى الطبيعة شىء عبث وبلاعة) ص ٢٨٠ وهذا تعبير دينى يؤكد الغائية التى تحدثت عنها الفلسفات الأخلاقية ، وجاءت بها الأديان السماوية .

ثم يقول : (إن هذا التناقض بين كون العالم « الحقيقى » بعيداً عن الكثرة والوحدة وكون العالم « المجازى » مجال الكثرة والوحدة ، يبرز النزاع الفكرى العميق الذى يلف المنظومة الفلسفية الكندية) ، ثم يعلق بأن (هذا النزاع يحتوى مفارقة مذهلة : أن الخصوبة والتعدد والحياة والنمو تنشأ جميعاً عن اللاخصوبة واللا تعدد واللا حيوية واللا نمو) ص ٢٨١ فأى فجور هذا ؟

ألآن الواحد يخلق المتعدد ، يعنى خلو الواحد من الخصوبة والحوية ؟ وكيف يخلق من يخلو من الخصوبة (الجود) ومن الحياة ؟
لكنها شئنة نعرفها من (فاوست) الذى باع نفسه للشيطان .

١٢ - الفارابى (ت ٩٥٠ م) .

عملية تجاوز الثنائية بين الإله والعالم ، وتجاوز مصادرة الخلق من عدم .
استخدم نظرية (الفيض) الفارابية سبيلا إلى (وحدة الوجود) بحيث تنتفى ثنائية (الله - العالم) ويصبحان شيئا واحداً ، ومن ثم فالعالم ولا إله .
يصف الفارابى الله بأنه (جواد ، وجوده هو فى جوهره ، ويترتب عنه الموجودات ، ويتحصل لكل موجود قسطه من الوجود ، بحسب رتبته عنه ، فهو عدل ، وعدالته فى جوهره) ص ٢٨٩ .

وصف لا يخرج عن قول بعض المحققين : إن صفات الله هى ذاته ، وليست شيئا يتجاوز الذات ، احترازاً من التعدد ، وإن كان الكثيرون يرون أنه ما دمت لا نعرف ذاته فنحن بالأحرى لا نعرف صفاته ، ومن ثم ينبغى التسليم بظاهر ما ورد به الشرع ، دون الخوض فيما وراءه .

لكن الفارابى يضيف أنه (متى وجد للأول الوجود الذى هو له لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات) ص ٢٨٩ .

وكلمة (ضرورة) لا تحمل أكثر من (التلازم) الذى يقوم بين (الخالق والمخلوق) ، فلم يكن المخلوق ما عرف الخالق . . لكن الدكتور يستنتج من ورائها (أن الفارابى - فى هذه القضية - يحقق تفهماً عميقاً للعملية الجدلية التى يمارس الإله من خلالها وجوده) ص ٢٩٠ وهذه (العملية الجدلية) تؤدى (عبثاً) إلى تفسير العلاقة بين (الخالق والمخلوق) - أو بين (الموجود الأول والعقل الأول) فى مفهوم الفارابى عن العقول الأحد عشر - على أساس القول بـ « المادة » بمعنى

العالم المادى الشامل ، إلى جانب القول بقدّم الإله ، أى الوجود الأول
وفى هذه الزاوية من النظر يصبح « العقل الأول » نفسه الأصل البعيد للعالم
المادى ، أو المادة الأولى التى انبثق عنها العالم المتعين ، أما ضرورة الأخذ به من قبل
الباحث - فى منظومة الفارابى الفلسفية - فإنها ربما تبرز كمحاولة لتثبيت
« الواحدية » لدى الموجود الأول وعدم المساس بها ، ذلك لأن القول بموجود واحد
أحد يخلق صعوبة أمام حل مسألة العلاقة بين « الروحانى » و « المادى »
و « الوحدة » و « الكثرة » ، فى حال الأخذ بتصور الخلق لعالم « المادى » من عدم
محض إطلاقاً فإن القول بعالم مادى ، له أصله البعيد فى مادة قديمة ، بجانب عالم
روحانى إلهى قديم ، يبعد الإشكال الذى ينشأ عن القول بعالمين ، ينشأ أحدهما عن
الثانى ، فى الوقت الذى ينتفى فيه وجود تجانس ذاتى بينهما .

أمّا التفسير الثانى فيقوم على التأكيد على فكرة الفيض كحل لمسألة العلاقة بين
« الوحدة » و « الكثرة » إذ ينتفى على هذا الطريق القول بوجود عالم « مفارق »
وآخر « عيانى » .

(فهناك عالم واحد يتضمن الوحدة والكثرة ، على نحو جدلى ، تضمن الوحدة
للكثرة ، والكثرة للوحدة) ص ٢٩٨/٢٩٩ .

هكذا يتحول الفيض عند الفارابى إلى (عملية توالد ذاتى
تاريخى) ص ٢٩٧ ، أى أن الطبيعة هى الخالقة ، بلغة الدهريين ، (بالرغم من
أن الفارابى لم يقل ذلك لفظاً) . ص ٢٩٩ .

فيا للعجب !!

(بالرغم من أن الفارابى لم يقل ذلك لفظاً) يتحول الإله إلى قوة (ذاتية) فى
الطبيعة) مع أن الدكتور مهّد لنظرية (الفيض) عند الفارابى بما نصه ، أن الفارابى
(يمتنع عن إلحاق أى تجديد أو تعريف منطوق به - الله ، أو الموجود الأول - ذلك
لأنه لا يمكن أن يستوعب من قبل الفهم البشرى) ص ٢٨٧ .

(فهو - بحسب ذلك - واحد أحد ، كلياً وكيفياً ، إنه « من أن ينقسم أقسام الكمية وسائر أنحاء الانقسام أبعد . . وإن كان من جهة كفيته فهو واحد من جهة الكيفية ، وما لا ينقسم في جوهره فهو واحد في جوهره » . وهو في أحديته « هذه يفهم فقط من خلال ذاته ، إذ « إن وحدته عين ذاته » ، كما أنه عقل من جهة وحدته الذاتية هذه ، والعقل عارٍ عن المادة) ص ٢٨٧ .

(هو مجرد عن أية صورة لأن الصورة لا يمكن أن تكون إلّا في مادة ، ولو كانت له صورة لكانت ذاته مؤتلفة من مادة وصورة) .

هو (سبب أول ليس له نفسه سبب ، كما أنه غاية نفسه ، ولا يمكن أن نحمله أية مواصفات سوى كونه « الأول ») ص ٢٨٧/٢٨٨ .

كيف يتفق هذا التعريف القائم على التنزيه عن (الكمية والكيفية والمادية) ، مع ما وصل إليه السيد الدكتور ؟

ويبنى على (عملية التوالد الذاتي التاريخي) أن نظرية (الفيض) تمثل نظرية (وحدة الوجود) ، بمعنى أنه (في الوقت الذي ينطلق فيه الفارابي من ضرورة فيض الأشياء كلها عن الموجود الأول ، يفقد هذا الأخير وجوده لذاته بشكل علوي مفارق ، بل أكثر من ذلك ، أن وجوده لذاته يصبح وجوده للعالم ، فهو لحمه هذا العالم ، « وحركة - عقله » الخاصة الذاتية ، والتحدث عن وحدة ذات يتمتع بها الموجود الأول تلقاء الموضوع - الذي هو العالم المادي - تتلاشى ، إذ تحل محلها وحدة الذات بالموضوع ، أو الوجود الأول) ص ٣٠٠ .

وهكذا ، تتحرك المادة (الطبيعة) حركتها (الذاتية) ، ويصبح اسم هذه الحركة (الله) .

هذا مع أن وحدة الوجود تقوم على أساس أنه (لا موجود إلّا الله ، فهو الوجود الحق والوجود المطلق ، وجوده أزلي وأبدى ، بل هو الوجود كله ، ولا موجود سواه ، يقول ابن عربي : « وقد ثبت عند المحققين أنه ما في الوجود إلّا الله ، ونحن

وإن كنا موجودين فلنما كان وجودنا به ، ووجوده في غنى عن الدليل ، وكيف يصبح التدليل على من هو عين الدليل ؟ فالحقيقة الوجودية واحدة ، لا كثرة فيها ولا تعدد ، والكثرة التي تشهد بها الحواس إنما هي مجرد صور وبجمل تتجلى فيها الصفات الإلهية ، أو أوهام يخترعها العقل ، وليس ثمة فرق بين الحق والخلق ولا بين الخالق والخلق ، اللهم إلا بالاعتبار والجهة ، فالله حق في ذاته ، وخلق من حيث صفاته ، وهذه الصفات نفسها عين الذات ، « سبحان من أظهر الأشياء وهو عيناها » (١) .

ولا يعني هذا القول أن ابن عربي يقول « بالاتحاد » أو « بالحلول » فهو القائل (ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول) (٢) . وإنما يعني مجرد الإحلال للخالق ، وفناء ضوء الشمعة في أشعة الشمس الساطعة ، ولو أننا قلنا : إن ابن عربي يعني فناء الخلق في الخالق فكاتبنا الأملعي يعني فناء الخالق في الخلق .

ثم يلخص ما وصل إليه بأن الفارابي (طرح قضية « العالم الواحد » رافضاً بذلك - على نحو غير مباشر ، وبقليل أو كثير من الوضوح . القول باثنيتية العالم ، والقول بوجود عالم مفارق ، عالم إلهي علوي ، وعالم عياني حسي) ص ٢٣١ ، وذلك لأنه (حين يعتبر الفارابي الموجود الأول المطلق في كماله لانهائية ، فإن هذه اللانهائية هي النهائي الأخير ، إنها حسب الزمان والكمال النهائية ، وهكذا يتلاشى التناقض الوهمي ذاك ، ويبقى الموجود الأول نهائياً ، أخيراً) . ص ٢٩٦ .

فافهم !!

(١) الكتاب التذكارى عن محيى الدين بن عربي - د . إبراهيم مذكور - المكتبة العربية سنة ١٩٦٩ -

ص ٣٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

١٣ - ابن سينا (٨٩٠ - ١٠٣٩ م تقريباً) . .

ثورة عميقة فعالة في عملية تجاوز الثنائية « مادة - صورة » و « إله - عالم » . .
(تبدو لنا الروح « الفاوستية » مجسدة بعمق في شخصه ، كممثل كبير للتقدم
الفكرى الفلسفى ، ومدافع تغمره القناعة والحماسة عن ذلك التقدم ، فى المجتمع
العربى الإسلامى الوسيط ، وقد بلغ التطور العلمى الفلسفى آن ذاك على يده مرحلة
عالية ، بقيت آثارها ممتدة حتى العصر الحديث الأوروبى) ص ٣٢٠ .
ولكى يقيم الدليل على أن (الروح الفاوستية) جابهت (فكرة الخلق عن عدم
محض) عرض مفاهيم ابن سينا للثنائية ، والمفارقة ، والعدم ، والزمان والحركة ،
والمادة ، والصورة .

(فكل موجود ، إما واجب الوجود بذاته ، وإما ممكن الوجود بحسب
ذاته) ص ٢٠٦ . . وواجب الوجود هو الله ، والممكن الوجود ما عداه . . إذن
فقد (قسم ابن سينا الوجود إلى قطاعين : الوجود بحسب الذات ، والوجود بحسب
الزمان) ص ٣٠٦ فهل يمكن أن يؤدى هذا التقسيم إلى أن يصير (ابن سينا أبعد
ما يكون عن مثل تلك « الاثنية » ، حيث إنه ألح على العالم الواحد) ؟
لقد (استخدم مفهومي فلسفيين أساسيين هما : « القدم » و « الأحداث » ،
وذلك فى سبيل إلقاء ضوء كشاف على المسألة المبدئية . . حيث يرى : « كل موجود
إذا التفت إليه ، من حيث ذاته ، من غير التفات إلى غيره ، فلما أن يكون بحيث
يجب له الوجود فى نفسه ، أو لا يكون ، فإن وجب فهو الحق بذاته ، الواجب
وجوده من ذاته ، وهو القيوم) ص ٣٠٧ على العكس من ذلك (أمّا حقه فى نفسه
الإمكان ، فليس يصير موجوداً من ذاته فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه ،
من حيث هو ممكن) ص ٣٠٧ .

إذن فمن أين توفر للكاتب أن ابن سينا (تجاوز الثنائية) ، وأن الله (قديم

كالزمان الذى يحتويه) ، وأن (كل حادث قد تقدمته المادة كما تقدمه الزمان) ؟ ص ٣٠٨ .

لقد (ميز ابن سينا « المحدث » فى الزمان عن « المحدث » لافى زمان) ص ٣٠٨ فكيف نتوصل إلى أن التقسيم الوجودى « واجب وجود بذاته وعالم مادى » (ما هو إلا عملية تعسفية ، ليس لها حقيقة فى منظومة ابن سينا الفلسفية ، وبأن ليس هناك سوى عالم واحد مادى ، تسوده قانونية ذاتية ، هى نفس) ؟ ص ٣١٨ .

أتكون هناك (منظومة فلسفية) لابن سينا قرأها الكاتب ، ولم يعتمد عليها فى نصوصه التى أوردها ؟

(لقد كتب ابن سينا أن « واجب الوجود يجب أن يعقل ذاته بذاته ، على ما تحقق ، ويعقل ما بعده من حيث هو علة لما بعده ، منه وجوده ») ، فهل يشير مفهوم العلة والمعلول - (ولو على نحو غير متميز وواضح - إلى واقع جدلى جوهرى ، وهو أن السائد فى العالم هو « التأثير والتأثر الشاملان المتبادلان » ، فبحسب ذلك يتبنى القول بوجود سبب « واحد » للعالم) ؟ ص ٣٢٤ أليس من الخلط والهديان أن نسوى بين مفهوم العلة والمعلول (عقليا) ، ومفهوم العلة والمعلول (ماديا) ، فننقل علاقة (التأثير والتأثر) إلى ما بين (الله والعالم) ؟ إن حرص الدكتور على الوصول إلى إنكار وجود الله يدفعه إلى مزيد من الشطط فيقول (العلة والمعلول كقطعة من العملة بوجهيها الاثنين ، فهذان الوجهان هما مظهران لشيء واحد متجانس) ص ٣١١ ومن ثم فمفهوم (المفارقة) غير وارد ، و(مما يؤسف له أن مجموعة كبيرة من المستشرقين والباحثين العرب ينزلون فى متاهات ذاتية لدى دراستهم وتقويمهم « للمفارقة » السينوى ، إننا سوف نرى مفهوم « المفارقة » لدى ابن سينا ينحصر فى إطار الأفضلية « الذاتية » بين الموجودات ، إن واجب الوجود « مفارقة » للمادة فقط بمعنى أنه أكمل وأفضل

وجوداً منها ، وليس بمعنى أنه مجرد عن العالم المادى) ص ٣١١ .
 فن أين تكون (الأكملية والأفضلية) ماداما (مظهرين لشيء واحد
 متجانس) ؟ أهو فضل (الصورة) على (الكتابة) فى وجهى (العملة) يا أيها
 الدكتور ؟ .

ألم يقل ابن سينا فى تعريف واجب الوجود بأنه (ليس بجسم ، ولا مادة فى
 جسم ، ولا صورة فى جسم ، ولا مادة معقولة لقبول صورة معقولة ، ولا صورة
 معقولة فى مادة معقولة ولاقسمة له ، لا فى الكم ، ولا فى المبادئ ولا فى القول ،
 فهو واجب الوجود من جميع جهاته ، إذ هو واحد من كل وجه)^(١) .

* * *

وينقل عن ابن سينا أن (الزمان ليس محدثاً حدوثاً زمانياً ، بل حدوث إبداع
 لا يتقدمه محدثه بالزمان والمدة ، بل بالذات ، ولو كان له مبدأ زمانى لكان حدوثه
 بعد ما لم يكن ، أى بعد زمان متقدم . . . فإذا كان الزمان غير محدث حدوثاً زمانياً ،
 والحركة كذلك) ص ٣٠٩ .

عبارة تفيد أن الله سبحانه (لا فى زمان) ، وأن الزمان تابع لحركة المادة ،
 فوجود الزمان مصاحب لوجود المادة ، وقبل أن يخلق الله (المادة) فلا زمان ، ومن
 ثم يكون حدوث الزمان (إبداعاً) ، كما أن خلق المادة (إبداع) .

لكن الدكتور يزعم أن ابن سينا (عارض - فى رأيه هذا المؤدى إلى نتائج مادية
 فلسفية هرطقية - هذيان المتكلمين الذين منهم من جعل الزمان له وجود ، لا على
 أنه أمر واحد فى نفسه ، بل على أنه نسبة ما ، على جهة ما ، لأمر أيها كانت ، إلى
 أمور أيها كانت ، فقال « إن الزمان هو مجموع أوقات ، والوقت عرض حادث ،
 يعرض وجود عرض آخر ، مع وجوده ، فهو وقت للآخر ، أى عارض
 حادث ») ص ٣٠٩ .

(١) الملل والنحل على هامش الفصل - ج ٣ - ص ١٣٢ .

وكلا رأيي المتكلمين وابن سينا لا يخدم هدفاً للدكتور ، فالمتكلمون يعرفون الزمان تعريفاً (نسبياً) وابن سينا يعرفه تعريفاً ظرفياً ، ولا خلاف بين التعريفين . . لهذا لا يلبث الدكتور أن ينقض على عبارة لابن سينا تقول (تغير الحال لا يمكن إلاً لدى قوة تغير حال) ، أى أن التغير رهن بالمادة ذات الاستعداد للتغير ، لكنه يلتوى بها صارخاً : (إن في هذا القول اتجاهاً واضحاً بارزاً يكمن في الأخذ « بالحركة الذاتية » للأشياء ، وبالتالي للعالم ، من حيث هو كل) ص ٣١٠ .

وإذا كان الكاتب قد قرأ (ملخص) الشهر ستاني لطبيعيات ابن سينا - كما تذكر مقتبساته - فقد فاته أن ابن سينا يقول (اعلم أن كل حركة توجد في الجسم فلانما توجد لعلة محركة ، إذ لو تحرك بذاته وبما هو جسم لكان كل جسم متحركاً ، فيجب أن يكون المحرك معنى زائداً على هيولى الجسمية وصورتها) (١) .

أما قول ابن سينا إن (الحركة كمال أول لما بالقوة من جهة ما هو بالقوة فإن الحركة له من حيث هو بالقوة ، في مكان يقصده لا من جهة ما هو بالفعل إنسان أو نحاس . .) ص ٣١٢ . فإنه يعنى أن الحركة رهن بالاستعداد الذى خلقه الله في المادة ، لا في ما صارت إليه ، لأنه يتحدث عن (جنس) الحركة ، لا عن (نوعها) . . لكن الدكتور يسارع ، كالعهد به قائلًا : (فالحركة إذن غير مخلوقة ، إنها موجودة دائماً ، ولكن بارتباط وثيق مع المتحرك ، أى الجسم الطبيعى المتحرك . . في عملية صيرورة الشيء ، إن ابن سينا يتكلم هنا عن فعل أول وكمال أول ، كما عن فعل ثان ، وكمال ثان ، الفعل الأول يتأصل في الحركة الممكنة ، بينما الثانى متأصل في الحركة المتحققة) ص ٣١٢ .

بالرغم من التزييف الواضح في عبارته ، إذ يعبر عن (الفعل) بالحركة فإنه كشف عن نفسه ، حين فرق بين (الممكن) والمتحقق ، لأنه إذا كان ثمة ممكن

(١) المصدر السابق - ج ٣ ص ١٦٩ .

ومتحقق ، فالممكن يدل على (الفاعل) الذى يمكنه الفعل ، و (المتحقق) يدل على (العدم) الذى سبق التحقق ، ومن هنا يعترف بما هو حريص على إنكاره ، لأنه لا يملك أسباب هذا الإنكار ولهذا يضيف دون إدراك (إن ابن سينا نفسه كان يرفض رأى القائل بأن الوضع الذى يوجد فيه شىء ما فى حالة الانطلاق ، وهو وضع « الإمكان » ، يشبه وضعه فى حالة التحقق) ص ٣١٢ وما دام ابن سينا يرفض المشابهة بين حالتي الإمكان والتحقق ، لأنها حالتان مختلفتان ، فكيف ينكر (الفاعل) سبحانه ؟ وكيف له يتجنى على (كمال اليازجى) لأنه (يؤكد أن « وجود الإمكان » وانتقاله إلى الوجود عائدان عند ابن سينا إلى اعتبار ثالث . هو واهب الصور) ؟ ص ٣١٣ .

* * *

وينقل عن ابن سينا (أن المادة تقوم إذن بالتحقق فقط ، من خلال الصورة الجوهرية . . ولهذا فإن فصلت المادة عن الصورة الجوهرية فى التصور الداخلى ، فإنها تسلك عملية منطقية ، ليس لها مطابق فى الواقع الخارجى) ص ٣١٣ بمعنى أن المادة (الهوى) مجرد تصور منطق قائم على (الإمكان) فإذا ارتبطت المادة (بالصورة) صارت واقعا (شكلا) ، وهذه مصطلحات فلسفية شائعة لكنه يستنتج على لسان من يسمى (لاي) ، (أن ما يسمى مادة يمكن أن يكون صورة ، وما يسمى صورة يمكن أن يسمى مادة) ص ٣١٥ ، والأمر ليس فى اختلاف الأسماء ، ولكن فيما يهدف إليه من وراء هذا الاختلاف ، وهو أنه ما دامت المادة والصورة شيئا واحدا فلا (جديد) ، أو فلا (خلق) ، ذلك لأن (المادة مهمة تماماً كاهمية الصورة من أجل تكوين العالم المادى) ، ما دام ابن سينا يقول : (فللهوى إذن تأثير فى وجود ما لا بد للصورة فى وجودها منه كالتناهى والتشكل) ، ومن ثم فابن سينا (يؤكد على الوحدة الجدلية بين المادة والصورة كتعبير عن وحدة عملية التكون والتحول والتطور ، فى العالم المادى . . إنه فى

تحديده لتلك الملامح الجوهرية للمادة والصورة أكد على استقلالية العالم المادى الذاتية ، من حيث هو عالم موجود مادياً ، وموضوعياً (ص ٣١٧ .
أرأيت كيف تنقلب العصا حية ؟

١٤ - ابن طفيل (ت ١١٨٥ م) .

الامتداد الطبيعى لفكر ابن سينا المادى المروطى ..

تحت هذا العنوان صب الدكتور غضبه على الغزالي فى اثنتى عشرة صفحة ، وقصر الحديث على ابن طفيل فى اثنتى عشرة صفحة ، فما سر هذا ؟ .

يقول (إن الغزالي - فى منظومته المثالية الصوفية - قد عكس على نحو مثير اتجاه الاضمحلال والانحطاط الاجتماعى والعلمى فى المجتمع العربى الإسلامى ، هذا الاتجاه الذى حملته القوى الاجتماعية الإقطاعية آن ذاك ، معارضة بذلك قوى التحول البورجوازي المبكر) ص ٣٣٤ .

و (كتب الأب يوحنا قير : « وأن الغزالي بُعد حريض على الهدم وإظهار التناقض ، أكثر مما هو حريض على إظهار الحق ») هامش ص ٣٣٤ .

والغزالي يمثل (التعبير العميق عن الرفض القاطع « للجديد » الذى حملته بذور التطور البورجوازي المبكر) ص ٣٣٥ .

لم هذا التهجم العنيف على حجة الإسلام الإمام الغزالي الصوفى الذى ترك الدنيا وراء ظهره ، ولم يكن يوماً من الإقطاعيين ، حتى يقف فى وجه التحول البورجوازي المبكر ؟ .

يقول : لأنه فى كتابه (تهافت الفلاسفة) قال :

١ - (كما أن البعد المكاني تابع للجسم ، فالبعد الزمانى تابع للحركة ، فإنه امتداد الحركة ، كما أن ذاك امتداد أقطار الجسم .. فلا فرق بين البعد الزمانى الذى تنقسم العبارة عنه ، عند الإضافة ، إلى « قبل » ، « وبعد » وبين البعد المكاني

الذى تنقسم العبارة عنه عند الإضافة إلى « فوق » و « تحت » ^(١) .
وهو ساخط على هذه العبارة ، لأنها تؤكد (المفارقة) بين الخالق والمخلوق وهو
ما يحرص الدكتور في كتابه على نفيه ، ليثبت قدم العالم ، وأن حركته ذاتية ،
ولا إله ، (وهذا كله يعجز الوهم عن فهم وجود مبتدأ إلا مع تقدير « قبل » له ،
وذلك « قبل » الذى لا ينفك الوهم عنه ، يظن أنه شيء محقق موجود ، هو
الزمان ^(٢) . . بل لحب النفس وسوء الطوية .

إن العالم المادى (حدث بإرادة قديمة اقتضت وجوده ، فى الوقت الذى وجد
فيه ، وأن يستمر العدم إلى الغاية التى استمر إليها ، وأن يتبدى الوجود من حيث
ابتدأ) ^(٣) .

٢- (ومن استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله ما يحكى من معجزات
الأنبياء بحال من الأحوال) . ^(٤)

والأمر واضح فى سخطه على هذه العبارة ولكن الأشد إثارة هو أن الغزالي
تحدث فى صفحات عن إمكانية المعجزة ، متخذاً المنطق أسلوباً والعقلانية منهجاً ،
(وإذا ثبت أن الفاعل يخلق الاحتراق بإرادته عند ملاقة القطنة النار ، أمكن فى
العقل لا يخلق مع وجود الملاقاة) ، و (ولم ندع أن هذه الأمور واجبة ، بل هى
ممكنة ، يجوز أن تقع ، ويجوز ألا تقع ، واستمرار العادة ، مرة بعد أخرى ، يرسخ
فى أذهاننا جريانها على وفق العادة المرضية ترسخاً لاتنفك عنه) ^(٥) .

(١) تهاوت الفلاسفة - ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق - ص ٦٧ .

(٣) المصدر السابق - ص ٢٦ .

(٤) المصدر السابق - ص ٢٩١/٢٩٢ .

(٥) المصدر السابق - ص ١٩٨/١٩٩ .

٣ - (إن حقائق الأمور الالهية لاتنال بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليه) (١) .

ونلاحظ أن ابن طفيل الذى يُكبر الكاتب من أمره يقول (وليس ينبغي أن يوصف العالم الإلهى بلغتنا الإنسانية لأنها مطية الخطأ وسبيل إلى عدم التفرقة بين عالم الحس وعالم العقل الذى لايعرفه إلا من شاهده) (٢) وقديماً قال أرسطو : (أكيد أن المقولة الحق ليست السبب في أن يكون الشيء ، إنما الشيء هو الذى يظهر في نفس الآن السبب في أن المقولة حق) ، فكيف إذا كانت المقولة باطلة ؟ . لكن صاحب المقولة الباطلة يبنى عليها نتائج موهومة ، فيقول : (على ذلك يصبح الحديث عن تغيير الحياة الاجتماعية الإنسانية من خلال كفاح الإنسان المضطهد - شيئاً من العبث ، بل تجديفاً ، يحصد نتيجته ذلك الإنسان ، التى هى القمع .. هذا هو الوجه الفكرى للغزالي ، الفيلسوف الذى استطاع التعبير بقوة ، وعلى وجه شامل عن عصره الحضارى الآخذ بسرعة في التمزق والتكلس) ص ٣٣٨ .

ويلاحظ أن الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١ م) عاش في الفترة ما بين ابن سينا وابن طفيل .. فاعجب !!

إن ابن طفيل نفسه قد قال لنا لماذا لم يستطع قول كل شيء أراد قوله فعلا ، إن من الأمور الصعبة أن يظفر المرء بحقائق الأمور الدقيقة ، « ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به إلا رمزا ، فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت منه » (ص ٣٤١ .

فما الذى منعت منه الشريعة المحمدية وتكلم به رمزا ، ومن ثم فعلينا أن نقرأ

(١) المصدر السابق - ص ٢٢٣ . (كما أشار تيزيني ص ٣٣٨) .

(٢) حى بن يقظان - ص ١١٩ .

ما بين السطور وذلك بالاستعانة بمعالم التوجه الاجتماعي والفكرى الجوهرية آن
ذاك) ؟ ص ٣٤٢ .

قبل أن نخصى مع الكاتب علينا أن نعرف أن ابن طفيل كان زمن الموحدين في
الأندلس ، وهو الذى مهد لابن رشد (التعرف على الأمير أبى يعقوب يوسف ،
حيث كون هذا بداية أساسية وهامة فى نشاط ابن رشد الفكرى ، فقد كلف من
الأمير ذاك بدراسة أعمال أرسطو وكتابة شروح عليها) ص ٣٥٥ . فإذا كان هذا
شأن ابن طفيل وشأن الأمير أبى يعقوب يوسف ، فإن الأمر لا يعدو أن ابن طفيل
كان يحنى فقهاء المالكية وتأثيرهم على العامة .. ولهذا لجأ إلى القصص الرمزية ليورد
أفكاره الفلسفية التى خشي العامة من أجلها . وإن كانت هذه الأفكار لا تبعد عما
كان يتناوله المفكرون فى المشرق ، وتعتقد له الندوات والمناظرات .

يقول ابن طفيل عن (حى بن يقظان) فى فترة تطوره الفكرى وقبل أن يطمئن
قلبه بالإيمان :

(إنه كان - إذا أزمع اعتقاد القدم - اعترضته عوارض كثيرة من استحالة
وجود مالا نهاية له ، بمثل القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لانهية له ،
وكذلك كان يرى أن هذا الوجود لا يخلو من الحوادث فهو لا يمكن تقدمه عليها ،
ومالا يمكن أن يتقدم على الحوادث فهو أيضاً محدث ، وإذا أزمع على اعتقاد
الحدوث اعترضته عوارض أخرى ، وذلك أنه كان يرى أن معنى حدوثه بعد أن لم
يكن لا يفهم إلا على معنى أن الزمان تقدم ، والزمان من جملة العالم ، وغير منفك
عنه ، فإذا لا يفهم تأخر العالم عن الزمان) (١) .

و (إذا كان - أى العالم - حادثاً ، فلا بد له من مُحْدِث ، وهذا المحدث الذى
أحدثه ، لم أحدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك ؟ الطارئ طراً عليه ولا شىء هناك غيره

(١) المصدر السابق - ص ٥٢ .

أم لتغير حدث في ذاته ؟ فإن كان ، فما الذي أحدث ذلك التغير ؟^(١) .
(والعالم المحسوس وإن كان تابعاً للعالم الإلهي ، شبه الظل له ، والعالم الإلهي مستغن عنه وبريء منه) فإنه مع ذلك (قد يستحيل فرض عدمه ، إذ هو - لامحالة - تابع للعالم الإلهي وإنما فسادُه أن يبدل ، لأنَّ يعدم بالجملة .. وبذلك نطق الكتاب العزيز حيثما وقع هذا المعنى في تغير الجبال وتصييرها كالعهن ، والناس كالفراش ، وتكوير الشمس والقمر ، وتفجير البحار ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات)^(٢) .

النصان الأولان أجراهما ابن طفيل في صورة خواطر كانت تخالج (ابن يقظان) ، فلايكاد يجد ما يهدد بلبله ، ومع هذا فقد أجاب الغزالي - فيما سبق - على مثل هذه التساؤلات .

أما النص الثالث فإنه يمثل مرحلة الاطمئنان ، إذ أدرك (ابن يقظان) بعقله مادل عليه الشرع مما يفيد أن الشرع يخاطب العقل كما يخاطب القلب ، وأن العقل (السلام) ينصر الشرع بدليل أن عقل (ابن يقظان) - حين نضج - (صار بحيث لا يقع بصره على شيء إلا ويرى فيه أثر الصانع ، فينتقل بفكره على الفور إلى الصانع ، ويترك المصنوع ، حتى اشتد شوقه إليه ، وانزعج قلبه كلية عن العالم المحسوس ، وتعلق بالعالم المعقول)^(٣) .

(وفي خلال مجاهداته هذه ، ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات إلا ذاته ، فإنها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الوجود الأول الحق الواجب الوجود ، فكان يسوؤه ذلك ، ويعلم أنه شوب في المشاهد المحضه ، وشركة في الملاحظة ، وما زال يطلب الفناء عن نفسه ، والإخلاص في مشاهدة الحق ،

(١) المصدر نفسه - ص ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه - ص ٨٢ .

(٣) المصدر نفسه - ص ٨٢ .

حتى تأتى له ذلك ، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما ، وجميع الصور الروحانية ، والقوى الجسمانية ، وجميع المواد المفارقة للمواد ، والتي هي الذوات العارفة بالموجود ، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات ، وتلاشى الكل واضمحل ، وصار هباءً منثوراً ، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود ، وهو يقول بقوله الذى ليس معنى زائداً على ذاته « لمن المُلْك اليوم ؟ لله الواحد القهار »^(١) .

أترى يبلغ الإيمان بالمرء فوق هذه الدرجة التى وصل إليها ابن يقظان أو ابن طفيل ؟ .

لقد تدرج ابن طفيل بصاحبه في مراحل عقلية مختلفة ، تدرجاً منطقياً سليماً فوصل إلى أعلى درجة يصل إليها المؤمن عن طريق الشرع .. ولكن الدكتور يرى (أن ابن طفيل قد توصل من خلال آرائه حول العالم الإلهى الواحد إلى إزالة الهوة بين الإنسان والإله ، فالإله في الإنسان ، والإنسان في الإله) ص ٣٥٣ .

(إن هذا رأى حول الإله الذى ينتزع الإله الإسلامى الدينى من « علويته » ومفارقته يؤدى إلى التأكيد على عملية « أنستته » وتحويله باتجاه العالم) ص ٣٥٣ . وهذا دليل على عدم فهمه لنظرية (وحدة الوجود) ، أو على (تغاييه) ، حتى يشوش على الفكر الإسلامى ، رجاء أن يجد طريقاً إلى مَنْ فى قلوبهم زيغ ، لأن الحقيقة - كما سبق تناولها - تقوم على أن الإحساس (بالقرب) ينفي وجود أى كائن فى حضرة الإله ، كما يخفى ضوء الذبالة فى أشعة الشمس ، ومن ثم يتمثل (الإله فى الإنسان) بالخلق والرعاية ، ويتمثل (الإنسان فى الإله) بالفناء ، أو كما يقول الدكتور إبراهيم مذكور ، (ليس ثمة إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة ، بل هو

(١) المصدر نفسه - ص ١١٢ .

الوجود كله ، والكائنات الأخرى ليست موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز^(١) .

١٥ - ابن رشد .. (١١٢٦ - ١١٩٨ م) ..

تلاشى الثنائية بين العالم والآله ..

(كانت الذهنية - الأيديولوجية - الإقطاعية هي السائدة آن ذاك ، على مستوى الحياة العامة الواسعة) . ص ٣٥٦ .

ومع ذلك ، فقد أنجبت (المفكر المسلم الذى كان أقرب فلاسفة العرب إلى روح التعاليم الدينية الحنيفة)^(١) .. أنجبت (ابن رشد ، بفكره العلمى الوثاب ، يحابه وهم المعرفة كذاكر ، بنظرية مادية حسية علمية مقنعة ، تعمقها رؤية جدلية أولية .. إنه إذا توصل كيف حصول المعقولات لنا وبخاصة المعقولات التى تلتئم معها المقدمات التجريبية ، ظهر أنا مضطرون فى حصولها لنا أن نحس أولاً ، ثم نتخيل ، وحينئذ يمكننا أخذ الكلى ، ولذلك من خائنه حاسة من الحواس فاته معقول ما ، فإن الأكمة ليس يدرك معقول اللون أبداً .. وليس هذا فقط بل يحتاج إلى قوة حفظ وتكرر ذلك الإحساس مرة بعد مرة ، حتى ينقدح لنا الكلى ، ولهذا صارت هذه المعقولات إنما تحصل لنا فى زمان .. وبالجملة فيظهر أن وجود هذه المعقولات تابع للتغير الموجود فى الحس والتخيل اتباعاً ذاتياً ، وإلا أمكن أن نعقل أشياء كثيرة من غير أن نحسها ، فكان يكون التعلم تذكراً كما يقول أفلاطون) ص ٣٦٠ وبهذا يكون قد أقصى (المتاهات الذاتية والميتافيزيقية من نطاق عملية تكون وتطور المعرفة) ص ٣٦٢ وبهذا أيضاً يكون تقديرنا لآرائه والالتزام بنصوصها دون أن نعلم إلى تحريفها وتزييفها .

(١) الفلسفة - منهج وتطبيق - الحلبي ١٩٤٧ - ص ٦٤ .

(٢) فى النفس والعقل للدكتور محمود قاسم - ص ٢٤١ .

وعليها أن نعرف أنه (كان من عادة فيلسوف قرطبة أن يعرض حجة خصومه أحسن عرض ، وأن يؤيدها بكل الحجج الممكنة ، حتى ليخيل للمرء أنه صاحبها ، فإذا فرغ من عرضها بأمانة شرع يناقشها وينقدها ثم يدل برأيه آخر الأمر)^(١) . وهذا ما جعل بعض المستشرقين والآخذين عنه يخلطون بين ماله ومال غيره ، حتى اتهموه بالإلحاد .

ولذا كان منهج الدكتور إنطاق المفكرين بما يخدم هدفه المادى ، فإن مجال (الخلط) واسع في كتابات ابن رشد ، مادام لا (يصح) التمييز بين ماله ومال غيره ، ومادام الدكتور لا يقدم نصوصاً وافية ، بل جملاً مبتسرة ، يطوعها لما يريد . ومع هذا ، فإننا سائرون معه بقية الشوط لنرى من أمره .

يقول : (إنه في مناقشاته ومماحكاته مع الأشاعرة ، ومنهم الغزالي بشكل خاص ، ومع أفلاطون الفيلسوف المثالي - يكافح على الطالع والنازل ، وبحماسة عميقة من أجل برهان دقيق ومقنع لمسألة سرمدية وأبدية العالم المادى) ص ٣٦٤ .
فن أين له أن ابن رشد يرى (سرمدية وأبدية العالم المادى)؟؟

يستدل بقوله : (إنه من العبث ومن قبيل عدم الدقة أن نقول بأن الزمان سيقودنا لأن نفترض وجود أزمان كثيرة بشكل لانهاى قبل الزمان ذاك) ص ٣٦٥ ، لأنه لازمان بلا حركة ، ولاحركة بلا جسم ، وهذا يتمثل في قوله (ليس يتمتع بوجود الزمان إلا مع الموجودات التى لاتقبل الحركة ، وأما وجود الموجودات المتحركة أو تقرير وجودها فيلحقها الزمان ضرورة) . ص ٣٦٦ .

كلام منطقي سليم لا يختلف فى شىء عما جاء فى كتابات المفكرين الإسلاميين من قبله ، لكن الدكتور يرى (أن رفض ابن رشد الأخذ بفكرة تخلف أو «تراخى فعل المفعول عن فعل الفاعل له وعزمه على الفعل» يبرز رفضه المبدئى لمسألة الخلق من

(١) المصدر السابق - ص ١٦٨

عدم مطلق ، أو محض ، كما يسميه ابن رشد (ص ٣٦٨ .

والعبارة التي أوردها عن ابن رشد تحدث عن حقيقة (بديهية) ، فالمفعول يقع بعد عزم الفاعل على الفعل دون شك ، لكن الدكتور يمهّد لعبارة تقول : (الفاعل يخصه أن فعله مساوق لوجود المفعول) فيعلق بأن (فعله ، وبالتالي مفعوله ، قديم) ص ٣٦٩ .

ولما كانت هذه العبارة (الموهمة) في كتابات ابن رشد قد تكون من مصادر أرسطو ، أو من فكر تطبيقي حياتي ، فقد علق عليها الدكتور سليمان دنيا ، محقق (تهافت التهافت) بأنه (إن يكن ذلك هو ما يريده ابن رشد فقد فاتته أن يلاحظ أن الإرادة القديمة الجازمة قد جعلت من نقطة معينة حدًّا فاصلاً بين العدم والوجود ، فإذا وصل العالم إلى هذه النقطة انتقل من العدم إلى الوجود بمقتضى الإرادة القديمة الجازمة (١) .

ومن ثم لا ينبغي أن نقيس على أفعالنا فعل الله سبحانه ، لكن الدكتور تيزيني يرى في (ملاحظة) المحقق دلالة على (حقد ابن رشد منطلقاً من رؤاه الغيبية) ص ٣٦٨ وكأننا نخوض معتركاً ، ولانقوم بدراسة تتوخى الحقيقة .
ومن طبيعة (الصراع الأحمر) الإلحاح على ما يهدفون إليه وإن التوت أقدامهم .

يقول : (والآن إذا كانت « الحركة فعل الفاعل » كما يعتقد الفلاسفة - هكذا يقول ابن رشد - فإن العالم لا يتم وجوده إلا بالحركة » عن هذا ينتج أن الفاعل للحركة هو الفاعل للعالم » بيد أن ابن رشد يرفض بشكل مبدئي وحازم الأخذ بمصادرة « الخلق من عدم » ، فكلاهما : الإله والعالم المادى خالدان في وجودهما ، من حيث إنهما متوازيان في الوجود ، ذلك بالرغم من أنهما ذاتياً غير

(١) تهافت التهافت - ص ٦٣ .

متساويين ، فمن حيث الذات يفضل الفاعل مفعوله (ص ٣٦٩ .

ولقد سبق لابن رشد أن تحدث عن (المحرك الأول) بأنه (ليس من طبيعته الحركة ، وأنه أزل ، وليس يتصف بالزمان) ص ٣٧٠ إذن ، فعلاقة العالم به (سبحانه) لا ينبغي أن تفهم زمانياً ، (لكن ليس يفهم تأخر العالم عنه ، إذا لم يكن تقدمه زمانياً . إلا تأخر المعلول عن العلة . لأن التأخر يقابل التقدم .. فإذا كان التقدم ليس زمانياً . فالتأخر ليس زمانياً) ص ٣٧٠ وبما أن الزمان رهن بالحركة ، والحركة رهن بالجسم ، والله سبحانه (عقل كلي) ، متزه من الجسم إذن فالله متزه عن الزمان ، والمعروف أنه (بين العالم المادى والآله تمايزات بارزة مثل كون الآله لا متغيراً وموجوداً خارج الزمان بينما العالم المادى متغير وموجود ضمن أطر حركية وزمانية) ص ٣٧٤ فكيف يفترى الكاتب على ابن رشد أنه (يميل إلى ترجيح القول : الفاعل موجود فى العالم المادى ، وليس هذا الأخير فى الفاعل) ص ٣٧٤ إلا على تقدير وجود الفاعل بفعله ورعايته .

وإذا كان (مذهب أهل الاختراع والإبداع ، أن الفاعل هو الذى يبدع الموجود بحملته ، ويخترعه اختراعاً . وأنه ليس من شرط فعله وجود مادة فيما يفعل بل هو المخترع للكل . وهذا هو رأى المشهور عند المتكلمين من أهل ملتنا ومن أهل ملة النصرى) يقصد يحيى النحوى النصرانى . ص ٣٧٦ فمن أين جاء قدم العالم ؟ أمن كون الفاعل (ليس هو جامع - كذا - بين شيئين بالحقيقة . وإنما هو مخرج مابالقول إلى الفعل ؟) ص ٣٧٧ أى من الإمكان إلى التحقيق ، أم لأنه (لا يمكن أن يكون شيئاً ممكنًا لا يخرج إلى الفعل أبداً) ص ٣٧٧ بمعنى أن ماأراده الله فهو (ممكن) . وإذا أراد الله شيئاً (خرج إلى الفعل) ضرورة ، ومن هنا فإن (المادة) لا يمكن إلا أن تتضمن بالضرورة هذه الصفة الوجودية . (فى ذاتها) كما يدعى الدكتور ص ٣٧٧ ، بل بسبب آخر خارج عنه ، لأن (كل شيء يكون ، فإنما هو من شيء وبشيء) ص ٣٨٩ .

هكذا تتحدث النصوص التي أرودها السيد الدكتور ، نقلا عن (تهافت التهافت) ، أما قول ابن رشد (الطبيعة - طبع الشيء - محرك للشيء نفسه ، أى موجود بذاته لا بالعرض) ص ٣٨٠ فهو خاص بما طبعه الله فى الشيء ، أى على وفق السنن الكونية التى أجزاها الله سبحانه ، وهذا مايتفق مع النصوص السابقة ، إذ إن النصوص تفهم فى سياق الخط الفكرى للمؤلف ، وبخاصة إذا كانت نصوصاً (ممزقة) ، ومن ثم من البغى أن يقول الدكتور (على هذا النحو .. يتلاشى التأثير الإلهى ، مباشراً كان أو غير مباشر ، على وجود شىء «العالم» أى على وجود الصورة والمادة المشكلة لهذا العالم) ، ص ٣٨٠ إلا إذا كان يعبر عن معتقده بعيداً كل البعد عن الفيلسوف الإسلامى الكبير .

ولو أن الدكتور أراد عرض فكر ابن رشد حقاً لتناول كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة) ، أو كتابه (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ، أو تناول فكر ابن رشد بعامة ، وبخاصة فيما يتصل بالعقل والنفس ، وهو الجانب المقابل للطبيعة المادية ، ولكنه اقتصر على النصوص التى يمكن أن تمضى معه ، فخانه التوفيق .

١٦ - ابن خلدون .. (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) :

نشوء وتطور الفكر الاجتماعى المادى ..

(إن المفكرين العرب الإسلاميين وغيرهم ، وقبل ابن خلدون ، والمفكرين العرب الإسلاميين ، خلال عهد الانحطاط ، والمفكرين العرب فى عهد البدايات البورجوازية المبكرة الحديثة تلك ، والمتواطئة مع الإقطاع - كانوا بشكل عام عاجزين عن سير غور الظاهرة الاجتماعية والتاريخية سبراً عميقاً جوهرياً) ص ٢٩٠ .
هكذا يبدأ بإدانة كاملة لكل المفكرين العرب الإسلاميين - على مدى التاريخ الإسلامى - بسبب مخالفتهم النهج المادى ، مما يفيد إفلاس المادية ، وتفردها

بالضياع في معترك النشاط الثقافي ، والإنسانية بعامه .
وعنى التعصب للمعتقد الضال يصيب صاحبه بالتوتر والشراسة والاحتقان ،
ومن ثم لا يجد راحته إلا في الدم والهدم والتشكيل ..
وعنى التعصب للمعتقد الضال يدفع بصاحبه إلى السرايب والرطوبة
والعفن ، ويُصمّ صاحبه عن كل رأى ، فلا يسمع إلا نفسه .
ولهذا نجد الدكتور يدور حول نفسه ، حتى يصيبه الدوار ، فلا يجد نفسه .
يقول : (فأفلاطون والغزالي والقديس توما الإكويني إلخ .. انطلقوا في فهمهم
للمجتمع ، ليس منه نفسه ، وإنما من قوى غريبة عنه ، وخارقة ، فابتعدوا
بذلك عن الحركة التاريخية الحقيقية) ص ٣٩٤ أما ابن خلدون فإنه (ينطلق من أن
« كل حادث من الحوادث ، ذاتاً كان أو فعلاً ، لا بد له من طبيعة تخصه في
ذاته ، وفيما يعرض من أحواله ») ص ٣٩٤ .
وقول ابن خلدون لا يعنى أكثر من الاستعداد ، والتهيئة (الفطرية) للحدث
لاما يتصور في الوهم .
وطريقة تناول الدكتور لابن خلدون ، تفيد أنه كان يظن أنه سيقع منه على
صيد سمين ، فإذا لحم الكاتب الاجتماعي الكبير لايسهل مضغه ، ومن هنا كان
التخبط فيما عرض له الدكتور .
يقول : (في الوقت الذي أكد فيه على أن الفلاسفة يجب أن يبحثوا الأشياء في
أسبابها ومسبباتها .. فإنه - أى ابن خلدون - بقى مثالاً في نظريته للعالم ككل ،
فهذا الأخير ، - حسب رأى ابن خلدون - نتاج لخلق إلهي خارق
ومفارق) ص ٣٩٤ / ٣٩٥ .
فهل رأينا البحث في الأسباب والمسببات - على مدى تاريخ الفلسفة ، وثنية
ودينية - لا يصل إلى هذه النتيجة ؟
ويقول : (لقد رأى ابن خلدون في « أسلوب المعاش الإنساني ، أو أسلوب

الإنتاج المادى ، الحلقة الرئيسية فى حركة التاريخ والمجتمع ، والفارابى ساهم فى ذلك (ولاشك) ، إذ يقول : (إن أجزاء المدينة مفلطرون بالطبع بفطر متفاضلة ، يصلح بها إنسان لإنسان ، لشيء دون شيء ، غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التى لهم وحدها ، بل بالملكات الإرادية التى تحصل لها ، وهى الصناعات وماشاكلها) ص ٣٩٥ .

ومن قال إن حركة التاريخ والمجتمع لا يؤثر فيها أسلوب الإنتاج المادى ، إلى جانب مؤثرات كثيرة ، لعل أهمها القيادة ؟ .

وهل يظن عاقل أن الفطر ذات جدوى بدون ملكات إرادية ؟
أليست هذه الأفكار بدئية أولية ؟

ويقول : (إنه يرى - ولو بدون وضوح ووعى كاملين - أن التاريخ من صنع الناس الاجتماعيين العاملين) ص ٣٩٥ .

كيف حدث هذا « بدون وضوح ووعى » وهو الذى استطاع كشف الحتمية التاريخية ص ٣٩٥ و (تمكن من تقديم « مشروع » صياغة مناسكة لمفهوم الوجود الاجتماعى المادى) ص ٣٩٦ .

ألم يبعث مكسيم جوركى إلى المفكر الروسى ف . ا . أنوتشين بتاريخ ٢١ أيلول سنة ١٩١٢ م يقول : (.. إنك تنبئنا بأن ابن خلدون فى القرن الرابع عشر كان أول من أظهر دور العوامل الاقتصادية وعلاقات الإنتاج ، إن هذا النبأ قد أحدث وقع خبير مثير واهتم به صديق الطرفين - يقصد لينين - اهتماماً خاصاً) ؟ ص ٣٩٦ .
أليس ابن خلدون جديراً بجائزة لينين أو بنيشان النجم الأحمر ؟ .

١٧ - المقرئى .. (١٣٦٢ - ١٤٤٢ م) ..

خطوط أساسية فى سبيل الإحاطة بالمجتمع الإنسانى على نحو تاريخى علمى ..
(فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » يعمل المقرئى على تفسير الأحداث

الاجتماعية تفسيراً اجتماعياً اقتصادياً ، لقد قدم لنا صورة واضحة وشاملة عن اتجاهات التمزق الاجتماعى الاقتصادى فى وطنه مصر ، عن الهبوط الكبير فى حجوم الأرزاق فى الأسواق ، وبالتالي عن عملية الاحتكار التى قام بها الأثرياء ، من تجار ومرابين وأمراء ، وبالعلاقة مع هذه الصورة يعرض لنا المقرئ بشكل شيق ومثير ، النتائج الرهيبة والمرعبة لرفع الأسعار الخاصة بالحاجات الاستهلاكية الأولى (ص ٣٩٩ ..

(لقد أكد على تناقض أساسى فى المجتمع ذاك قطباه الرئيسيان ، تشكلها الجماهير الغفيرة المدومة الفلاحية والمدنية ، من طرف ، والتجار والمرابون وأصحاب الأقطان والقرى المدعومون من قِبل الأمراء الإقطاعيين ، من طرف آخر) ص ٤٠٠ .

لكن المقرئ (لم يستطع رؤية الواقع آن ذاك فى تحوله الجدلى الثورى ، فهو لم يتمكن من استشفاف آفاق المستقبل ، ذلك لأنه لم يقترب من مفهوم الثورة الاجتماعية) ص ٤٠٠ .

(لم يكن قادراً على الوصول إلى النتيجة : إزالة الملكية الفردية كحل جذرى للبؤس الاجتماعى) ص ٤٠٠ .

أترى ماذا كان يجب على المقرئ ؟ أن يتحول إلى لينين أو ماوتسى تونج ، لأنه عرف أن (السبب الأول ، وهو أصل الفساد ، ولاية الخطط السلطانية والمناسب الدينية بالرشوة كالوزراء والقضاة ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شىء منها إلا بالمال الجزيل ، فتخطى لأجل ذلك كل جاهر ومفسد وطاغ وباغ إلى مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة ، لتوصله بأحد حواشى السلطان) ٤٠١ .

ولعل كل الذين أرخوا للعصر العباسى بعد المتوكل ألحوا على هذا السبب ، وقصيصة ابن المعتز إلى المعتضد خير شاهد على هذا ، ويلاحظ أن المجتمعات

الشيوعية والاشتراكية هذه الأيام تضج بالرشوة .

(والسبب الثاني غلاء الأتيان ، وذلك أن قومًا ترقوا في خدم الأمراء يتزلفون إليهم بما حبوا من الأموال ، إلى أن استولوا على أحوالهم ، فأحبوا مزيد القرية منهم ولاوسيلة أقرب إليهم من المال ، فتعدوا إلى الأراضي الجارية في إقطاعات الأمراء ، وأحضروا مستأجرها من الفلاحين ، وزادوا في مقادير الأجر ، فثقلت لذلك متحصلات موالهم الأمراء .. وعظمت نكاية الولاة والعمال واشتدت وطأتهم على أهل الفلح ، وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها ، وكانت الغلة التي تحصل من ذلك عظيمة القدر ، زائدة الثمن على أرباب الزراعة لاسما في الأرض منذ كثرت هذه المظالم ، ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف ، الذين تزايدت رغبتهم استمر السعر مرتفعاً لا يكاد يرجى انخطاطه) ص ٤٠٢ .

ويعلق على هذا النص بأن فيه (إشارات عميقة على ارتباط السلطة السياسية بأرباب الحياة الاقتصادية الاجتماعية) ص ٤٠٢ . كأن هذا الارتباط مقصور على هذا الوضع ، مع أننا نجد في عهد الثورة الديمقراطية الاشتراكية - في كثير من البلدان يجرى توزيع الأراضي بين ذوي السلطان ، بقوانين تهيب وتمكن هؤلاء المستلقين .

(أما السبب الثالث فيسميه المقرئ « رواج الفلوس » .. فهو يرى أن النقود تمثل أثماً للمبيعات وقيماً للأعمال) ص ٤٠٢ .

وهل للنقود دور غير هذا منذ عرفها التاريخ ؟ .

(مع ذلك فلو وجد من أوتي توفيقاً ، وألهم رشداً ، لكان الحال غير ما عليه الآن ، بخلاف الحال في هذه المحن) ص ٤٠٣ .

إذن ، فالمقرئ يتنبه إلى دور القيادة السياسية التي لا تتحدث عنها الأقلام الحمر ، مع أنها سبب نكباتهم .

ويعلق على كل ما طرحه بقوله :

(إن المقریزی فی إثارته لمجموعة المشكلات تلك - قد وقف : ١ - ضد الجبرية الطبيعية ، بتأكيده على الجانب الاجتماعي الاقتصادي ، كعامل حاسم فی عملية التطور الاجتماعي الإنساني . ٢ - ضد الجبرية الغيبية الغائية التي تؤكد أن الأزمات الاجتماعية ماهی إلا تجسید لغضب قدرة غيبية ما) ص ٤٠٣ .

ثم یورد فی الهامش قولاً منسوباً إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم : (إن غلاء أسعاركم ورخصها بيد الله) .

ومع أن نسبة هذا الخبر إلى الرسول موضع شك ، فإن المقریزی كان یحدث عن (الغلاء فی الدولة الأيوبية وسلطان العادل أبي بكر بن أيوب فی سنة ستة وتسعين وخمسمائة ، وكان سببه توقف النيل عن الزيادة ، وقصوره عن العادة) ص ٤٠٠ .

أى أن ما حدث كان ثمرة (جبرية طبيعية وجبرية غيبية) معاً ، ومصادر الثروات الطبيعية تمثل دون شك جبرية طبيعية وغيبية ، كما أن الآفات الزراعية والكوارث الطبيعية فيضانات وزلازل وبراكين وعواصف تمثل جبرية غيبية وطبيعية لكل من يعی !

ولهذا (لم يتجاوز المقریزی فی نظرنه للطبيعة التصورات الغيبية الميتافيزيقية) ، لأنه كان واقعياً ، ومن التجاوز أن نصمه - فی مرحلته - بأنه (عمل على «فرملة» الطرح الفلسفی المادی لقضايا المجتمع ، فی حلقاتها البعيدة ، مثل الثورة ، والقدرة الخلاقة للإنسان فی تغيير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) ص ٤٠٤ .

حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث . .

كتاب واسع المجال ، يطرح فيه الدكتور طيب تيزيني مشكلات عديدة ، وبخاصة مشكلات العالم العربي ، سياسياً واقتصادياً ، مؤكداً أن الحلول مقصورة على الأخذ بالاشتراكية العلمية .

ولا يعنينا هنا إلا ما ورد عن التراث ، أو ما هو بسبيله ، وهو لا يكاد يمثل إلا جزءاً صغيراً من كتاب يتجاوز الأربعمئة صفحة من القطع الكبير^(١) . . وإن كان الكتاب - في جملته - يدور حول هذا الجزء ، فهو يرى : (أن عملية تسييس وثقيف الجماهير وتكوين ثقمتها بنفسها كقوة تاريخية محركة ، تعتبر أمراً في منتهى الأهمية والضرورة ، فهذه الجماهير المحرومة ، في حالات كثيرة ، من الحد الأدنى الضروري للمعاش المادى ، والخاضعة لتقلبات أمزجة الموظفين البيروقراطيين الكبار والصغار ، المتواطئين - بحدود مختلفة - مع السادة الإقطاعيين وأرباب العمل الرأسماليين . . يمكن أن تتحول فعلاً إلى قوة اجتماعية هائلة ، إذا انصهرت في بوتقة أيديولوجية وتنظيمية وسياسية واحدة متجانسة ، تتجه باتجاه الإطاحة بالسلطة السياسية والاقتصادية والأيدولوجية لأولئك الإقطاعيين والبورجوازيين الذين لا يحسون في الحقيقة بغلبيتهم وقوتهم إلا لأن تلك الجماهير بمنظمتها السياسية تعيش تمزقاً سياسياً وأيدولوجياً وتنظيمياً شاملاً وعميقاً) ص ٣٨ .

ومع ذلك ، وفي غياب وحدة التنظيم السياسى والأيدولوجى ، يمكن عمل

(١) ط ٣ - دار دمشق سنة ١٩٧٨ م .

ما يريد الساخطون . . يمكن تسيير التظاهرات ، وشلّ نشاط المؤسسات ، وإحداث التخريب والاعتقال ، والانقضاء على مراكز الأمن والإعلام ، ثم الوصول إلى دَسْت الحكم ، وإصدار تشريعات جديدة ، والظهور بأقنعة غير الأقنعة . . وتظل القاعدة الشعبية تعافى تحت وطأة طبقة النصف فى المائة ، تحت أى اسم من الأسماء ، فالذين (يصهرون) الجاهير ليغيروا سرعان ما يمثلون طبقة مستغلة ، ويصبح كل شىء (للحزب) ، موجهاً من الكرملين ، أو من قصر السلطان ، أو القيصر ، أو الإمبراطور .

هذه هى طبيعة السلطة غير الملتزمة بتعاليم روحية ، وبآداب أخلاقية ، فانتصار القوة لا يحول دون إرادة الطغيان ، والذين يبدعون من الصفر يستوهم جمع الأصفار ، ممثلة فى الآلاف والملايين ، لأن الإحساس بالحرمان لا يتحول إلى قناعة ورضاً ، مهما أوقى المحروم . . فالنفس الراغبة لا يكفها إلا الاطمئنان إلى أن المال (عارية مستردة) وأن المال لا يحقق إلا المطالب الدنيا ، وهى مطالب الجسد ، ومطالب الجسد لا تقف عند حد ، فإذا تسلطت هذه المطالب على الفكر ، وأصبحت (أيديولوجيا) ، تحولت إلى نهم ، إلى مزيد من الكسب ، ومزيد من إحساس بالحرمان ، وإن تضاعفت الملايين . . وتحت تأثير هذه (الحمى) ترتكب أشنع الجرائم ، قتلا ، ونهباً ، وانتهاكاً للأعراض ، ومتاجرة بكل القيم ، فى صورة (رأسمالية) ، أو فى صورة (اشتراكية) .

وفى كلا المجتمعين ، تضيق الكلمة الحرة ، تموت ، أو تنفق ، أو تحاصر ، أو تزيف ، لأن وسائل الإعلام فى يد السلطة الرأسمالية ، أو السلطة الاشتراكية ، تنطق بما تريد هذه أو تلك ، وتحرك الجاهير بحركتها ، وتدفعها إلى التسبيح بحمد جلادها ، فإذا نشأت جيوب هنا أو هناك ، ونجحت تحت ستار الظلام ، حتى كان التغيير ، لا نجد إلا شكلاً جديداً ، ووجهاً جديداً ، وتظل (الغابة) يأكل قورها ضعيفها ، ويمكر بعضها ببعض .

إن من الضروري أن تتحرر الكلمة ، حتى لا يصبح إلا الصحيح ، وحتى
تتكشف الحقائق أمام الجماهير ، فتعرف إلى واقعها ، وتشارك في تغيير هذا الواقع
من خلال الاختيار الحر ، والإرادة الحرة .

لكن (حرية) الكلمة أصبحت مفهوماً لزجاً مقززاً ، لأنها تحولت ، كما تحول
(البغاء) ، إلى معايير مصطنعة بأقلام القادرين على الكسب غير المشروع ،
أو بأقلام البيروقراطيين ، من المتسلقين ، أو المتخاذلين .

وأصبح مفهوم (الطبقة) لزجاً مقززاً كذلك ، لأن هذا العامل الذي بدأ
حماً كادحاً ، ثم صار يتاجر في المخدرات ، أوفى تهريب العملات ، أوفى
أعراض الموظفين والموظفات ، حتى امتلك الملايين ، وتحكم في إعاشة آلاف
العاملين ، وصارت له أبواق تردد شعارات الثورة والاشتراكية ، هل نعهده في طبقة
العمال ، أوفى طبقة الرأسماليين ، أو البورجوازيين ؟ .

وهذا المليونير ، أمثال هنري كوربيل ، الذي احتضن الحزب الشيوعي المصري
في الأربعينات ، أو هذا النبيل ، أمثال عباس حلمي ، الذي احتضن حزب
العمال ، هل نعهده هذا أو ذاك في طبقة الرأسماليين أو الاشتراكيين ؟ .

العبرة لا تترهن بالأسماء ، لأن الأسماء لا تترهن بالأعمال ، ولأن الأعمال
لا تترهن بالأخلاق . . والأخلاق النبيلة ثمرة روحانية ، وليست ثمرة مادية ، لأنها
تعتمد على العطاء ، لا على الأخذ ، على البذل والتضحية من أجل الآخرين ،
لا على النهب واستلاب الآخرين ، على الصبر والتسامح والمحبة ، لا على التردد
والنقمة والسفاح . .

لسنا في حاجة إلى مزيد من التشريعات ، فما أطول ساحة القوانين ، وما أكثر
موادها ، وما أشق التردد على قاعات المحاكم ، داخل قسم الشرطة ، فالنيابة
العامة ، فالقضاء الابتدائي ، فالاستئناف ، فالنقض ، والنيابة الإدارية ، ومحكمة

القيم ، والمدعى الاشتراكي ، مجاهل ذهب فيها حمار أم عمرو ، (فلا رجعت ولا رجح الحمار) .

نحن في حاجة إلى الالتزام بالصدق فقط ، صدق الكلمة وصدق العمل ، ولا يحكم الصدق إلا الضمير ، ذلك المعقب من بين يدي المرء ومن خلفه ، ولا سبيل إلى الضمير إلا بترية روحية ، قوامها الحق والخير والجمال ، الحق فلا تجاوز ، والخير فلا أنانية ، والجمال يوفر الحب والنقاء والسلام .

ولا يتحقق هذا بالشعار الذي أعلنه برتولد بريخت : ص ٢١

إن شرخاً يقسم العالم

وهو سيبقى قائماً بيننا

لأن المطر يسقط من فوق إلى أسفل .

لأنه شعار يعتمد على الاستهواء ، مع ظهور بطلانه . .

إن سقوط المطر من فوق أمر طبيعي ، وهو لا يؤدي إلى خلخلة اقتصادية ، إذا أحسن الانتفاع به ، عن طريق إقامة السدود ، وعن طريق الآبار ، ومع التقدم العلمي بإمكان تسيير السحب وإسقاطها .

وإذا كان المطر هو الخير الإقطاعي الرأسمالي ، ومن ثم يحدث (شرخاً يقسم العالم) ، فهو تصور خاطئ ، لأن المطر عطاء بلا من ولا أذى ، وهو عطاء عام ، لا يختص طبقة دون طبقة ، ثم إنه قليل الضرر ، كثير الفائدة ، وكثيراً ما يأتي وقد أجذبت الأرض فيكون مضاعف الفائدة .

لكنه المنطق الثوري الذي يؤلف عبارات مشبوهة ، ويروج لها ، ويحملها ما يشاء من مضامين . . وهو منطق الشاعر والمؤلف معاً ، إذ يصدران من منطق واحد ، ويريان - كما يخيل لي ، ووفقاً لهذا الاتجاه الإلحادي - أن المطر الذي يسقط من فوق إلى أسفل يمثل (الغيبة السلفية) المسيطرة ، التي تشد القلوب والعقول والعيون في انتظار ما تجود به ، ومن ثم فهي تدفع إلى الاتكالية والسلبية

والرّضا بما قسم ، وكل هذا في نظر (العلمانيين) عوامل تخلف ، تحول دون الحلول الجذرية للمشكلات التي تراكمت وتقدمت ، وزكمت الأنوف ، وأرغمت العيون ، وأغلقت منافذ الضوء .

ولاشك في أن جمود المؤسسات الدينية الحالية ، فكراً وعملاً ، ساعد الحاقدين والساخطين على رفع هذه الشعارات ، في وجه كل دعوة وداعية إلى الخير وهي شعارات تقوم على إشاعة الفساد ، وتخريب الذمم ، وهدم الجسور ، وطمس الحقائق .

ومن وسائلهم إلى ذلك عامل التزييف ، والمناداة بشعارات الآخرين . . فإذا كان (السلفيون) - وهم القاعدة الجاهلية العريضة - ينادون بالعودة إلى التراث ، والحرص على إنجازاته ، سبيلاً إلى البناء والتقدم ، على منهج (بداية التجديد قتل القديم بحثاً) - فإن دعاة المادية التاريخية ، والفكر الاشتراكي العلمي يرون :

التراث :

(من الضروري أن تؤكد على أن مثقفها - الدول النامية - لا يمكنهم أن يسهموا في الإجابة النظرية العلمية عن مشكلات بلدانهم الراهنة والمتوقعة ، إسهاماً جديلاً خلافاً ، بمعزل عن تناولهم لتراثهم الفكري والحضاري العام ، واكتشاف حلقات الوحدة والتجانس بين الجوانب الإيجابية التقدمية من هذا التراث من جهة ، وبين الفكر الاشتراكي العلمي من جهة أخرى ، هذا الفكر الذي يحاولون على أساسه صياغة الحلول الفعلية الثورية لمشكلات بلدانهم ، صياغة تعتمد التحليل الموضوعي الدقيق الشامل والمجانب لكل أشكال التبّلد الأيديولوجي والنقل الجمودي الحرفي) ص ٤٣ .

وهي دعوة ظاهرها الأخذ بالمنجزات التي حققها الدعوة الإسلامية ، على كافة

المستويات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية ، وباطنها إبراز السلبات ونقاط الضعف ، خلال المسيرة الإسلامية ، وبخاصة في ميدان السياسة والاقتصاد ، ولهذا نجد التركيز على الإسراف والبدخ في دولتي الأمويين والعباسيين ، وعلى الخلافات السياسية في خلافتي عثمان وعلى ، وعلى حركات الخوارج والشيعة والصعاليك ، وتقديم الرسائل إلى (جامعة لومومبا) في البابكية والخرمية وحركة الزنج والقرامطة ، وتكييف هذا كله من وجهة نظر ماركسية . ويتناولون على الكتاب والسنة آخذين (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ، سالكين مسلك التأويل والمعنى (الباطن) ، ومحملين أفكار المعتزلة والصوفية ما ليس للمعتزلة والصوفية في حساب ، ومن المعروف أن لكل من المعتزلة والصوفية شطحات ، فكان للماركسيين من وراء هذه الشطحات شطحات ، حتى ينفذوا إلى قلوب العامة وأنصاف المثقفين بالزنج ، وإلى عقولهم بالضلال ، وحين ينتشر الفساد يسهل القياد .

إنهم لا يدرسون التراث إلا من واقع النيل منه ، والتشهير به ، لأنهم يرفضون كل ما عدا الخط الماركسي الذي يدينون له ، ويدنونه به .

يرفضون (أن يبحث سكان ومفكرو بلدان تلك المجتمعات - النامية - عن نظرة جديدة لا هي اشتراكية ولا هي رأسمالية ، وعن طريق في التقدم ، لا هو اشتراكي ولا هو رأسمالي) ص ٤٣ لأن هذا (يعني ، أولا وقبل كل شيء ، إبعاد شعوب هذه المجتمعات عن الطريق الصحيح الممكن ، الطريق الاشتراكي ، خلال مشكلاتهم الاجتماعية القومية) ص ٤٤ .

مع أن الاشتراكية العلمية لا تؤمن بالقوميات ، لأنها تدعو إلى الأمية أو الدولة العالمية ، وقد قضت أو حاولت القضاء على القوميات ، في إطار الاتحاد السوفيتي ، لكنها دعوة مرحلية في الأرض العربية ، سرعان ما تأخذ طريقها إلى المسخ والقضاء على دعاة القومية ، كما هو حادث في اليمن الجنوبي .

وهم يرون (أنه لا توجد اشتراكية غنية أو تنزانية أو عربية ، بل هناك طرق غنية وتنزانية ، وعربية ، إلى الاشتراكية ، وأن هذه الطرق ليست سوى تشعبات تنطلق من الاشتراكية العلمية) ص ٤٤ .

ومع أن هناك صراعات حادة - على مستوى الحزب - بين الماوية واللينينية ، وعلى مستوى الوطن ، بين روسيا ويوغسلافيا ورومانيا وإيطاليا ، وبين الصين وفيتنام وكمبوشيا ، بل وداخل الوطن الواحد ، كما هو الحال في الصين وكمبوديا وأفغانستان واليمن الجنوبي .

وذلك لأن الاشتراكية ليست إلا دعوى سياسية اتخذت من المذهب الاقتصادي وسيلة إلى السلطة فلما دان الأمر للينين أكلوا التروتسكيين ، وجاء ستالين فقصى على عشرة ملايين من مائة وعشرين ، وجاء خروشوف فحارب الستالينية ، وجاء بريجنيف فحارب الخروشوفية ، وهكذا (كلما جاءت أمة لعنت أختها) ، لأن الهدف هو تسليط الأضواء على عصاة النصف في المائة ، تحت أي شعار من الشعارات .

فإذا قيل : (إن إقامة تحالف طبق عالمي مع بلدان النظام الاشتراكي أصبح له في واقع تلك البلدان أكثر من مبرر) ص ٤٥ أدركنا أهمية البلاد النامية المتخلفة للبلدان الاشتراكية المتقدمة لأن روسيا - حسب الإحصاءات العالمية - أكبر مورد للسلاح ، فهي تحل مشكلات الدول التي تدور في فلكها ، أو التي تمد يدها إليها عن طريق السلاح في مقابل ما تملكه الدول الفقيرة من منتجات أولية. وهي - في الدرجة الأولى - زراعية ، بمعنى أنها تستولى على اللقمة من أفواه الجوع ، وتعطيهم أسلحة غير متطورة ، لتحارب هذه الدول بعضها بعضا ، حتى تزداد حاجتها إلى السلاح ، أوليقتل أبناء الدولة الواحدة بعضهم بعضاً ، كما هو حادث بين اليمن الشمالي والجنوبي ، وبين إثيوبيا وأرتريا والصومال ، وكما هو حادث في أفغانستان وكمبوديا ، وأوغنده وأنجولا والصحراء المغربية .

ولا غرو أنه ما من بلد في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أخذ بالحل الاشتراكي إلا وعانى معاناة اقتصادية ، لا سبيل إلى تجاوزها في الواقع القريب . ومع هذا فإن العمل الماركسي لا يفتأ يهيم بأن (عقد أوثق الصلات بين تلك المجتمعات وبلدان المنظومة الاشتراكية شرط مكمل لعملية التحرر القومي والتقدم الاجتماعي فيها) ص ٤٦ .

(وبالطبع ، فإن التبادل العلمي الحضاري بيننا وبين البلدان الاشتراكية والصديقة سوف يَحْتَرِلُ الكثير من الجهود أمام إنسانتنا العري الجديد في عملية استيعاب لقضايا التقدم ، نظرياً وعملياً) ص ٧٩ .

مع أن الواقع المرير يقول بأن الذين يدرسون في (جامعة لومومبا) وغيرها من الجامعات الاشتراكية لا يتلقون المعرفة ، على وفق المناهج الأوربية ، ولكن على أساس ما هو مرسوم لهذه البلاد النامية ، وفي إطار أن تظل تدور ولا تكف عن الدوران في هذا الفلك (الاستعماري) الجديد .

لقد التقيت في جامعتي بغداد وعدن بكثير من المتخرجين في المعاهد الاشتراكية ، وسمعت منهم ومن زملائهم عنهم مما يذكر المثل العري (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) .

ولاشك أن في بعض الجامعات الأوربية والأمريكية تزييفاً لشهادات أبناء البلاد النامية ، لكننا لسنا في معرض الاختيار بين الوجه الأحمر والوجه الأزرق ، لأننا نريد أن نصدق مع أنفسنا ، فلا نلبس أقنعة الآخرين ونضيع في مواكب الكرنفالات ، بعقول خاوية ، ويطون ضاوية .

إننا في حاجة إلى الأخذ بمنهج البحث العلمي : ملاحظة واستقراء وتركيبا وفرضاً وتحققاً ، واقتراح حلول ، و (أن يكون الباحث قادراً على اقتحام حقول بحث جديدة ، والتوغل فيها ، دون أن يتقيد ببعض النصوص المنهجية تقيداً حرفياً ، يسبغ عليها طابع القداسة والأسطورية) ص ١٠٩ .

أجل ، دون قداسة وأسطورية ، فالدين لا يلقى أدنى ظلال على مناهج البحث ، وترك الحرية الكاملة للدارسين ، كما سبق أن تناولنا ذلك مفصلاً ^(١) وإذا كان من أنبياء الله صانع السفينة ، وصانع الدروع السابغات ، ومسير الرياح ، ومبرئ الأكمه والأبرص ، ومحيي الموتى ، بإذن الله ، وإذا كان الله يأمرنا ، والأمر يحمل طابع الإلزام : انظروا في أنفسكم ، انظروا في ملكوت السموات والأرض ، وسخر لنا الأرض والجبال والشمس والقمر والنجوم والرياح ، فنبدع - فيما سخر - ما شاء لنا وأمكن ، ولا يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون ، ومن ثم كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، من المهد إلى اللحد ، دون حدود ، ولو كان في أقصى الأرض ، ودون قيود على من جاء به ، ولو كان كافراً . بهذه الحرية المطلقة ، فتح الدين أمامنا كل الآفاق ، لناكل من طيبات الرزق ، ونأخذ زيتنا عند كل مسجد ، ونعمل للدنيا كأننا نعيش أبداً ، ونعدّ لأعدائنا ما استطعنا من قوة .

ومن ثم تهاوى الدعاوى الباطلة التي تقول : إن (المادية تنظر إلى العالم كما هو ، دون أية إضافة غريبة ، وهذا يكون طبعاً خطوة أساسية وضرورية على طريق معرفة هذا العالم ، والمثالية تحاول إعطاءنا صورة ما عن العالم المادى ، ولكن صورة مشوهة ، فهي لا تنظر إليه كما هو ، وإنما انطلاقاً من «إضافة غريبة» عنه) ص ١٢٣ / ١٢٤ .

فإذا كانت (الإضافة الغريبة) أن الكون من خلق الله ، وأن كل شيء مقدر في علم الله وإرادته ، فإن هذه (الإضافة الغريبة) لا تشوه صورة الكون ، ولا تحول دون العالم (المتكبر) وعلمه ، كما لا تحول دون العالم (المؤمن) وعلمه ، بل إنها تقدم للعالم (المؤمن) القدرة النفسية على الإخلاص لعمله الذى هو هبة من

(١) انظر ص ٧٢ وما بعدها .

الله ، والذي هو سبيل إلى معرفة الله ، والتاريخ يؤكد أن نسبة العلماء الملحدين إلى العلماء المؤمنين لا يكاد يتجاوز النصف في المائة . نفس نسبة الذين يعيشون الفساد في الأرض ، إلى جانب الحيرين الحريصين على سلامة المجتمع ، وإن كان أثر النصف في المائة أوضح ، لأنه أكثر إلحاحاً ، وأكثر ترويحاً ، وقبح الشر والخوف منه يزيد من انتشاره ، أو من انتشار الحديث عنه . . ولو أننا لجأنا إلى الوسائل البدائية لحصر المفسدين في الأرض لما تجاوزوا الواحد في الألف ، مع تنوع مظاهر الفساد ، ومع ذلك نقول : (ظهر الفساد في البر والبحر) بسبب أثره البالغ على المجتمع ، ويسبب الخوف على الأموال والأنفس والثروات .

ومن أثر الفساد وخطورته ظاهرة التعميم التي تصاحبه ، كأن نقول : (بأن المادية تشكل فلسفة الطبقات الاجتماعية التقدمية في التاريخ ، بينما المثالية لعبت دور فلسفة الطبقات الرجعية في التاريخ . . وأن فلسفة ما ، حيناً تتحول إلى سلاح فكري في أيدي طبقة اجتماعية مناهة ، تفقد قيمتها المعرفية . . وأن المثالية تمارس وظيفة أيديولوجية تقتضيها الرؤية الفكرية الأيديولوجية العامة للطبقات الطامعة إلى كبح التقدم الإنساني) ص ١٢٤ / ١٢٥ .

على حين نجد (المثالية) - في صورتها السامية - ممثلة في الديانات السماوية التي عملت وتعمل من أجل رفع المعاناة عن المظلومين والمستذلين ، والتاريخ يشهد بأن أكثر التابعين الأولين لأصحاب الرسالات كانوا من المقهورين المستعبدين في الأرض ، وهم الذين ضحوا ويضحون في سبيل إقامة الدعوة السماوية واستمرارها .

ولو أن الديانة السماوية ظلت (سلاحاً فكرياً في أيدي طبقة اجتماعية) ما كان للطبقة أن تنهار ، وما كان للديانة أن (تفقد قيمتها المعرفية) .

وإذا كان (التاريخ المادي) يحدث بالمنجزات الحضارية الباهرة التي نهضت بها أمة عربية طال حصارها في الصحراء ولم تنفتح أمامها الآفاق إلا بالدين ،

فحققت أبلغ تقدم علمى وصناعى وزراعى ، شقت الطرق والقنوات ، وأقامت السدود ، وشيدت المدن ، وبنت المدارس ودور الكتب والبيمارستانات ، ورفعت القصور ودور العبادة ، وأنشأت البساتين ، وأزهرت الآداب والفنون ، وأقامت الترسانات المسلحة براً وبحراً ، وسيّرت جيوش الأمن والأمان ، باسم ربّها ، إلى أقصى مدى ، بين بحر الصين وبحر الظلمات - فأى (كبح للتقدم الإنسانى) كما يزعم هذا الواهم بكذبه ، حتى يجد من يصدقه ؟ .

يقول (لقد عبر ماركس عن فلسفته هذه بأنها « رأس » الطبقة الكادحة ، كما أن الطبقة الكادحة قلب الفلسفة ، وتحقيق الفلسفة يعنى انتصار هذه الطبقة . . . فهم لم تتوقع فى برج عاجى ، بل طرحت نفسها على أنها أداة فعّالة فى عملية تحويل المجتمع الإنسانى تحويلاً علمياً ثورياً) ص ١٣٤ .

ولو أننا صدقنا هذا القول ، الذى يكذبه التاريخ المادى ، كما سجله بسترناك فى (دكتور جيفاجو) وألكس تولستوى فى (درب الآلام) - لكان لنا أن نقول : إن هذا الوصف ينطبق على كل الديانات كما ينطبق على الغاية والسان سيمونية والناصرية ومبادئ حزب البعث إلى آخر هذه المحاولات الدينيّة لعلاج المشكلات الإنسانية، لكن العبرة ليست بالمناهج التى ترسم، بل بالمدى الذى تصل إليه فى تحقيقها .

ولو أننا أخذنا بشهادة بسترناك وتولستوى وهى شهادة وثائقية ، من معاصرين مؤيدين للثورة الاشتراكية ، مراقبين من قبل عيون ستالين .. لحق لنا أن ننكر على الاشتراكية أن تكون ذات صلة برأس الطبقة الكادحة أو بقلبها ، فقد مدت الثورة يدها إلى كل العصابات والخارجين على القانون ، واستخدمت كل وسائل الغدر والخيانة والتخريب والإبادة ، من أجل أن تنتصر ، وجبن انتصرت تختلف مؤيدوها وتصارعوا ، وراح ضحية الصراع ملايين الأبرياء ، بالإضافة إلى عشرين مليوناً ضحت بهم الثورة على مذهبها ، إبّان الحرب الأهلية ، ولا تزال الثورة - بعد

خمسة وستين عاماً من انتصارها - تحكم البلاد حكماً إرهابياً ، ولا تزال غير قادرة على توفير لقمة الخبز ، من خلال الطواير ، إلا عن طريق بيع أسلحة الدمار لشعوب العالم الثالث من أجل الاستيلاء على مقدرات حياتها ، فأى رأس وأى قلب ينهض بكل هذه المخازى ؟ .

إن بريجنيف لم يصل إلى الحكم إلا من خلال الإستيلاء على ثروات أذربيجان (الأرض البكر) ، كما يقول ، ومن خلال سلب هذا المجتمع الإسلامى كل مقومات حياته الروحية والمادية ، فهل هذا هو فعل (النخبة) العصابية ، أو فعل (الطبقة الكادحة) ؟ هل هذا ثمرة النزول من (البرج العاجى) أو ثمرة العيش فى الكهوف (والأوكار) ؟ .

ومع ذلك يزعم الأستاذ الجامعى أن (الفلسفة المادية الجدلية) كانت (كنتيجة لتراث الإنسانية التقدمى كله ، وكنتيجة تمثلها لهذا التراث بشكل عميق) ص ١٣٦ .

إنه يزعم أن (الفلسفة المثالية الموضوعية مثلها مثل التصورات الغيبية الأسطورية ، ترفض القول بأن عالمنا يمكن تغييره لصالح الإنسان الكادح ، كذلك الفلسفة « المثالية الذاتية » تسخر من الناس الكادحين ، الطامحين إلى تحطيم بؤسهم الاجتماعى والقومى ، فهى ترى أن ليس لهذا البؤس من وجود حقيقى ، إنما الحقيقى هو « الأنا » أو الذات (ص ١٣٨ .

فمن أين جاء بهذه الأحكام ، مع أن قوام « المثالية » ، موضوعية وذاتية ، هو الإيثار ونكران الذات ؟ .

إن المثالية تقوم - فى أساسها - على الارتباط بالخالق الذى (ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ، وأن (المال مال الله) ، ولا مبرر لأن نبخل على المحتاجين بمال الله الذى آتانا ، ومن الواجب أن يكون فى هذا المال (حق معلوم ، للسائل والمحروم) دون من أو أذى ، فلا قيمة لصلاة (من يراءون ويمنعون الماعون) إن الذى (يدع

اليتيم (ولا يحض على طعام المسكين) إنما يكذب بالدين ، لأن الصدقات فريضة من الله (للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله ، وابن السبيل) .

تشريع كامل ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (تنزيل من الرحمن الرحيم) ، وليس تشريع الانتقام لشعب يعيش في (الجيتو)^(١) يتعزى بدعوى أنه شعب الله المختار ، وأن الله ما خلق غيره من الشعوب إلا لخدمته ، كما خلق الحيوانات ، ومن هنا كثر عدوانه ، وكثر الاعتداء عليه ، فكان التلذذ بدعوى الاضطهاد، وليس تشريع الانتقام لأخ قتله القيصر^(٢) ، والحكم بالإعدام يلاحقه ، أولوجود طويل بالمنفى ، محروماً من الأهل والوطن . .

ليس تشريع الحالات المرضية الطارئة ، إنما هو تشريع الرحمة والعدل ، بل الرحمة قبل العدل .

تشريع (عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) .

تشريع (الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) . .

تشريع الثواب والعقاب ، (كل نفس بما كسبت رهينة . . وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) .

تشريع (الكلمة الطيبة صدقة) ، (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) ، (ادفع بالتي هي أحسن) ، « ادفع السيئة بالحسنة تَمْحُهَا ، وخالقِ الناس بخُلُق حسن » .

(١) إشارة إلى أن الماركسية فكر يهودى .

(٢) إشارة إلى لينين .

ليس تشريع أفران وسرايب الإعدام ، ومن ليس معنا فهو علينا ، وإنما هو تشريع « من قال لا إله إلا الله فقد عصم منى دمه وماله » ، (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . (وتحيتهم فيها سلام) (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم) . تشريع (من عفا وأصلح فأجره على الله) .

تشريع شعاره (بسم الله الرحمن الرحيم) ، السلام عليكم ورحمة الله ، ومجتمعه قائم على التعاون والتضامن والتحاب ، فلا مخاصمة ، ولا مدايرة ، ولا وشاية ، ولا غيبة ، ولا نعمة ، ولا أجهزة سرية ، ولا وسائل تصنت ، ولا أخذ بالشبهة ولا غسيل مخ ، لأنه (الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) ، (كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً) ينصرُ بعضه بعضاً ، القوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له ، والحاكم مطاع ما أطاع الله ورسوله ، فإذا انحرف فلا طاعة له ، وعلى المجتمع تقويمه .

هو تشريع الفطرة والطهارة والقوة ، « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » ، (قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ، « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .. فن أين (السلبية والخنوع والتبرير الاستعبادي والحتمية الطبيعية الميكانيكية) ؟ ص ١٥٤ .

ألأن هناك إيماناً بلإله خالق (يمسك السموات والأرض أن تزولا) ، تكون الجبرية الغيبية الغائبة ، و (ليس هناك تطوّر) ، لأن (هناك إرغاماً مبدئياً على أن يسير كل شيء ضمن مسار محددة طبائعه وآفاقه) ؟ ص ١٥٣ / ١٥٤ . وهل ينكر عاقل أن الكون يسير وفق قوانين إلهية ، لا تخضع للمصادفة ، ولا تنتج عن (حتمية طبيعية ميكانيكية) ، دون تدبر (وكل في فلك يسبحون) ،

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار) ، (والقمر قدرناه منازل) (والشمس تجري لمستقر لها) ؟

هل ساءل الدكتور نفسه عن نفسه ، غرائزها ومواهبها وملكاتهما ؟ هل حدثت نفسه عن السر من وراء اختلاف المواهب والأشكال عند الإخوة ، واختلاف الألوان والعطور عند الأزهار ، واختلاف الطعوم والقيم الغذائية عند الثمار في مزرعة واحدة ؟ .

هل (الحتمية الطبيعية الميكانيكية) تفرق بين الطاووس والغراب ؟ بين شجرة الليمون وشجرة البرتقال ؟ بين الضفدع والسرطان ؟ بين الحرياء والثعبان ؟ بين الأبله والحكيم ؟ .

إن الدكتور يقول : (لما لاشك فيه أن هناك ضرورة ميكانيكية تسود العالم الطبيعي) ص ١٥٥ . فمن أين كان الاختلاف مع وحدة البيئة ووحدة المؤثرات ؟ ويقول : (فالحادث الاجتماعي ، كالثورة مثلا ، يتم بالطبع حينما تتوفر شروط موضوعية معينة اقتصادية واجتماعية وتكنيكية بيد أن هذا غير كاف ، ذلك لأن الثورة بالأصل من صنع الناس الاجتماعيين ونتيجة لفعاليتهم) ص ١٥٥ .

وهذا كلام جيد حسب الظاهر ، أو حسب النظرة العامة ، لأن الثورة بعواملها الاقتصادية والاجتماعية والتكنيكية - قد يصيبها الإحباط والإحاطة بالثائرين ، لمجرد خلل أصاب ساعة قائد الثورة ، فاضطرب التوقيت ، لمجرد انقطاع الحرارة عن جهاز التليفون ، لمجرد إصابة القائد بالإسهال ، لزوة لعبت برأس أحد الرجال فخان الأمانة ، إلى ما لا يحصى من هذه الأحداث الصغيرة غير المتوقعة . . وعند ذلك يصبح الثوار مجموعة من المجرمين ، تعلق لهم المشاقق وينكل بذويهم وأهليهم ، بدل أن ترفرف لهم الأعلام وتندق الطبول ، وتقام التماثيل ،

والدكتور يعترف بأن (في المجتمعات ، ما قبل الاشتراكية ، يتم التطور الاجتماعي في الخط العام بالرغم من الناس الموجودين فيها) . لكنه يعلل ذلك بأنه

(لم يكن لها أن تنتج نظرية علمية ثورية خاصة بها ، قادرة على اكتشاف القوانين الأساسية لحركة التطور الاجتماعي والطبيعي) ص ١٥٦ . مع أن النظرية الماركسية كانت وليدة مجتمع رأسمالي ، وكان الظن أن تجد طريقها إلى التطبيق بين عمال المصانع الألمانية أو البريطانية فإذا بها تنمو في الأرض الروسية ، على غير ما كان يتوقع صاحب النظرية ، بمعنى أن النظرية سبقت التطبيق ، وأن المجتمع قد لا ينتج نظرية تطويره ، لأن هناك عوامل لا تكون في الحسبان تنشأ كما تنشأ الريح ، وتحرك كما تتحرك السحب ، وتسقط الأمطار حيث لا يشتهي الزارعون .

إن الفكر الاشتراكي ليس وليد مجتمع اشتراكي ، وإنما هو وليد مجتمع طبقي ، لأنه ثمرة الإحساس بالاضطهاد ، وهذا الإحساس ينشأ فردياً ، ثم يتحول إلى شعور جماعي .

وقد ينشأ فكر مضاد للاشتراكية ، نتيجة قسوة وتجبر المستلطين ، كما يحدث الآن في بولندا وفي الصين وفي الاتحاد السوفيتي ، وكما حدث في المجر وتشيكوسلوفاكيا ، ثم وأدته دبابات الجيش الأحمر .

(وفي المجتمع الاشتراكي نفسه تتحول تلك النظرية العلمية إلى اللولب الفكري الكبير المحرك والمنظم للحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والأخلاقية والجمالية) ، ص ١٥٧ . وكذلك الشأن مع أى نظرية اقتصادية تأخذ طريقها إلى التنفيذ ، مع اختلاف في الدرجة طبعاً ، لكن شتان بين نظرية مقصورة على نشاط إنساني محدد ، ودين عام شامل لكل ألوان النشاط الإنساني ، روحياً ومادياً .

ولهذا كان من العبث أن نقول : (إن التجربة الغيبية - الدين في رأيه - تؤدي بشكل رئيسي إلى سلخ الإنسان عن الواقع العياني المشخص ، المتسم بالبؤس والاضطراب وشدة إلى ما وراء الواقع) ص ١٥٨ ، مع أن نصوص التشريع الإسلامي ، قرآناً وسنة ، وفيما جاء عن الصحابة والتابعين والمجاهدين من العلماء - تدعو إلى العمل وتحث عليه ، وتنظمه مزارعة ومتاجرة ومضاربة ومواجهة ،

وتصنيعاً وتطبيقاً وتعليماً ، إلى آخر ألوان النشاط الإنساني ، حتى يتسنى الرخاء الذى يحقق التمتع بالطيبات من الرزق . . ولقد اقتضت حكمة السماء أن يكون الرسل والأنبياء من الفقراء ، ليكون إحساسهم بقسوة الحرمان حرباً على الفقر وانتصاراً للفقراء . . وهل كانت الزكاة من أركان الدين الخمس إلا لمحاربة الفقر؟ وهل كان الصوم من أركان الدين الخمس إلا لمحاربة الفقر؟ وفيه كان حرب المرتدين ، وقول أبى بكر : (والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه) ؟ أليس هو الزكاة التى تنفق على المحتاجين ؟ وما الهدف من قول عمر ، فى عام التضامن : (لو امتد بى الأجل ، لأخذت من فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء) ؟ ولماذا قال الإمام على : (لو تمثل لى الفقراء رجلاً لقتلته) ؟ وإلام يدعوا أبوذر الغفارى بقوله : (عجيب لمن لا يجد القوت فى بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه) ؟

أهذا هو (الانسلاخ عن الواقع الإنسانى العيانى الشخصى) ؟

أنطلق سهامنا عن يمين وشمال ، ليقال : إننا ثوريون ؟

كيف ندين الطبقة البورجوازية الجديدة لأنها (بحاجة إلى إخضاع الطبيعة والمجتمع لحاجاتها ومطامعها الشاملة وهى تحاول تطويع العلم والفكر الفلسفى المادى لمصالحها الحيوية) ، ص ١٥٩ أليس هذا من مفاخر الثورية التقدمية ، ومن دعاؤها ؟

وكيف نزعِم إمكانية الصراع الطبقي فى العالم العربى (لو أن التنين الاستعمارى الرأسمالى الأوربى مدَّ كُلاباته ، بالتعاون مع الإقطاع الداخلى ، للإحاطة بالبورجوازية الوليدة التعسسية ، ولتفريغها من آفاقها التقدمية الممكنة) ص ١٠٩ ، مع أن الوجود الاستعمارى كان من أهم عوامل الثورة فى مصر والعراق والجزائر ، وهى ثورات نادت بالاشتراكية ، وسعت إلى تحقيقها ؟

ثم إن ما يفعله الدب الاستعمارى الاشتراكى فى دول أفريقيا وآسيا وأمريكا

اللاتينية ، وفي أوروبا الشرقية أيضًا ، لا يكاد يختلف في نتائجه عن جرائم التنين .
 ألم يصل إلى سمع الدين باعوا أنفسهم للشيطان ما يجري في أفغانستان وجنوب
 اليمن وأثيوبيا وكمبوديا وبولاندا ؟

أليس من الهوان أن نمضى في مفاضلة بين الدب والتنين ، وبلاذنا سلعة
 يتعاورها هذا مرة وذلك أخرى، ونجد من يصفق لهذا أولذاك ، ضالين مضللين
 بشعارات مزيفة ، وحقوقنا ضائعة ، وإنسانيتنا مهددة ، ولسنا بقادرين على أن
 نكون للعالم أولالدين ، لأننا نفرق بينهما أويفرق الاستعماريون بينهما ، لينفذوا
 بسمومهم ، من خلال القروح والبثور التي تصيب أرواحنا وعقولنا وأجسامنا ؟
 كيف يقع في وهم عاقل أن (مسألة تجاوز التخلف الشامل في هذا الوطن لم يعد
 طرحها ممكنًا في إطار الثورة البورجوازية الصناعية) ، لأن (الأيديولوجية
 الاشتراكية العلمية الوريثة الشرعية لكل الجوانب الإيجابية التقدمية) ؟ ص ١٦٠ /
 . ٩٦١

لماذا لا يقارن السيد الدكتور بين ما صار إليه حال كل من ألمانيا الاتحادية وألمانيا
 الديمقراطية ، وهما شعب واحد ، خرج من الحرب منهار الاقتصاد ، مخرب
 البلاد ، ممزق الوطن والمواطنين ، فإذا القسم الذي ينجو من مخالب الدب يجعل
 بالبناء ، وينافس من ألحقوا به الهزيمة في كل ميادين الإنتاج ، في حين ظل القسم
 الآخر يرسف في قيود الممنوعات والمحرمات ، يتطلع أبناؤه التعساء إلى يوم
 الخلاص ؟

لقد عشت أربعة أعوام في عدن ، التي كانت من عوامل الازدهار التجاري بين
 آسيا وأفريقيا ، إبّان الحكم الاستعماري الإنجليزي ، وكان أبناء اليمن الجنوبي
 يضربون في كل الأرض ، ابتغاء الرزق فيثرون ، ويعودون إلى بلادهم يبنون
 ويعمرون .

فماذا حدث في ظل الاستعمار الروسي ؟

كان أول ما فعله الروس - كما حدث في مصر - أن استولوا على الذهب في محال بيعه ، ونقلوه إلى بلادهم ، مما أدى إلى إصدار قانون عدم بيع الذهب لغير أبناء اليمن ، ولكن (بعد خراب مالطة) !
توقّف الميناء ، أو كاد ، وأصبحت مئآت المحال التجارية مغلقة ، وانتقلت التوكيلات التجارية إلى مواطن أخرى .

خليج عدن المشهور بثرواته السمكية أصبح مقصوراً على الأسطول الرومى والأسطول اليابانى ، مقابل بعض المعلبات وأجهزة التكيف وعربات رجال الحزب .

الإنتاج الزراعى الذى كان يملأ الأسواق حتى الليل ، لم يعد يكفى طواير الواقفين على أبواب أسواق الحكومة ، ومن لا يحصل على حاجته قبل العاشرة صباحاً فعليه أن يلجأ بالغد . . ولا يرجع السبب إلى ازدياد عدد السكان ، لأن الحقيقة المرة تؤكد أن أكثر من نصف الشعب اليمنى فى الجنوب قد هاجر ، قبل أن يُحكم الحزب الشيوعى قبضته ، ومازال تهريب المهاجرين من عوامل إثراء سكان الحدود .

كان فى عدن وحدها - إبان الحكم الإنجليزى - أكثر من عشر صحف ، فلم يعد بها إلا صحيفة أكتوبر اليومية ، وصحيفة الثورة الأسبوعية ، وتكاد الصحيفتان الهزيلتان تقتصران على بيانات الحزب .

أقيم فى اليمن الجنوى مصنع للنسيج ، وآخر لتعليب الطماطم ، وثالث لتعليب الأسماك ، ورابع للدخان والكبريت ، والمصانع الثلاثة الأولى تنعى من بناها ، بسبب ما تحققة من خسائر ، والمصنع الوحيد الذى يحقق ربحاً هو مصنع الدخان ، لأن أكثر من يعيش على أرض الجنوب اليمنى ، من رجال ونساء وصبية يشربون الدخان والبيرة ويمضغون القات ولا يكاد الرجل يعود على بيته بأكثر من ربع دخله ، والباقي ينفق على مجالس القات ، التى حددت لها الدولة أيام الجمع

والإجازات ، واليوم السابق على الجمع والإجازات ، فازدادت شراهة الناس إلى هذا الوباء الذى يقتل النفوس ويستهلك الأموال . .
يُشرف الروس على الجيش الينجى ، وسيطرون على جزيرة سوقطرة ، بحيث لا يدخلها يبنى إلا بتصریح خاص ، ويشرف الألمان الشرقيون على أجهزة الأمن الداخلى ، والصينيون والكوريون والكوبيون يتسللون إلى الأجهزة الأخرى .
نسبة تعليم البنات فى الجامعة إلى البنين تصل إلى ثمانين فى المائة ، لأن الشبان يجندون بعد (الثانوية) ، فينقطع ما بينهم وبين التعلم ، أو يهربون خارج الحدود ، وينقطع ما بينهم وبين الوطن . . وفى الغد القريب تصبح أجهزة الدولة فى أيدي النساء (! !)

هذه صورة مصغرة عن البلد الاشتراكى الذى تسير عجلة الحياة فيه بمنح الكويت والإمارات العربية وليبيا ، وللأسف ، أكثر من نصف هذه المنح يمتصه خبراء الروس والألمان الشرقيين .

فانظر إلى أى مدى صارت عروس الموائى تمدّ يدها إلى (الرأسمالية) العربية ، لتنفق على عشاقها (الوارثين الشرعيين لكل الجوانب الإيجابية التقدمية) ! !
وإذا كان المثل العربى يقول : رمتى بدائها وانسلت ، فإن هذا الوباء الشيوعى لا يسهل أن يغادر ضحاياه ، وإن أرمت وبليت .

ومع هذا يذكر الدكتور (أن التقدم العاصف فى المجتمعات الرأسمالية الاستعمارية هو بالأصل تقدم فى الجانب « التكنولوجى » ، وفى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، أما الجانب الاجتماعى « الإنسانى » ، والعلوم الإنسانية ، فيعانى من أزمة عميقة شاملة ، لا يمكن الخروج منها ضمن الحالة الراهنة فى تلك البلدان ، وذلك لعاملين :

١ - التطور العلمى والتكنولوجى قد قدم إمكانيات تتيح للسلطة الاستعمارية

القومية مواجهة المواقف « غير المتوقعة » ، التي تقود إليها جواهر الكادحين بكثير أو قليل من النجاح .

٢ - التعقيد الكبير الذى دخل الحياة العامة ، وجعل من الصعوبة بمكان الكشف عن المسئول « المباشر » عن مجموع ما يحدث فى العالم الرأسمالى الاستعمارى (ص ١٦٣ .

فهل يرى (الدكتور) أن (التقدم التكنولوجى العاصف) واكب فى البلدان الاشتراكية (تقدماً إنسانياً) ، وكل يوم تطالعنا الأنباء بمآسى (المشقيين) فى الاتحاد السوفيتى ، وضحايا الثورة الثقافية الماوية ، وضحايا الثورة على الثورة ، للقضاء على أنصار (عصابة الأربعة) فى الصين ؟ لقد شرد السوفيت أكثر من ثلاثة ملايين أفغانستاني ، وضحوا بنصف الشعب فى اليمن الجنوبي ، وبثلث الشعب فى إثيوبيا ، وذهب الملايين ضحية الطغيان الأحمر فى كمبوديا وفيتنام ولاوس وتيلاند والصومال وأرتريا وأنجولا ، ناهيك عما أصاب الشعوب الإسلامية التى ابتلعتها روسيا ، وما أصاب غير الشيوعيين فى المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، فأنتى حدث هذا التقدم الإنسانى ياترى ؟

* * *

وكما يحدث أن (البغى) تتفنن فى اتهام الأخريات ، وتتلذذ باختلاق القصص والأراجيف ، وتجدد فى ترويج دعاويها وافتراءاتها ، كذلك يفعل أصحاب الكلمة (الحمرء) مع أن الحق بين ، والباطل بين ، وليس ثمة اشتباه .

فهو يرى ، أو يردد ، (أن قضية الثورة مسألة معلقة وغرواردة فى المجتمع الرأسمالى الاستعمارى المتقدم تكنولوجياً علمياً . والإشكالية البدائية تتأق من كون الطبقة الرأسمالية ترى فى انسداد آفاق التطور المستقبلى أمامها هى ، انسداداً لآفاق التطور أمام الإنسانية جمعاء . . فهى تقاقل الجميع ، لكى يسقطوا وتبقى هى وحدها) ص ١٦٦ / ١٦٧ وكأن الاشتراكية الدولية لا تفعل هذا ! ! .

وهو يرى ، أويردد (أن أأأركامو وغان بول سارتر أصبحا من آباء الثقافة المكافحة من أجل « الحرية » ولكن عبر « القرف » والتقرز » و « التمزق » . . لقد أصبحت الحرية تكمن فى التأكأء على « أءم أءوى » ، وبألتألى فى تقبل « الموت » بطواعية ، عن طرأق « الأناأار ») ص ١٧٤ وذلك لأن الوجودية نشأت (فى العصر الأناس بعء الحرب العالمة الأولى ، مع كل شعور أءم الضمان الذى استبء آن ذاك بالإنسان ، وهى أأمل بذاتها بوضوح آثار كل هذه الهزات المأيفة) ص ١٧٠ .

فإذا كانت الوجودية ترجع إلى (نتائج التصءع الأارأأى الشامل لكل عالما الفكرأى أأى الآن) ص ١٧٠ . فقد صءقت فى التعبير عن المرحلة التى ظهرت فىها ، وكل مذهب أءأء رهن بظروف أءأءة ، لا تلبث أن أأأر ، ولذلك أأكد سارتر (أن كل ماكتبه سابقاً ما هو إلا « بناءة كسأعة » لا أأكل بالنسبة إلىه المأء الأأأى ، وما هأى بألتألى إلا أأنون أو بؤس فكرأى) ص ١٧٥ .
ومع هذا ، فالوجودية لا أأأر عن كونها فكراً تأملأياً مأساوأياً ، أو قصأءة رثاء لهذا العالم المأأأن ، ولا أأال لمقارنتها بالفكر الاشتراكأى الذى أضع أأولا لمشكلات اقأصاءة فى الءرأة الأولى .

وهو أأكر على أارووى (أن أأول بأن مأأمعنا طأأأاً ، أى أأر مأأانس أأأأاً ، أستطأع أن أأأأ الأءءء الفلسفى) ، مع أن كأأنا أأول (بأوجود أءءء فلسفى فى إطار منظمة سأساة أأرية ، أأأل الطأقة الاأأأة الأكثر أقءأمأة فى الأارأأ وهأى الطأقة العاملة) ص ١٩٧ ، وذلك لأنه وأأأله لا أؤمنون بالأأأأ السألى مع المأأاب أو المنظمات الأأرى ، لأنهم أأأصون على أن أكونوا هم أصأاب البوق الواحد والأأرب الواحد ، وألس وراءهم إلا الطوفان . .

وهو أأرى أن (المأرسة السأساة الأأرية المأأة بالفكر المأركسى الأأرى هأى الأءأرة بآزع البرقع الأاءع عن وأه هذا الطأرأ الأارووى الهأأن) ص ٢٠ مع أن

هَذَا (الجارودى) كان أحد أعمدة الحزب الشيوعى الفرنسى^(١) ، لكنه يأخذ بالتسامح الليبرالى الذى (يعمل جاهداً على رد الفلسفة الماركسية إلى واحد من التيارات العديدة فى العالم الاستعمارى) ص ١٩٨ ، ومن ثم يمكن التقارب أو التعايش ، وهذا نوع من (التحريفية) البغيضة لدى (النصين) أتباع لينين . وهو ينكر على ماركوز القول بأن (التقدم العلمى التقنى فى المجتمع الرأسمالى . . . يرفع ويثرى الإنتاج بشكل ضخم ، بحيث يخلق رفاهاً اجتماعياً اقتصادياً عاماً بين الجماهير ، وبحيث يؤدي هذا الرفاه إلى شل الروح الثورية المقاومة لدى أولئك الجماهير) ، لأن (ذلك الرفاه العام ليس عاماً فعلاً ، بل نسبياً إلى حد كبير ، فالملايين الأربعة من العاطلين عن العمل فى الولايات المتحدة الأمريكية وعملية التسريحات العالمية ، منذ سنوات ، فى برلين الغربية وألمانيا الغربية لا يدعان مجالاً للشك فى أن رفاهاً عاماً هو واقع نسي جداً فى المجتمع الرأسمالى الحديث . . إن الكادح الذى كان دخله السنوى يتراوح مثلاً فى حدود الـ ٣٠٠٠ ليرة ، نراه - إذا بقى محتفظاً بمكان عمله - يحصل حالياً على ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ ليرة سنوياً ، لكن الدخل السنوى للرأسمالى ، رب عمله ، أخذ بالمقابل يرتفع بشكل أسطورى) ص ٢٠٦ / ٢٠٨ .

وهذا مأخذ لا شك فيه لكنه مائل ، بصورة أو بأخرى ، فى توزيع الدخل بين الكادحين والقياديين فى المجتمع الاشتراكى ، وكلا المجتمعين يروج بالجريمة ، غدرًا وخداعًا وقتلاً وتنكيلاً وحرمانًا من الأمان النفسى ، وهو القيمة الكبرى التى تنشدها الإنسانية فى أى مجتمع ، وعلى أى مستوى .

وهو يأخذ على المجتمع الرأسمالى أن السائدين فيه (اجتماعياً واقتصادياً وأيديولوجياً - كانوا يحاولون دائماً جعل أيديولوجيتهم الأيديولوجية الوحيدة فى

(١) أسلم الفيلسوف روجيه جارودى ، ويرجى بإسلامه خير كثير .

مجتمعهم ، وإثارة وتغذية اليقين. بأنها أيديولوجية الإنسان عمومًا في كل زمن وبقعة ، هنا بالضبط يتبين زيف أيديولوجيتهم) ص ٢١٥ ، مع أن المجتمع الرأسمالى يقوم على تعدد الأحزاب ، ويعترف بحكومة الظل للحزب المعارض ، ويسمح بتشكيل حزب شيوعى ، له صحفه وممثلوه فى المؤسسات الديمقراطية المختلفة ، على حين يقوم المجتمع الاشتراكى على الحزب الواحد وكل شىء لهذا الحزب الواحد (الطبقة الوحيدة التى تستطيع ترسيخ سيطرتها مكان طبقة أخرى سائدة من خلال عملية واعية مخططة) ص ٢٢١ .

* * *

ويمضى السيد الدكتور فى إعادة تشكيل هذه الدعاوى من خلال قراءاته المتنوعة ، مركزًا على الجانب السياسى مما يخرج على نطاق الخط الذى رسمناه لهذا التناول عن (التراث) .

من التراث إلى الثورة . . حول نظرية مقترحة في التراث العربي

٤

هذا المشروع . .

هو (مشروع عمرى العلمى) ^(١) (مشروع رؤية جديدة للفكر العربى ، من العصر الجاهلى حتى المرحلة المعاصرة) ^(٢) .

دعا إليه أن (رهطاً من المفكرين والباحثين ، وكذلك بعض السياسيين والعاملين فى حقل السياسة الثقافية ، يثيرون فى المرحلة الراهنة قضية التراث عموماً ، والتراث العربى على وجه خاص . ملئء بكثير من المطامح والحماسة والتوقعات المشروعة ، ولكن فى معظم الأحيان ، بقليل من الحصوية والعمق فى البحث العلمى ، وبضحالة فى الاستبصار والمسئولية السياسية والاجتماعية) ص ٥
تلتقى فى ذلك (المحاولات التى تطرح نفسها خطأ باسم المنهجية الجدلية المادية التاريخية ، فى منحها الجوهرى ، « بالتزعة السلفية » الدينية الوثوقية ، التى تقوم كذلك على إخضاع التراث لمصالح معينة ، على نحو نفعى تعسفى مُبتَدَل) هامش ص ٦ ،

وذلك بسبب أنهم لا يتعاملون مع (الحقيقة فى البحث التراث ، كما فى البحث العلمى عموماً) أى على أساس كونها (حقيقة ، ليس لأنها نافعة ، وإنما هى على العكس من ذلك نافعة لأنها حقيقة) ص ٦ .

(١) الغلاف .

(٢) العنوان .

و (إنه من المفارقة بمكان أن نكتب في قضايا تراثية ، بل وأن نتنطع لاقتراح نظرية في التراث العربى الفكرى ، دون أن نطرح وجهات النظر الرئيسية فى هذا التراث ، من داخله ومن خارجه ، أى السالفة أوالمعاصرة أولاً ودون أن نحيط بها على نحو عميق ، من خلال تلك النظرية التراثية ، ثانياً ، ودون أن نقوم بذلك كله عبر تمثيل عيانى عميق لقضايا التراث العربى الفكرى نفسه ، ثالثاً) ص ٨ .

على أن يتم (طرح النظرية التراثية المقترحة فى نطاق الاحتياجات الذاتية الحيوية ، الاجتماعية الحضارية العامة ، والنظرية العلمية للواقع العربى الراهن ، أولاً ، وفى نطاق كون هذا الأخير إحدى حلقات الواقع الإنسانى العالمى الراهن ، ثانياً) ص ٩ (على أساس هذا الفهم للأمور ، يصبح « مشروع الرؤية الجديدة » مشروطاً بمقتضيات وآفاق المرحلة الراهنة التى يمر فيها الوطن العربى ، تلك التى تتحدد ، فى نظرنا ، بكونها مرحلة انتقال معقدة ومركبة من مجتمع ما قبل الإقطاعى ، وإقطاعى بورجوازى هجين ، ومبعثر قومياً إلى مجتمع اشتراكى موحد قومياً) ص ١٦ .

وإذا كنا بصدد (دليل عمل منهجى عام فى البحث التراث) فإن من واجبنا أن نعلم (أن المنهجية الجدلية التاريخية والتراثية هى المؤهلة ، اجتماعياً ومعرفياً ، لقيادة البحث فى وجهات النظر تلك ، والوصول إلى موقف علمى دقيق من التراث والتاريخ العربى والفكرى) ص ٢٧ . وذلك من منطلق (أن الباحث المؤرخ والتراثى الذى يكتب حول وقائع حدثت قبله ويقومها تراثياً ، يفعل ذلك فى ضوء عصره هو ، بالرغم من أنه يبقى مطالباً بتقديمها من خلال عصرها هى فى حال التعرض لها تاريخياً ، ولكن هذا التعرض يظل - فى التحليل الأخير - مشروطاً بمستوى أداة البحث العلمى التى بين يديه أولاً ، وبأفقته المعرفى والأيدىولوجى ثانياً ، بحيث يغدو القول ممكناً بأن هذين العنصرين يمثلان ، على نحو متوسط ، الحصيـلة الحضارية العامة لعصر ذلك الباحث) ص ٣١ / ٣٢ .

ومن هنا يكون الاختلاف بين الباحثين ، إذ تتحكم آفاقهم المعرفية واتجاهاتهم الأيديولوجية في توجيه البحث العلمى ، مما يدفع إلى إلbas التاريخ القديم مصطلحات حديثة ، أفزتها ضرورات التطور الحديث ، ومن ثم يتحرك التاريخ القديم بحركة التاريخ الحديث ، مع أن لكل عوامله وظواهره التى تتناسب مع طبيعة عصره .

ولعل الصواب أن نتناول التراث من خلال بيئته المادية والمعنوية ، على أساس المنهج التاريخى دون أن نقع تحت تأثير الأيديولوجيات المعاصرة حتى تكون أقرب إلى الحقيقة العلمية ، ثم تكون المرحلة الثانية فى توظيف هذه الحقيقة العلمية فى إطار أدبى أوفى لأهداف سياسية أو اجتماعية .

أما أن نمسك بالبابكية مثلاً ، فنحرك أحداثها بحركة الاشتراكية المعاصرة ، فإننا سنبالغ فى استخدام الظلال والأضواء ، بحيث نبرز خافياً ، ونجسم دقيقاً ، وندقق جسيماً ، ونعيد تشكيل الأحداث ، وكأننا نضع قصة من إبداعنا ، وما أظن هذا يخضع للقواعد التى وضعها ابن خلدون وأكبرها ماركس ولينين ، من أنه (إذا اعتمد فى الأخبار « على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فرمما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق) ص ٣٤ .

فإذا كان (الصدق) هدفاً ، ولحقيقة غاية ، أمكننا أن نعيش واقع التاريخ ، وأن نستعيد (التراث) ، وقد بعثنا فيه الحياة ، فيحيينا فيها ونحيا فيه ، يحيا فيها فكراً وقيماً وبنائات إنسانية ، ونحيا فيه حين نرى صورتنا فى مرآته ، فلتلقى همومنا بهوموه ، ومعاركنا بمعاركه ، وانتصاراتنا بانتصاراته ، ويصبح زاداً وسماداً ، دريئة وعماداً .

وليس معنى هذا أن جملة تاريخنا وتراثنا مجموعة إنجازات ، وثمار حضارة

إسلامية ذات طبيعة واحدة ، ومستوى واحد ، لأن هذا يخالف مجرى الحياة الإنسانية ، في أى مكان ، وفي أى زمان .

لنكن على يقين من أن مسار الحياة العربية الإسلامية مرّ بتعاريج وعقد وتنوعات ، وأن مسار الحياة العربية الإسلامية عملت فيه أياد غير عربية وغير إسلامية . . لكن في استطاعتنا - ونحن نتحرى (الصدق) - أن نتبين مالنا وما علينا ، وأن نستفيد من مزالقنا ومن معارجنا ، دون أن نقع في حُباله الوهم ، أو حُباله الغرور ، ودون أن نصبح دُمى على مسرح العرائس ، تحركنا خيوط الآخرين ، وننطق بأصوات لا نملكها ، ونعبر عن أفكار لا ندرکها .

يقول السيد الدكتور (إن طبيعة التاريخ ذاك روحية دينية ، لا تأخذ بعين الاعتبار العلاقات الإنسانية المادية والروحية ، إلا بمقدار ما يخدمها ويكرّس هيمنتها ، بصفته مصدر الوجود والحقيقة) .

(إن المراحل التاريخية التالية على الرسالة المحمدية لا تشكل شيئاً يتضمن في ذاته اعتباراً ، إلا بمقدار ما يتطابق مع مرحلة هذه الرسالة) .

إنها (تقترب ونتمتج بالأسطورة المطلقة النهائية ، والهائمة فوق التاريخ ، بمقدار ما تحقق ابتعاداً عن التاريخ العياني واعتلاء عليه) ص ٤٢ .

مثل هذا التقويم لا يمكن أن يخضع لمنهج علمي ، لأنه - كما يقولون - يمثل (صوت سيده) ، مجرد كلمات أريد بها أن تُحدث فرقعات غوغائية . . وإلا فما معنى أن (المراحل التاريخية التالية على الرسالة المحمدية) امتزجت (بالأسطورة المطلقة النهائية الهائمة فوق التاريخ) ، وأن طبيعة التاريخ الإسلامى (لا تأخذ بعين الاعتبار العلاقات الإنسانية المادية والروحية إلا بمقدار ما يخدمها ويكرّس هيمنتها) ١٩ ؟

إن أحداً لا يمكن أن ينكر أن كل معتقد إنما هو فكر وتطبيق ، وطبيعة (التطبيق) تخضع لمؤثرات كثيرة لا تجعله يتحرك مع (الفكر) على مستوى

واحد . . ولو أننا افترضنا أن حركة المجتمع ، سياسياً واقتصادياً ، تتحرك بحركة الدين ، فإن معتقد الشيوعيين أن الفكر الاشتراكي يستقطب كل ألوان النشاط الإنساني ، وأن مسار التطور الاجتماعي ينتهي إلى الحتمية الاشتراكية ويقف عندها .

لكن الحقيقة الإنسانية والمسار التاريخي لا يؤيدان هذا الزعم ، بدليل ما يجرى الآن على الساحة الاشتراكية ، ولم يعد للقوات العسكرية الشيوعية عمل يختلف عن عمل القوات العسكرية الرأسمالية ، وأصبح الاستعمار في عباءة حمراء لا يختلف عنه في عباءة زرقاء .

هذه حقيقة تعلن عنها مواقع كثيرة في كل مكان .

وحقيقة أخرى ، أن التاريخ الإنساني العام - في تصور المؤرخين قاطبة - كان يتحرك بحركة القادة والحكام ، وأن العلاقات الإنسانية كانت تدون في كتب التشريع والحكمة والأدب والنوادر والحكايات والرحلات ، وكانت تتناول - على سبيل الاستطراد - في تاريخ رجال السياسة والحرب والأدب والحديث والطب ، إلى آخر هذه المجالات العلمية والفنية ، فلما علا صوت الجماهير ، وأصبح للخارجين على السلطان تأثير على حركة التاريخ ، تطورت النظرة في تناول هذا العلم . ولا مجال لإنكار أن تحرك الجماهير كان بحركة قادة ذوي مواهب ومطامع ، تخضع مبصائرهم للانتصارات والهزائم ، شأنهم شأن سواهم من القادة ، فإذا انتصروا كلَّلوا بأكاليل الغار ، وإذا انهزموا علَّقوا في المشانق .

والحقيقة الكبرى أن الدين الإسلامي لم يكن شعائر وطقوساً روحية ، بقدر ما هو تشريع وقيم عملية ، تتناول كل شؤون الحياة ، سلماً وحرماً ، جدّاً ولهُواً ، سرّاً وعلانية ، أفراداً وجماعات .

كما أن الدين الإسلامي لم يغلق المجتمع الإسلامي على المسلمين ، ولم يوقف تشريعه على العلاقات بين المسلمين .

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد تحرك بحركة الإسلام ، فإن حركته الإنسانية كانت أوسع مدى وأجلى مظهرًا ، وأعمق أثرًا .

ثم إن المسلمين - منذ عهد الفتوحات - صارت تحكمهم طبيعة التوسع في بيئات غير عربية وغير إسلامية ، وصارت تتحكم في مجتمعهم عوامل كثيرة ، ومكتسبات حضارية لم يكن لهم بها عهد .

ولم يكن للمسلمين قانون يأخذ بالظنة ، ويعاقب على الهمة .
كان مجتمعًا يمجج بكل الأفكار ، ويتسع لكل الخلافات .

ولو أنه التزم بالتعاليم الإسلامية لظل المد الإسلامى يأخذ طريقه حتى اليوم ، ولما كان للحركات المشبوهة وغير المشبوهة أن تنبت فيه ، لأنه كان سيتحرك بحركة هذه التعاليم ، ومن ثم فالبنیان يشد بعضه بعضًا ، على أساس التكامل والتضامن والتعاون ، وفى إطار عباد الرحمن التوابين المتطهرين ، (الذين يمشون على الأرض هَوْنًا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا) ، أمّا وقد تحرك المجتمع بحركة (الإنسانية) ، واتسع لأمثال ابن الراوندى وابن زُجَرة وطيب تيزينى ، فإن من الخطأ أن نحاسب القيم الإسلامية بحساب هذا المجتمع .

بين العقل والنقل ..

يعلق الدكتور على قول مالك بن أنس : (لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) بأن (هذا « الأول » سوف يبقى دائماً وأبداً كذلك ، إلى درجة أن الحديث عن تجاوزه و « تخطيه » يتحول إلى نوع من البدعة ، التى يجب على الأوفياء لذلك الأول أن يرفضوها ويدينوها) ص ٤٦ .

وهو يقرر حقيقة ، وإن كان يقدمها فى معرض الإدانة متجاهلاً أن الذين يجتهدون فى تفسير الأفكار الماركسية اللينينية يُتهمون (بالتحريف) ، ومن ثم يطاردون ، وتعلق لهم المشانق .

فإذا كان (تجاوز) الشرع و (تخطيه) يتحول إلى نوع من البدعة ، فهذا أهون ما يجب على الأوفياء لذلك الدّين ، لكن هؤلاء الأوفياء - في مواجهة هؤلاء المتجاوزين - ملتزمون بسماحة الإسلام ، التي قوامها : (من قال لا إله إلا الله ، فقد عصم منى دمه وماله) و (ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن) .

ومالك بن أنس من التابعين الذين صحبوا صحابة رسول الله ، وجمع زمانه بين صلاح حال الرعية بالدين ، وفساد حال الرعية بالدنيا ، ومن ثم كان ينطق بمنطق الشرع ، ومنطق التجربة الحية التي عاشها . . والدكتور نفسه لا يستطيع أن ينكر صلاح الحياة بالدين الإسلامى الذى طهر نفوس القوم فطهرت أحوالهم ، واستقامت دنياهم ، ودانت لهم الإمبراطوريات ، فإذا كان تطلع إلى صلاح حال الناس بالدين مرة أخرى ، - وليس من النصوص الدينية ما يقف في وجه التطور - فإن هذا التطلع لا يعدّ (ردّة) ، ولا يُدان بالرجعية ، أو التقليدية ، أو النصيّة ، لأنه العود إلى الصواب ، وليس الاستمرار في الخطأ دلالة وعى ، وليس البحث في جيوب الآخرين ، وبين أيدينا خير الدساتير - مظنة رشاد .

لقد كتب ابن رشد (أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التي تصح بها التزكية ، ليس يُعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة المشارك لنا في الملك أو غير مشارك ، إذا كانت فيها شروط الصحة) ص ٤٩ .

وهذا القول لا يمثل تقديمية خارجة على الخط الإسلامى ، بل يمثل قاعدة إسلامية تأمر بطلب العلم ولو كان في الصين الكونفوشيوسية ، وتأمر بطلب الحق من كل من جاء به ولو كان كافراً ، قاعدة لم تقيد العلم بمكان ولا بكائن ، ولم تلون العلم بلون أحمر أو أزرق ، لأن العلم حقيقة طبيعية أو إنسانية ، مادية أو روحية ، وأى مظهر من مظاهر العلم يمثل صحة عقلية ، ويزيد في دائرة الإدراك ، ولهذا

كانت (آية) العلم ، ووسيلته القلم أول ما نزل به القرآن الكريم ، لأن العلم بالكون وبالناس يوصل إلى الله ، ويزيد من خشيته

وحديث القرآن عن العلم غير مقيد بقيد ، أو مخصص بخاصة ، فالله (الذي عَلمَ بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) لأنه (لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ، ولأنه (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

وحديث الرسول عن العلم لم يتجاوز سبيل القرآن ، (تعلموا العلم وعلموه الناس) ، (اطلبوا العلم من المهد إلى الحد) ، (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع) .

هكذا صار طلب العلم فريضة دينية من مات في أدائها مات شهيداً . . وكانت الدعوة إلى تعلم اللغات غير العربية ، واللغات أبواب المعارف ، والمعارف تقي الشرور ، ومن ثم كان (مَنْ تَعَلَّمَ لُغَةً قَوْمِ أَمِنَ شَرَّهُمْ) وكان معاذ بن جبل يسأل عن الشر ليجنبه ، على حين كان الآخرون يسألون عن الخير . والدارس للفرق الإسلامية يعرف حرص المسلمين على علم ما عند أعداء الإسلام ، وكانت تعقد المجالس والمناظرات لمجاملة هؤلاء الأعداء .

إذن ، فلم يكن ابن رشد مستكشفاً جديداً ، ولم يكن إلا قلماً إسلامياً رشيداً ، فإذا جاء من يزعم أهمية مبدئية (لوجهة نظر ابن رشد التراثية هذه في البحث العلمي التاريخي والتراثي المعاصر المتوجه نحو الكشف عن «جسور» بين الجدلية المادية التاريخية والتراثية من طرف ، والتراث العربي الفكري التقدمي من طرف آخر) ص ٥١ . فإنه يعلن عن جهله بالخط الإسلامي أولاً ، ويعلن عن أن التراث الإسلامي يملك من المضامين والمعطيات ما فيه كل الغناء .

ولكن الأستاذ الجامعي الذي يصف هذا الأفق الإسلامي الواسع بأنه (ينطوى على تناقض ذاتي) ص ٥١ ، يريد أن يلوي ذراع ابن رشد (انطلاقاً من حرصه العميق على جعل «العقل» الإنساني الحكم الفصل في مسائل الوجود عموماً) ،

ويزعم أنه (يتحدى الدين في واحد من أخطر الأمور التي يقوم عليها ، وهو ضرورة وجود « النبي ») ، ويضيف أنه (من أجل تدعيم هذا الموقف يجد ابن طفيل نفسه مدعواً لأن يأخذ موقفاً « عدمياً » من التراث ، حين يرى عبر سياق قصته الشهيرة « حيّ بن يقظان » أن الإنسان قادر على الوصول إلى الحقائق القصوى ، حين يستخدم عقله على نحو دقيق) ويشيد بهذا الموقف على أساس أنه (طموح مشروع في حينه ، في التصدي للهيمنة الأيديولوجية الإقطاعية التي تجسدت في صيغة النصية الدينية الوثوقية) ص ٥٣ .

هكذا يحاول الدكتور أن يوهم قراءه أن الدين يخالف العقل ، متجاهلاً أن الدين الإسلامي دين الفطرة (فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الدين غريزة ، لا كما يقول علماء النفس ، بل كما صور الله سبحانه في قوله : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) فلو خلّى بين المرء وربّه ما احتاج إلى دليل ، ولكنها صوارف الحياة وشواغل الغرائز الدنيا ، فكانت الحاجة إلى الرسل مبشرين ومنذرين وهادين إلى سواء السبيل . ولقد أكبر القرآن من شأن العقل في قصة إيمان إبراهيم ، عليه السلام ، وفي مطالبتنا بالنظر في ملكوت السموات والأرض ، وفي أنفسنا وفي آثار السابقين لهتدي ، وابن طفيل إنما يقيم الحجة على الضالين ، بأنهم لا عذر لهم ، إذا لم يؤمنوا ، وإن لم يأتهم رسول ، فكيف وقد جاءتهم الرسل ، وفي رعوهم عقول ؟ ولقد سبق أن تناولنا هذه القضية في معرض ما قدم الدكتور في كتابيه السابقين . وبينما أن الاجتهادات العقلية السليمة توصل إلى الله ، سبحانه ، وأن كل ما كتب الفلاسفة منذ طاليس إلى أرسطو إبان الوثنية اليونانية إنما كان يتحدث عن حركة الكون عن طريق محرك من خارجه ، وأن كل ما كتب الفلاسفة الإسلاميون من الكندي إلى ابن رشد إنما يدعمون النقل بالعقل ، وقيمون الحجة على (أولئك

الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صمٌّ بكمٌ عمىٌ فهم لا يرجعون) .

الشعوبية :

خاطب الله سبحانه المؤمنين بقوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله) ، فشرط الخيرية بالإيمان والسلوك القويم ، ولم يخصها بجنس ، لأن الدعوة للناس كافة ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . .

لكن الدكتور- فى سبيل البحث عن مبرر للشعوبية- زعم أن هناك مبدأ (العرب خير أمة) ، وأن معاوية بن أبى سفيان قال مخاطباً العرب : (إن الله اختاركم من الناس وصفاكم من الأمم ، كما تصفى الفضة البيضاء من خبثها) ص ٥٨ ولم يكن معاوية يخاطب إلا المسلمين وإن كانوا عرباً .

وإذا كان قد نسب إلى عمر قوله : (العرب قادة الإسلام) فهو يحدث عن حقيقة المرحلة فى فجر الإسلام ، لا أن العرب سيطلون قادة على الدوام . ولقد دخل الإسلام من هم غير العرب - فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - وزاد دخولهم فى عهد أبى بكر وعمر ، وكان لكثير منهم دور قيادى فى مجالات مختلفة .

ونحن نعلم أن الرسول الكريم أقر (باذان) الفارسى على حكم اليمن ، بعد دخوله فى الإسلام ، تأليفاً له ، واستعانة بخبرته ، ومع هذا فالشيوعيون أنكروا هذا الفعل ، وزعموا أن الرسول اعترف بالاستعمار الفارسى . وتدوين الدواوين فى عهد عمر اعتمد على الخبرة الفارسية .

ولا شك في أن الطب والزراعة والصناعة والبناء نهضت في المجتمع الأموي بأيدي فارسية ورومية وهندية .

وسالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب ، وعبد الله بن المقفع أشرفوا على ديوان الرسائل في عهد بني أمية ، وهو أشبه بوزارة الإعلام في عهدنا ، بالإضافة إلى عمل وزارة الخارجية ، وخطورته في أنه مطلع على أسرار الدولة . وإذا كان الأمويون ذوي نخوة عربية ، فلأنهم لم يكونوا متعصبين ضد غير العرب .

ثم إن الحكم الأموي قام على كواهل أهل الثقة والخبرة ، بسبب الخلافات التي قامت بينهم وبين العلويين والزبيريين والخوارج وغيرهم من المنشقين ، ولا شك في أن عناصر من الفرس وغيرهم من الشعوب الإسلامية أيدت أعداء الأمويين ، فصاحب السلطان - وإن عدل - مكروه ، لأن الطامعين في السلطة والحاquدين على الحاكمين يروجون ضدهم الشائعات ، ويفترون عليهم بالباطل ، والجماهير الكادحة المعانية تجد في اتهم ذوي السلطان وانتقاص قدرهم ما يعزّهم ، ويخفف من عذاباتهم .

لهذا كان شعار (أهل التسوية) قوله حق أريد بها باطل ، وما أكثر الشعارات التي تتحدث عن القيم الإنسانية العالية ، من الحق والخير والعدالة والمساواة والحرية ، فإذا ملك أصحاب هذه الشعارات كانوا أشد قسوة وأعنف سلوكاً .

والمعروف أن الجماهير لا تطمع في مراكز السلطة ، لأنها غير مهيأة لذلك ، ولأن السلطة لا تقوم إلا بأفراد ذوي طبيعة خاصة ، قد يكون منهم قادة الجيوش ، كما يكون منهم قادة اللصوص ، وفي السلطة يلتقي الطبيب والجزار ، والطيب والخبيث ، وقد يُحرز الأشرار انتصاراً بين الجماهير ، لأنهم يجيدون اللعبة . . لهذا لا ينبغي أن نربط « الشعبية » بالجماهير الفارسية ، بل بدوى المصالح المشتركة .

(إن سقوط الدولة الأموية التي كانت تمثل البناء السياسى الإدارى الفوقى للعلاقات الإنتاجية الإقطاعية ، والتي ساهم فى إسقاطها - بشكل خاص - إقطاعيو وعقاريو ومرابو الشعب الفارسى والتركى ، كان إيذاناً ببدء مشاركة هؤلاء فى بناء الدولة العباسية العتيدة) ص ٦٠ .

هذه حقيقة أسيئت صياغتها حتى تستخدم أهدافاً اشتراكية .

فقد كان هناك صراع بين الأمويين والهاشميين ، فوقف إلى جوانب الهاشميين كل أعداء السلطان ، سواء أكانوا من الموتورين ، أصحاب السلطان السابق من الفرس وغيرهم ، أم كانوا من ذوى المطامع والانتهازين الذى يركبون ظهر الموج ، وكل هؤلاء يعملون على تحريك الجماهير ، عن طريق الشعارات والادعاءات التى تثير الغرائز وتلهب الشهوات ، ومن هنا كان قول ابن قتيبة : (إن الذين اعتنقوا الشوعية هم السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكره القرى) ص ٦١ .

لأن المحركين يعملون فى الخفاء ، ويظهر على السطح أولئك المغرّ بهم . . ومن ثم ينزل العقاب بالذيول من دون الرؤوس ، وهذا ما يفسر قول الحجاج إلى عامله بالبصرة (إذا أتاك كتابي ، فانف من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا) ص ٦١ ومن يعرف أن البصرة كانت مسرحاً لحركات الخوارج والزنج والقرامطة يدرك صواب نظرة الحجاج ، ، ذلك لفقد التجانس بين سكان هذه المدينة وما حولها ، وللظروف الصعبة التى كان يعيش فيها الذين يعملون فى الأهوار ، فى أرض سبخة وجو حار مشبع بالرطوبة والبعوض والذباب ، ولأن ذوى المآرب السياسية كانوا أقدر على إثارة النبط والسودان الذين كانوا يعملون فى فلاحه الأهوار ، كما كانوا قادرين على إثارة القاعدة الشعبية من العرب .

ومما لا شك فيه أن كثيرين من العرب خرجوا على بنى أمية فى صفوف العلويين والزبيريين والخوارج ، وتحت قيادة خالد القسرى وعبد الرحمن بن الأشعث ، وبعضهم لجأ إلى التصعلك وخرج ينال حقه بسيفه .

وكل هذا كان تحركاً طبيعياً ، يحدث مثله - على مدى التاريخ الإنساني - في كل البيئات الاجتماعية والسياسية دون حاجة إلى أن نلبس الماضي ملابس عصرية ، ودون حاجة إلى تكييف هذه الأحداث تكييفاً ماركسياً .
وليس بدعاً أن تنشط أقلام تؤيد هذا الجانب أو ذاك ، وبخاصة إذا وجدت هذه الأقلام من يحميها أو يعزها ، أو يغرر بها .
ولقد كان - إبان الحكم الأموي - شعراء وخطباء يؤيدون الزبيريين أو الشيعة أو الخوارج أو حركة خالد القسري أو ابن الأشعث ، وكان من الصعاليك شعراء يبررون مواقفهم .

فإذا كانت حركة العباسيين ، وشارك الفرس في انتصارها ، ظهرت أقلام تطعن على العرب ، وأخرى تبين فضل العرب ، لكن هذه الأقلام لم تكن لتعبر عن القاعدة الجاهلية الإسلامية . التي تمتد ما بين الصين والمحيط الأطلسي . . فالتاريخ لا يكاد يذكر من يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ومن ثم لا ينبغي أن نجسم ما كان يحدث ، فتزيف التاريخ ، مجرد أننا نبحث عن جذور للاشتراكية ضاربة في أعماق التراث العربي الإسلامي .

الحركة الثقافية :

يقول الدكتور (إن ذلك الهجوم الشعوي الإقطاعي على العنصر العربي قد لقى بطبيعة الحال ردود فعل متعددة من العرب ، تركزت في الدفاع عن الثقافة العربية عموماً ، تلك الثقافة التي التحمت في تلك المرحلة بالمنظومة الإسلامية الدينية والاجتماعية واللغوية والفكرية) ص ٦٢ .

(إن الإصرار على ذلك الموقف من اللغة العربية الذي وجه ضد الشعويين أدى إلى البحث عن موقع الشعر العربي الجاهلي ، والدفاع عن هذا الأخير) ص ٦٢ .
وبما يعرفه تلاميذ المدارس أن الحركة الثقافية بدأت مع نزول القرآن الكريم في

صورة من التعاليم الدينية مصحوبة برواية الشعر (ديوان العرب) ، وكان ابن عباس يجلس للشعر في مسجد الرسول ، كما يجلس للتفسير والفتيا . . فلما كان عهد التدوين نشط المسلمون - عرباً وغير عرب - في تسجيل التراث الفكري ، شعراً وأخباراً ، ونوادير ، إلى جوار حديث رسول الله ، وقراءات القرآن ، وبيان أسباب النزول ، وشرح غريب القرآن وغريب الحديث وتدوين أصول التشريع والبلاغة والنحو والتاريخ ، كل ذلك خدمة للنص القرآني ، وللدين الإسلامي . . وكان من حامت حولهم الشبهات من غير العرب أكثر المسهمين في هذه المجالات أمثال أبي عبيد وحامد الراوية وخلف الأحمر .

ولم يكن ما نسب إلى حماد الراوية وخلف الأحمر (من انتحال) الشعر الجاهلي ثمرة شعبية بقدر ما كان وسيلة كسب وإثبات مهارة .

وإذا كان معظم ما حفظ التاريخ من الشعر الجاهلي أسهم في جمعه هؤلاء الذين نبأ في اتهامهم ، كان علينا أن نعرف أن مرد هذا الاتهام إلى المنافسة التي كانت قائمة بين العلماء ، وبخاصة بين علماء البصرة والكوفة ، وقديماً قيل عن هذا التنافس لضراوته إنه (كتغاير التيوس في الزبينة) .

ومع هذا ، فالدكتور يزعم أن (الإقطاع العربي قد نجح في إكساب صراعه مع إقطاع الشعوب الأخرى المنطوية تحت إطار الدولة المركزية ، صفة الصراع بين العرب عموماً ، واللاعرب عموماً ، بين اللغة العربية واللغات غير العربية) ص ٦٣ .

على حين اقتصر وجود اللغات غير العربية على الدواوين قبل عهد عبد الملك بن مروان (١) وعلى أسماء أدوات الحضارة التي دخلت المجتمع الجديد . وعلى بعض العبارات في ألسنة الجوارى ، وفي المجتمعات الخاصة المحددة ، أشبه بما يجري في

(١) يلاحظ أن الذي قام بتعريب الدواوين فارسي ، يسمى زاذان فروخ الأعور .

مجتمعاتنا العربية حتى اليوم . . لكن المثقفين - على مستوى الشعوب الإسلامية - كانوا يفكرون بلسان العرب والقرآن ، حتى أعداء الإسلام فيهم . ولم يعد المثقفون الفرس إلى لغتهم يؤلفون بها إلا في وقت متأخر من الدولة العباسية ، بعد أن تمزقت الدولة إلى دويلات ، فمن أين للدكتور هذا الصراع بين العربية واللاعربية ، وقد كان حظ الفارسية مقصوراً على الترجمة منها إلى العربية ، وكان ابن قتيبة ، كما كان ابن المقفع ، من المروجين للفكر الفارسي . ومن الخطأ الباغي أن نعلل لظهور الزندقة ، على أنها مظهر شعوي ، وأن (الإسلام نشأ في نطاق عربي ، مما جعل العرب ينظر إليهم متصلين بالإسلام أوثق وأشد اتصالاً ، إلى درجة بدا فيها هذا الأخير قد تحول إلى الوعي الذاتي والديني والاجتماعي والسياسي والأخلاقي للعرب ، وبذلك أخذت الدعوة إلى دين آخر تظهر على أنها مناهضة للإسلام والعرب في آنٍ واحد) ص ٦٤ .

تعليل يوحى بأن غير العرب كانوا زنادقة أو كانوا يبطنون المانوية ويظهرون الإسلام ، مع أن معظم المؤلفين والمصنفين في الإسلام - تفسيراً وحديثاً وتشريعاً وتأريخاً وأدباً ولغة ونحواً وفلسفة وعلومًا متنوعة - كانوا من غير العرب ، أو على الأصح كانت جذورهم غير عربية ، وكان للبيئة العربية الإسلامية فضل إنجابهم .. ثم إن العرب لم يكونوا جميعاً أهل طهارة ونقاء ، بل كانوا مشاركين في كل ما راجع في هذا المجتمع الكبير . ويلاحظ أن أكثر الذين اتهموا بالزندقة في المجتمع العباسي - على سعته - كانوا قلة من أصحاب الكلمة ، الذين لعبوا أدواراً سياسية ، كابن المقفع ، أو كانوا عامل فساد اجتماعي ، كبشار . . وكان الاتهام بالزندقة مجرد وسيلة للخلاص منهم .

فإذا قال الجاحظ ، وهو من ألد أعداء الشعوبية ، وليس بعربي الأصل : (إنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا من طريق الشعوبية ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل

به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به ، وكانوا السلف) ص ٦٥ .

فإن هذا القول لا يتجاوز التحليل النفسى لمن أصابته هذه الآفة ، ومن ثم لا يعدّ تصويراً لصراع بين العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية ولا بين الدين الإسلامى وغيره من أديان سابقة لهذه الشعوب .

التراث والتزعة السلفية :

على طريقة الخلط المقصود لتزييف الحقيقة الإسلامية ، يصف النصوص الإسلامية بأنها (لا تحوز على بنية أيديولوجية متجانسة) ص ٦٨ . ويبنى على هذا الوصف أنها (لم تكن قادرة على أن تتخطى مجموعة من الإشكالات والصعوبات التى واجهتها . ولن تكون قادرة عليه كذلك فى المستقبل) ص ٦٨ . ثم ذكر الذين حاولوا (تطويع المشكلات المستعجدة) ، بأنهم وقعوا (فى مفارقة وتناقض مأساوى بليغ مع العصر الذى يعيشون فيه) ص ٦٨ ، وأنهم أشبه (بدون كيشوت) الذى كان يحارب طواحين الهواء ليثبت قدرته (الباهرة) على القتال ، وليغطى حقيقة عجزه عن ممارسة الحياة . ثم يبنى على هذه (الفرضية الواهمة) (أن تلك النصوص « الأصلية » نفسها تطالب - فى حدود كونها غير متجانسة - بشكل واضح مكشوف ، وملح أحياناً باستخدام « التأويل » و « النظر » و « الاجتهاد » العقلانى فيها نفسها) ص ٦٨ .

ويتحدث عن التزعة السلفية بأنها (الإلحاح على « الأصل » المطلق الذى لا يخضع للبحث العلمى ، لكونه ظاهرة غير عادية ، خارقة) ص ٦٨ . وإن كانت قد أرغمت على أن تعدل من بعض جوانبها الثانوية ، تحت ضغط الحدث الاجتماعى والتقدم العلمى) ص ٦٩ . لكنها (بموقفها الانبطاحى الوثوقى تجاه التراث ، تشكل عائقاً جديداً خطيراً على طريق البحث العلمى لهذا الأخير ،

وللتاريخ العربي الفكري والحضارى بشكل عام) ص ٦٩ .
وبناء عليه ، فإن (البحث العلمى الذى يطمح فى استكشاف التراث والتاريخ
العربى منطلقاً من مواقع التحليل والتركيب التاريخيين النقديين ، يتحول - على
أيدى أصحاب تلك النزعة - إلى ادعاء زائف ضحل بالعلم ، أما ذلك الذى
يسمى « بالعالم » من أولئك التراثيين فهو - فى حقيقة الأمر - ليس أكثر من إنسان
يتمتع بحافظة جيدة ، وبعقل نصّى أمين لذلك « الأصل » الذى عليه على الدوام
أن « يطابق » بينه وبين الأحوال المستجدة مهما اكتسبت صيغة هذا التطابق من قسر
وتصنّع وإقحام واعتمال) ص ٦٩ .

إن هذه النزعة السلفية تتأمل التراث (باطمئنان أبله ، وبشعور مبرر بالنقص
والدونية ، تدافع عنه بحاقة ، وتعصب ، وتخلق ما لا يحصى من المبررات ،
لأكسابه ، بشكل أو بآخر ، مشروعية اجتماعية وصدقاً معرفياً ، ليس من أجل
العصر الذى توجد فيه فحسب ، وإنما من أجل كل العصور ، وإذا أمعنا النظر فى
ذلك الأمر نجد أن تلك النزعة توصلنا إلى القناعة بضرورة أخذ النصوص الأصلية
المقدسة بصفها « ققماً » سحريراً ينطوى فى ذاته على الماضى والحاضر
والمستقبل) ص ٧٠ .

* * *

هكذا يأخذ على النصوص الدينية أنها تخضع (للتأويل والنظر والاجتهاد
العقلى) مع أن هذا من أسرار عظمتها وقدرتها على الاتساع لكل ما يجد به التطور
الاجتماعى . . فالنصوص القرآنية وهى المصدر الأول للتشريع ، صيغت بأسلوب
البلاغة العالية ، عبارتها موجية ، يغلب عليها الإجمال لا التفصيل ، وكأنها تقفنا
على روح التشريع ، ولا تضعنا مع أحكام جامدة على جزئيات محددة . . والسنة
النبيهة فصلّت (فى تطبيقها) ما أجمل القرآن . . لكن إمكانية الحياة آن ذاك لم
تكن تتسع لكل ما ينشأ ويجد مع المتطلبات الإنسانية فى كل زمان ، ومن ثم كانت

النصوص (الأصلية) من السعة بحيث تتيح لعلماء كل جيل أن يعمقوا النظر فيها ،
مستهدين بسنة رسول الله وصحابته ، مطورين الفهم والأحكام لما يصلح أمور
دينهم ودنياهم .

ومن ثم كان الاجتهاد أحد مصادر التشريع ، والاجتهاد عماده القياس ،
والقياس عماده العقل ، الذي أكبرت النصوص الإسلامية من دوره كما أكبر
المسلمون .

والحديث الشريف الذى يقول : (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل
مائة سنة من يجدد لها دينها)^(١) دعوة صريحة إلى الاجتهاد وإلى التجدد .
ومع رخصة (التأويل والنظر والاجتهاد العقلى) فإنَّ للأمر آدابه التى لا تفتح
الطريق أمام الأدعاء والدخلاء ، وهذه الآداب لا تقوم على علوم القرآن والحديث
واللغة فقط ، بل على الورع والتقوى ، خشية أن يرى المرء رأياً بجانب الصواب ،
أو تكون فيه شبهة بالرغم من التشجيع النبيل المتمثل فى القاعدة التى تقول : (من
اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر) .

وبهذا لم يجدد التاريخ الإسلامى خلال ألف وأربعمائة عام إلا بأفراد معدودين ،
هياً الله لهم من المواهب والأسباب ما جعلهم أقدر على أن ينظروا فى هذه النصوص
(القياقم السحرية) ويستخرجوا منها حلول المشكلات الجديدة ، ويستفتحوها بالذى
هو خير للإنسانية مغاليق وأسراراً لم تكن لتبوح بعطاءاتها لكثيرين .
وإذا كان من (السلفين) من يحمد بالنصوص أو يحمده به فالذنب ذنبه هو ،
لأنه لم يحسن التأدب بآداب ما عرض له ، ولم يكن يتبهاً له من المواهب
والأسباب ما يعينه على هذا الطريق .

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقى

وهذه آفة الكثيرين الذين يتحمسون بغير قدرات ، فيكون مثلهم مثل (دون كيشوت) أو :

كناطح صخرة يوماً ليوهنا فلم يَضِرْها وأَوْهَى قرْنَه الوعلُ

وهذا هو حال (طيب تيزي) وأمثاله من الذين يحاولون أن يتلمسوا مطاعن إسلامية ، مع أن الأمر - بالنسبة للتشريع الإسلامي - لا يتجاوز كونه دستور المجتمع الإسلامي ، تحترم وثائقه ، ويرجع المجتهدون إلى نصوصه يستنطقونها كما يرجع رجال القانون إلى الدستور الذي وضعوه بأنفسهم ، ومع هذا يستهون مواده ، ويتأولونها ، ويعيدون النظر في ألفاظها وعباراتها ، ويختلفون .

ومن عظمة التشريع الإسلامي أن أعمال المجتهدين ليست ملزمة ، باختلاف المجتهدين رحمة ، وهناك رخصة (استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوك وإنْ أفتوك) . . فالضمير الإسلامي وإرادة الخير هي الأصل ، والبوصلة التي تحدد الاتجاه (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى) .

وبهذا يمكن فهم المبدأ الذي يقول : (الأصول جملة وتفصيلاً تصدق على كل زمان ومكان) ص ٧٠ أو بتعبير أدق (تصلح لكل زمان ومكان) ، لأننا - ومعنا هذا الدين القويم - لسنا في حاجة إلى أن نبحث كل يوم عن دين جديد ، فما دامت متطلبات الحياة المتطورة تجد كل ما يقننها ويحكم سيرتها في هذا التشريع السماوي ، فما حاجتنا إلى اجتهادات ماركس أو لينين أو ماو ، وكلها اجتهادات تخلق صراعاً طبقياً فتمزق العلاقات الاجتماعية ، وتلهب الأحقاد والضغائن ، وتطلق الغرائز فيتحول المجتمع إلى غابة مظلمة محكومة بالوهم والخوف والافتراس ؟

* * *

يقول محمد المبارك : (إن انطلاقة العرب الكبرى لا تفسر ، لا بالنسبة للأفراد ، ولا بالنسبة إلى جمهور الشعب يومئذ ، لا بدافع اقتصادي ، أو بتغيير آلة

الإنتاج ، ولا بتغيير نظام التملك لوسائل الإنتاج ، ولا بدافع المجد القومى ، وإنما تفسّر بالدرجة الأولى بالإسلام الذى آمن به العرب . . . ولا مانع من أن تكون هناك عوامل إضافية مساعدة) ص ٧٢ .

كل ما يريده (المبارك) أن الإسلام يسيطر على مسيرة الحياة العربية منذ ألف وأربعمائة عام ، يكبح جماحها ، ويعدّها بقدراتها ، ويدعم إنجازاتها وانتصاراتها ، ولم تكن المبادئ الإسلامية - فى يوم من الأيام - قيداً على الفكر ، أو الطموح ، أو الاجتهاد ، فنحن بهذه المبادئ التى انطبع بها الوجدان العربى والعقل العربى - خلال هذه المسيرة الطويلة - أقدر على الانطلاق نحو الآفاق المرجوة ، بمزيد من المراجعة ، وبمزيد من صدق القول والعمل ، وبمزيد من الانفتاح .

ويؤكد مراد وهبه هذا المعنى بقوله : (تمت فتوحات المسلمين بفضل ما لديهم من عقيدة دينية ، يريدون لها الغلبة والانتشار) هامش ص ٧٢ فإذا أراد المسلمون العرب أن ينهضوا بأعباء حاضرهم فإن (أمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها) ، كما قال الإمام مالك لأن البنية الإسلامية صارت صميم البنية العربية . . ولو أننا حاولنا التخلّى عن الجذور انقطعت عنا الموارد الروحية ، وجفت أقدامنا ، ولم تعد لدينا القدرة على الانطلاق .

ولعل الدماء الإسلامية التى تتدفق اليوم حارة فى عروق الشبيبة على مستوى الساحة العربية ، ولا تجد من القادة ما يحسن توجيهها ويثمر نشاطها ما يعلن عن حقيقة أصيلة تفيد أن الذين وقعوا فى شباك ومقولات الاستعماريّن الأحمر والأزرق لا يصلحون للقيادة ، لأن صدورهم زافت وقلوبهم دسّست ، وعقولهم التأتّت . ويتمثل هذا فى قول ابن خلدون (المغلوب مولع أبداً بالاقتراء بالغالب ، فى شعاره وزيه ونخلته ، وسائر أحواله وعوائده) ص ٧٨ وهذا ما يطبقه الاستعماريون اليوم تحت زى (التعاون الثقافى) بحيث صرنا نجد فى الساحة من يتقاتلون لإعلاء شأن الثقافة السكسونية أو اللاتينية ومن يتقاتلون لإعلاء الفكر الماركسى أو الماوى ،

لأن كل هؤلاء يتحركون بحركة المغلوب الذى انقطع عن جذوره ، فصارت تلعب به الريح .

وليس هناك شك فى أن من فساد القيادة - على الجانب الآخر - أن نجد من يدافع عن التراث على أساس (أن تاريخنا العربى الذى بين أيدينا ليس بحاجة إلى تحليل ، فما وصلنا منه محلل مدروس غير قابل للطعن) ص ٧٣ .

إن مثل هذا العبث أشبه بموقف الأم الجاهلة التى يدفعها حب ابنها إلى مزيد من التدليل حتى تفسده ، أو مزيد من الخوف عليه ، حتى تضعف مواهبه وقدراته الذاتية .. وهذا يفتح الطريق أمام الانتهازين ليستنكروا (شد الإنسان إلى هذا الماضى ، بشكل يفصمه عن عصره ، ويجعل منه عنصراً غريباً رجعيّاً معادياً لآفاق عصره ولطموحه فى التقدم) ص ٧٣ .

وهم محقون فى هذا الاستنكار ، لأن الحاضر ابن الماضى ، يتغذى بغذائه ، لكنه لا يقتصر على هذا الغذاء ، فثمة منجزات عصره ، ولهذا كانت قدراته وطموحاته تختلف فى كثير عن قدرات الماضى وطموحاته .

ونحن - وإن كنا نعتز بهذا الماضى ونستعين به - فإن من واجبنا أن نعى أن هذا الماضى لا يمكن أن يعيش مرتين .

كما أن من فساد القيادة أن نزعّم أنه (ما تحركت أمة مؤمنة من غير العرب للنهوض بريقها إلا لامتزاج دم العرب بدمها) ص ٩٣ فإن من الغباء أن يدفعا حب العرب إلى التعصب للعصر الجاهلى ، إلى حد العمى ، فنقول إنه (لما نشر العرب الإسلام حدثت ثلثة فى جدول قيمهم ، تحولوا عن أسس الترية الجاهلية التى كانت تقوم على مبدأ المرأة وأهملوا قاعدة اصطفاء الخصال الكريمة وتثبيتها بطريق الزواج) ص ٩٠

مثل هذه الأفكار تنفّر من العشوائية الطائشة التي تحسب - في أقلام المغامرين والحاقدين - من حساب التراث وهو برىء .

ولاشك في أن الدعوى إلى (إحياء العادات الإسلامية وإماتة العادات الأعجمية في كل مظاهر الحياة ، ومن ذلك التحية واللغة والتاريخ والزى والأثاث ومواعيد العمل والراحة والطعام والشراب والقدوم والانصراف والحزن والسرور إلخ ، ومقاطعة المحاكم الأهلية وكل قضاء غير إسلامي والأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التي تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة) ص ١٠٥ ، إنما هي دعوة إلى الانعزال في الماضي ، وإلى مصادرة الحاضر ، ولو أننا عملنا على تطوير هذا الماضي بحيث يصبح الحاضر امتداداً طبيعياً له ، وبحيث نستجيب لمتطلبات العصر ، دون أن نتخلى عن القيم الإسلامية الكريمة ، لما اختل توازننا وصرنا نمشي برجل كسيحة . . ولعل التطور التشريعي يزودنا بقدر من الوعي لما تفرضه المعاصرة ، فإذا كان الإسلام مصدقاً لما بين يديه ومن خلفه فإنه أضاف وطور ما يلائم الحاجات الإنسانية المتطورة وترك الباب مفتوحاً أمام لإجماع الأمة واجتهاد المجتهدين .

التراث ونزعة المعاصرة :

وإذا كانت النزعة السلفية (تمثل ، بصورة عفوية أو واعية منهجاً في النظر إلى التاريخ والتراث يقوم على تمجيد وإطلاق « القديم » تمجيذاً ماضوياً) ، فإن (« التراثية العدمية » أو « المعاصرة العدمية » ، رؤية غير متماسكة إلى التراث والتاريخ يستخدمها أصحابها لتمجيد وإطلاق « الجديد » وبالتالي لمعارضة القديم معارضة مبدئية) ص ٩٨ .

(إن نزعة المعاصرة - في منحها التراثي العدمي - ترفض الأيديولوجية الميتافيزيقية تلك ، لتقع هي نفسها في قصور أيديولوجي معرفي آخر ، هو تضخيم

وإطلاق عنصر « الجديد » على حساب « القديم » ، الأمر الذى جعلها تنجرّ إلى مواقع رؤية جموحة عدّاءة تجاه التراث والتاريخ العربى (ص ٩٩ .

(إن الأساس النظرى الفلسفى لهذه النزعة يكمن فى عجزها عن استيعاب العلاقة الجدلية بين الجديد والقديم) (ص ١٠٠ .

(إن هذا الرفض اتسم بالسطحية اللاتاريخية واللاتراثية بحيث لم يكن أصحاب هذه النزعة قادرين على اكتشاف الحلقات الإيجابية فى ذلك « القديم » وعلى إدراك أن هذه الحلقات يمكن - إذا طرحت واستلهمت بصورة تاريخية وتراثية جدلية خلّاقة - أن تتحول بعد تطويعها إلى عناصر من الجديد نفسه) (ص ١٠١ .

لقد طمح ممثلو « نزعة المعاصرة العدمية » إلى تحديث بيئة المجتمع العربى عن طريق يتشعب إلى منحيين :

١ - رفض التراث والتاريخ العربى ، انطلاقاً من الاعتقاد بأنها يشكلان أحد المعوقات الكبيرة لعملية التحديث تلك .

٢ - تبنى الحضارة الأوربية « الرأسمالية » الوافدة ، فى جوانبها العلمية والفكرية والصناعية ، بشكل عام ، وفى بعض متطلباتها السياسية والسياسية الاقتصادية ، أحياناً (ص ١٠٣ .

(إن ممثلى هذه الحركة لم يكونوا أكثر من « منفذين » لمطامع وإرادة القوى الإمبريالية الدخيلة) (ص ١٠٤ .

· (لقد أتهم إسماعيل مظهر ، كما أتهم معه طه حسين ، ومن قبله محمد عبده ، وآخرون عديدون ، بارتباطه بالاستعمار البريطانى أو الفرنسى أو الطليانى ، وبأن آراءه التحديثية لم تكن إلاّ بتوجيه من هذا الاستعمار) (ص ١٠٥ .

إلى هنا يمكن قبول هذا التشخيص لنزعة التجديد التي تقدم صفوفها شليل شميل وسلامة موسى ، وإسماعيل مظهر .

أما أن نخلط بينها وبين (التجديدية الدينية) فنزعم أن التجديدية الدينية (قد أخذت مواقف من التراث تكون حدًا أدنى من التقارب الموضوعي بينها وبين نزعة المعاصرة ، في سياقها العدمي ، فكلاهما يتوجه توجهاً ليبرالياً ، إنها التجسيد الأيديولوجي لمطامع الطبقة البورجوازية العربية المفجعة بأجنحتها الوسطى) ص ١٠٧ . فهذه هي المصادرة والرفض لكل ما ليس (مادياً اشتراكياً) ، وإنه لمنهج عدواني أشبه بالذي يقول (من ليس معنا فهو علينا) ، وهو منهج غير مطبوع بالمرونة والتعاون من أجل بناء الإنسان لأنه قائم على العصبية العمياء ، والحقن الأسود ، (أنا ومن بعدى الطوفان) .

ولهذا لا يعترف بحق غيره ، ولا يرى أن غيره يمكن أن يكون على حق ، ومن ثم يحرص على تقديم أفكار الآخرين وقد غير فيها وعدل ، وحذف منها وأضاف ، بحيث لا يستطيع أصحابها أن يتذكروا لها ، ولا أن يقولوا هذه بضاعتنا .

فالمجددون في الإسلام أمثال : الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وخالد محمد خالد ، (اعتبروا العقل موازياً للإيمان في أهميته ، إن لم يكن أكثر أهمية منه ، بل ينبغى علينا - كما يؤكد الأفغانى - أن نرفض محاولة أولئك الذين يحملون « نصوص القضاء والقدر على معنى . يوجب عليهم ألا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل ») ص ١٠٨ .

(إن الأفغانى - في كل مواقفه تلك - كان ذا أفق اجتماعي تقدمي مفصح عنه بوضوح) .

(لقد كتب الكلمات التالية ذات الدلالات الكبيرة : « وهكذا دعوى الاشتراكية وإن قلَّ نصراؤها اليوم فلا بد أن تسود في العالم ، إذ ما أقعد الهمم عن

النهوض إلا أولئك المترفون . . أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا »
هامش ص ١٠٩ .

ومحمد عبده - عن طريق التأويل - (رفض جزءاً كبيراً من التراث العربي
الإسلامي القائم على المعجزة ونفي السببية في الأحداث الاجتماعية والطبيعية ،
والسحر الذي ورد ذكره في القرآن - في صيغة التأكيد على وجوده - ينكره محمد
عبده أشد الإنكار) ص ١٠٩ .

* * *

طال حديثنا ، وتكرر ، عن موقف الإسلام من العقل ، فلا حاجة إلى إعادة
القول فيه، وإن كانت عبارة أن العقل (أكثر أهمية من الإيمان) دخيلة على
الأفغانى ، ودخيلة على أى عاقل ، لأنه إذا لم يكن العقل سبيلاً إلى الإيمان ،
ولنقل الإيمان بأى معقول ، فما قيمة هذا العقل ؟ أهو العقل للعقل ؟
ثم إن أحداً من عقلاء المسلمين ، جبريين وقدريين ، لم يبلغ به (التوكل) ،
ولا بلغ به الإيمان بالقضاء والقدر ، حدّ (الوقوف عن طلب المجد ، والتخلص من
الذل) ، (ولله العزة ولسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون) أن (كلمة
الله هى العليا) ، ولا يجعل (كلمة الذين كفروا السفلى) إلا المجاهدون طلاب
المجد .

أمّا عن اشتراكية الأفغانى ، فهى لا تخرج عما كتب الكثيرون عن (الاشتراكية
فى الإسلام) ، و (العدالة الاجتماعية فى الإسلام) ، و (الإسلام ومشكلة
الفقر) ، و (اقتصادنا) . . إنها اشتراكية إسلامية ، لا شرقية ولا غربية ، كتب
عنها الأفغانى فى إحدى (خواطره) ، مبيناً (أن ما تراه من الاشتراكية فى الغرب
وما يتوخاه من المنافع بهذا المذهب فى شكله الحاضر وأسسها ، وتخبط واضعى
مبادئه ، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ويجعلها محض ضرر ، بعد أن كان
المنتظر منها كل نفع .

الاشتراكية الغربية ما أحدثها وأوجدتها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد في العمل من أرباب الثراء ، الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم في الخزائن ، واستعملوا ثروتهم في السفه ، وبذلوها في السرف والتبذير والترف ، على مرأى من منتجها ، والفاعل العامل في استخراجها من بطون الأرض ومن ترابها . . إلخ) .

وبعد أن عرض لبذور الاشتراكية قبل الإسلام ، وبسط القول فيها من خلال التشريع الإسلامي ومواقف الخلفاء الراشدين ، قال : (ودعوى الاشتراكية وإن قُلْ نُصْراؤها اليوم ، فلا بد أن تسود العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد ، أونسمة واحدة ، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع ، وليس بتاج أو بتاج ، أو مال يدخره ، أو كثرة خدم يستعبدونها أو جيوش يحشدها ، أو غير ذلك من عمل باطل ، ومجد زائل ، وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر)^(١) .

أما ما قاله محمد عبده عن (المعجزة) ، فلا يدخل في دائرة الرفض أو الشك أو الدهشة ، لأن (واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده)^(٢) وهذا ما سبق أن قرره الإمام الغزالي ويكاد يكون بلفظه^(٣) .

(أما السحر وأمثاله ، فإن سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات ، فهي لا تعلق عن متناول القوى الممكنة ، فلا يقارب المعجزة في شيء)^(٤) .

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني - ص ٤١٤ / ٤٢٣ .

(٢) رسالة التوحيد - كتاب الهلال - يوليو سنة ١٩٨٠ ص ٧٨

(٣) انظر تهافت الفلاسفة ص ٢٩١ / ٢٩٢ . (٤) رسالة التوحيد - ص ٧٨ .

ولقد أفاض الأستاذ الإمام في الحديث عن السحر وتعليله نفسياً ، في تفسير المنار ، ولم يرد في لفظه الرفض أو الإنكار بل إنه قال : (وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء في حقيقة السحر ، وفي أحكامه ، وعدّه بعضهم من خوارق العادات ، وفرقوا بينه وبين المعجزة ، ولم يذكروا في فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل ، فهو أمر عادي قطعاً ، بخلاف المعجزة)^(١) .

* * *

وينكر على الأستاذ الإمام دعوته إلى إصلاح الأزهر ، لأنه لو (صلح حال التعليم في الأزهر لمب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة ، كما هبوا لذلك في أول نشأتهم ، فأحيوا ما أمات الزمان من علوم الهند واليونان ، فلا يجدون أمامهم إلا أوربا وعلومها الحية ، ويفهمونها على أنها خير عون على تكميل مدنيّتهم ، فيتعارفون ولا يتناكرون) ص ١١٠ - بحجة (أن تلك المحاولة تحتوى في طياتها مفارقة فكرية نظرية واجتماعية وتراثية) ص ١١١ على حين يشيد بالكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد وجابر بن حيان والبيرونى ، من أئمة العلوم والمعارف المتنوعة ، وقد نهلوا من مصادر غير عربية ، فأثروا الحضارة الإنسانية . . والأستاذ الإمام لا يطالب بأكثر من أن يفعل الخلف كما فعل السلف ، والحضارة الحديثة - بالنسبة لنا اليوم - لا تختلف في شيء عن الحضارة اليونانية والفارسية والهندية ، بالنسبة لعرب الأمس . .

لكنّها طبيعة الاحتيال والتشويه ، من أجل أن يكسب أرضاً جديدة لسادته ، وفى هذا السبيل يعتمد على الدكتور محمد النويهى ، أستاذ النقد الأدبى ، فى بحث له بعنوان : (نحو ثورة فى الفكر الدينى) ، يحاول فيه (أن يصوغ وجهة نظر

(١) المنار - ج ١ ص ٣٩٨ / ٤٠٨ .

مَناسكة في إطار التصور الديني ، كما على أصعدة أخرى ، على حد سواء) ص ١١١ .

(يكتب النهوي : « إذا كان الحديث عن الحياة » لاعتنق العقيدة ، وما يتصل بها من شعائر العبادة ، فإن القرآن لم يشرع إلا التشريع الذي يكفل حياة أمة واحدة ، هي أمة العرب ، في زمن واحد ، هو زمان الرسول عليه السلام) ص ١١٢ .

وفي بحث آخر بعنوان : (الدين أزمة التطور الحضاري) يقول الدكتور النهوي : (إن هدف الحملة الفكرية المطلوبة هو أن نقنع الناس بوجود الأخذ بالنظرة العلمانية الخالصة ، في كل ما يختص بأمور معاشهم ودنياهم ، وهي لن تفلح في هذا إلا إذا أقنعتهم بأن الإسلام - دين كثرتهم - فيما عدا مسائل العقيدة والعبادة ، لا يتناقض مع النظرة العلمانية ، بل ليس من المغالاة أن نقرر أن موقفه من أمور دنيانا هو موقف علماني صرف) هامش ص ١١٣ .

هل يحسن قارئ هذين النصين أن كاتبهما وعى شيئاً مما قرأ في القرآن ، أو مما قرأ عن النظرية العلمانية ؟ .

من أين جاءه أن القرآن خص التشريع بزمان الرسول عليه السلام ؟
وأني له أنه يمكن الفصل بين العقيدة والحياة ، والعقيدة تنظم لشئون الحياة ؟
أليس الإيمان بالله دون الأخذ بالشعائر يحدد مسيرة المؤمن في الحياة ؟
وهل مجرد الأخذ بالزكاة والصدقة ، والإنفاق في سبيل الله ، وعدم كثر الذهب والفضة والتعاون على البر والتقوى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إلى آخر هذه التعليمات القائمة على التكافل والتضامن ، يمثل تغليب طبقة (البروليتاريا) ، عن طريق الاغتيال والتخريب والنهب والسلب ، تحت تأثير الأحقاد والضغائن ؟

إن من يملك قلمًا يكتب في كل شيء لا يحسن أي شيء ، ولهذا وجب على

الكاتبين أن يقفوا عند حدود ما وهبهم الله ، حتى لا يتسع الحرق عليهم أو يتسع بهم ، فلا يسقطوا وحدهم وإنما يساعدون على سقوط غيرهم ، من الأغرار والواهين ، فيتساءل أمثال الدكتور تيزيبي : (أية عقيدة هذه ، تلك التى تتواجد مع حياة لم تنتجها ، أو أية حياة هذه فى أى زمان ، تلك التى عليها أن تقحم نفسها فى إطار تلك العقيدة ؟ ألا يدعونا هذا إلى تذكر سرير بروتست ، قاطع الطريق - كما ورد فى الأسطورة اليونانية - الذى توجَّب عليه أن يقطع بعضاً من أرجل ورعوس ضحاياه البائسين لكى تتطابق أجسامهم مع طول السرير الذى أعده لهم) ص ١١٣ .

إن الأخذ (بالتلفيقية) قد يؤدى إلى (سرير بروتست) لكن الشريعة المتكاملة ، ذات التاريخ الطويل والتجربة السليمة إنما تؤدى إلى صلاح ما أفسدته التجارب الدخيلة التى لم تجن منها الشعوب التى جربتها غير خراب الذم والضماير والحياة (البوليسية) الرهيبة ، والشلل الاقتصادى والأخلاق .

الفصل بين الدين والدولة خطة مرحلية . .

(إن تحقيق الفصل بين الدين والدولة يمثل خطوة أولى ، على طريق الثورة الفكرية فى نطاق العربية الاشتراكية) .

(ولذلك ، فحين تبرز دعوة لتجاوز الدين عموماً فى المرحلة المعاصرة فإنها تمثل فى الحقيقة موقفاً لا تاريخياً مُبتدلاً ، يكتسب أحياناً صيغة الدفاع عن الفكر العلمى والتقدم الاجتماعى والوطن العربى) .

(وإذا كان الأمر كذلك ، فإن محاولة محمد النوبهى ، المشار إليها سابقاً ، يمكن - حسب المصطلح اللغوى السياسى - أن تشكل حلقة متقدمة من تكتيك فكرى سياسى ، ولكنها لا يمكن أن تكون فى نظر المفكرين الثوريين - على الأقل - استراتيجية شمولية) ص ١١٥ .

ومن المعروف أن الدعوى إلى الفصل بين الدين والدولة راجت على أقلام (الثوريين) المصريين في الستينات ، حتى أصبحت تياراً محدداً ساق معه بعض حملة الأقلام الأدبية .

وكان الظن أنهم يصرون عن وطنية متطرفة ، تريد أن تفسح الطريق للدولة حتى تحقق تقدماً اقتصادياً بعيداً عن (القيود) الدينية ، وما كان في الحسبان أنها الخطوة الأولى على طريق الشيوعية ، وأن دُعاة (الفصل) الذين يسيطرون على أجهزة الإعلام في الدولة أحق (بالفصل) عن المراكز القيادية ، لأنهم سيغرقون بلادهم في حمامات دموية لحساب الاستعمار الجديد .

وها هو ذا شاهد من أهلها يحذر من كشف الأوراق جملة ، وينعى على الذى (يأخذ موقفاً لا تاريخياً من الإسلام عموماً ، يسخر - بكثير من الحفة والجهل التاريخي - من القول بأن يكون هناك إيجابيات للإسلام في مراحل نشوئه الأولى على الأقل) هامش ص ١١٥ .

إن من يفعل هذا يثير الجاهير الإسلامية قاطبة ، مما يفقد الدعوة مواطن أقدامها .

ومن الدهاء ألا يمس العهد النبوى بشيء ، بل ألا يمس أبوبكر وعمر ، والجمال فسيح بعد ذلك من خلال الخلافات الناشئة على الساحة الإسلامية الواسعة .

هكذا يدين الكاتب (تجاوز التراث) ، في قلم اليساريين المتطرفين ، كما يدينه في قلم الذين يرقصون على السلم بين اليمين واليسار .

لقد أشاد إسماعيل مظهر بأتاتورك الذى (طبق المبادئ التى استخلصتها العقلية الأوروبية ، من طريق جهادها الطويل إزاء اللاهوت ، على الحالة الواقعة في الشرق أحسن تطبيق ، وعرف كيف يظهر آراءه وأفكاره في قالب جلى واضح ، ونجح كل نجاح في إظهار الفرق بين العقلية الآسيوية ، كما سماها وبين العقلية

الأوربية ، وقضى بأن العقلية الأوربية ارتقائية ، في حين أن العقلية الآسيوية رجعية جامدة (ص ١٢٠/١٢١ .

ودعا سلامة موسى ، وعبد العزيز فهمي وسعيد عقل إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، كما فعل أتاتورك . (والواقع أن اقتراح الخط اللاتيني هو وثبة إلى المستقبل ، لو أننا عملنا به لا استطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها ، وفتح لها أبواب مستقبلها ، حين نصطنع الخط اللاتيني يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان المشثومتان « شرق وغرب » ، فلا نتغير من أن نعيش المعيشة العصرية)^(١) ص ١٢١ .

وهم بهذا ينظرون (إلى الرأسمالية الاستعمارية الأوربية ، على أنها القدرة القادرة الخلاقة التى لا تقهر والتى تمثل « النموذج » الحضارى الأمثل ، ولكن الاستعمار الرأسمالى - من حيث هو كذلك - لا يسمح للآخرين أن يتمثلوا به فعلياً ، أى أن يكونوا ذوى قوة اقتصادية صناعية واجتماعية وقومية وثقافية . . إنه يسمح لتلك الطبقة البورجوازية أن تصنع هى الوهم الذاتى الخاص بها ، والذى يمنحها شيئاً من الاطمئنان والقناعة بإمكاناتها هذا الوهم هو فى حقيقة الأمر نزعة المعاصرة العدمية تلك) ، ص ١٢٣ أو نزعة التغيير إلى الاشتراكية العلمية ، فالأمر سواء فى تمثّل هذا الاستعمار - أو ذاك ، إنه خضوع للوهم الذاتى ، (مرغمة إرغاماً داخلياً من تصوراتها اليائسة والبايسة فى آن واحد) ص ١٢٤ .

لقد رأيت - طوال أربع سنوات - المقدمة الإخبارية لدور السينما فى عدن ، تعرض كل يوم منجزات الاتحاد السوفيتى ، فى جميع المجالات ، بصورة تهر ، وقد تدفع إلى التصفيق ، لكنها لم تعرض فى يوم خبراً واحداً عن إنجازات على الأرض اليمنية .

(١) يذكرنى هذا القول بكاركاتير عن الطلبة الفاشلين ، صوّر أحدهم وقد حمل مكتبه وأدوات رفاهته إلى الشارع ، ليستذكر فى ضوء (عمود النور) ، على زعم أن النوايح من الفقراء يستذكرون فى هذا الضوء .

إن حقول البترول تتفجر في أنحاء الجزيرة العربية ، فيما عدا اليمن الجنوبي الذي يتناقل الناس - من حين لآخر - أخبار تفجّر تحت فأس فلان ، وفي قرية بني فلان ، لكن هيئة البترول تحت قيادة الخبراء الروس منذ سنة ١٩٦٩ لم تعلن عن اكتشاف قطرة واحدة ، ويوسوس الساخطون أنه المخزون الطبيعي للروس في أرضنا ، حتى يحفّ البترول في أراضيهم ، فالخبراء الروس هم حراسه وكاتموا أسرارهم .

هكذا يتعامل السيد الاستعماري تحت أى قناع ، لكننا - في مقاعد المتفرجين - تبع أصواتنا ، وقد نتقاتل ، انتصاراً لهذا الفريق من اللاعبين أو ذاك ، وللسنا من يجيد اللعبة أو يعرف أسرارها .

لكن الدكتور تيزبني ، الذي اختارته العناية الماركسية لجمع الكرات خارج الملعب ، يظن في نفسه القدرة على (التنظير) للثورة المستقبلية التي سيكون أحد لاعبيها ، ومن ثم فهو يطهر أرض (الملعب) من كل ما نبت فيها من أفكار ، حتى يأذن (الحكم) ببداية (الجولة) ، ولذلك هو يدين كل النزعات التي تعترض سبيل (الفريق) الذي يؤيده . .

(لقد تأثر ممثلو « نزعة المعاصرة » من وراء ظهر الغزاة الاستعماريين الثقافيين وحجّاتهم في الداخل ، بالمنهج العقلي النقدي الذي طرحه المفكرون البورجوازيون في القرن الثامن عشر ، وهو منهج يعتمد ، ضمن ما يعتمد الإلحاد ركناً أساسياً له في تكوين الإنسان الجديد) ص ١٢٦ .

ومع ذلك ، فإن (معظم ممثلي تلك النزعة قد رجعوا إلى « الحضارة » ، ليس عن قناعة بخطأ موقفهم ، ولكن بسبب الضغوط التي مارسها ضدهم السلطة السياسية الداخلية المتواطئة مع « السيد » الخارجي القوي) ص ١٣١ .
لكن ممثلي حركة الإصلاح الديني ، أمثال الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين والكواكبي وعلى عبد الرزاق لم يرجعوا عن مواقفهم .

فما سر أن يثوب إسماعيل مظهر إلى رشده ، و (ينظر إلى التاريخ الإسلامى العربى نظرة إجلال وإكبار) وأن يطوى طه حسين صفحة (الشعر الجاهلى) ويكتب عن الفكر الإسلامى ورجالاته ، وأن يولّى العقاد ظهره لبيكون وجوته وبرنارد شو وغيرهم ليكتب عن العبقريات الإسلامية ؟
أهو (التسبب الفكرى وعدم الانضباط فى التطور الفكرى فى إطار نزعة المعاصرة عموماً) ؟ هامش ص ١٢٩ ، أم هو الانتقال من مرحلة (القلق) والمراقبة إلى مرحلة (الاستقرار) والنضج ، أو الانتقال من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين ؟

الزعة التليفقية . .

ينقل عن الشيخ أحمد فرج السهورى معنى التليفق ، بأنه (ضم الأشياء ، والملازمة بينها ، لتكون شيئاً واحداً ، أولتسير على وتيرة واحدة) هامش ص ١٣٦ .

ثم يمسك بخناق الدكتور زكى نجيب محمود ، فيبين (أنه ليس بإمكان الباحث العثور عنده على موقف واحد متجانس ، فالتناقض وعدم الاستقرار وفقدان التماسك المنطقى تطبع ذلك الموقف ، فى معالمة الرئيسية ، حيث يستحيل الوصول إلّا إلى نتائج تليفقية من حيث الأساس) .

فالتزعة التليفقية تلحّ (على إحداث أو إبداع تناغم وتكامل بين العقل والدين ، والعلم والإيمان ، والماضى ذاك ، والحضارة « المادية العقلانية » المعاصرة) ص ١٤٠ .

يقول الدكتور زكى نجيب محمود (فإذا شئنا أن يكون لنا موقف نستمدّه من تراثنا ، فليكن هو موقف المعتزلة والأشاعرة معاً ، فمن المعتزلة نأخذ طريقتهم العقلية ، ومن الأشاعرة نأخذ الوقوف بالعقل عند آخر حد نستطيع بلوغه ، وبهذا

نجعل الدين موكولا إلى الإيمان ، ونجعل العلم موكولا إلى العقل ، دون أن نحاول امتداد أى من الطرفين ليتدخل فى شئون الآخر) ص ١٤١ .

وهذا القول لا يمثل تصوّراً صحيحاً للعلاقة بين الدين والعلم ، أو بين العقل والإيمان ، كما سبق توضيح هذا مراراً ، وكما سيبين بعد فى عبارة الدكتور زكى نجيب محمود ، إذ إن العلم فريضة دينية ، لأنه باب المعرفة إلى عظمة خلق الله ، واطمئنان القلب للإيمان لا يتم إلا بالافتناع ، والافتناع سبيله العقل .

هذه حقائق أولية ، تتحول فى قلم الدكتور تيزينى إلى تعايش مستحيل (بين المواقف المتعارضة والمتناقضة والمتصارعة) ص ١٤١ منشؤه الشعور (بعقدة الذنب تجاه الماضى العربى) ، فالترعة التليفقية (تخشى أن تخسر أحد عناصر) هذا الماضى ، و (تحاول أن تقيم جسوراً بينها جميعاً) ، (والحقيقة أن من وراء الرغبة فى عدم الحسارة لأى من تلك العناصر ، ذلك الواقع الاجتماعى « المعاصر » العاجز والمبعثر داخلياً ، والمرتطم بصخرة التدخل الاستعمارى الأجنبي الخارجى المتواطىء مع القوى التقليدية العربية المتجسدة بركام من العلاقات الاجتماعية الإقطاعية المتبلدة) ص ١٤١ .

لكن الذى ينظر من قرب إلى حقيقة الترعة التليفقية تلك ، يرى أن أصحابها عاشوا حياتهم يعملون لحساب الفكر الغربى ، فلما تقدمت بهم السن ، وقد تحررت البلاد إلى حد ما من المؤثرات الخارجية ، وظهر تيار (الإسلامية) جاهرياً جارفاً ، ملحاً على الأصالة والمعاصرة معاً ، مضحياً فى هذه السبيل بكل غال ، كان هذا (التوجه) فى إطار هذا التيار ، حتى لا يفقد أصحاب هذا (التوجه) مواطنى أقدامهم وهى فى مكان الصدارة الفكرية .^(١)

(١) انظر ما جاء على لسان الدكتور زكى نجيب محمود فى ندوة مجلة فصول - العدد الأول - أكتوبر سنة

ويعلل الدكتور زكى نجيب موقفه بأن (العلم والقيم كلاهما - فى أوروبا وأمريكا - ينبت من الأرض ، كلاهما ينشد القوة والمنفعة ، وأما الثنائية المقترحة ، فتجعل العلم نباتاً ينبثق من الأرض وظواهرها وتجعل القيم غيثاً ينزل من السماء ووحيا) ص ١٤٢ .

وهذا يعنى أن حركة العلم بالدين ، أو أن حياة العلم فى الدين ، لأنه لا نبات بلا غيث ، ولأن (العلم نسى يتغير مع التقدم ، والقيم مطلقة ، تشخص إليها الأبصار ، فهي ثابتة ، من حيث الأسس ، وإن تغيرت من حيث التطبيق ، بتغير الظروف) ، ومن ثم يصبح (للشطر الروحاني الأولوية على الشطر المادى ، فهو الذى أوجده ، وهو الذى يسيره ، وهو الذى يحدد له الأهداف) ص ١٤٤ .

إن (تفردنا الثقافى) ينحصر فى (جوانب العقيدة والفن وبعض تقاليد الحياة التى لا تتنافى مع الحركة العلمية بكل فروعها) ص ١٤٥ والأصالة العربية تكمن فى المحافظة على تلك العقائد ، وفى وضعها فى مكان مع « التقدم الحضارى » ، بحيث تظل هى هى ، دون أن تكون عائقاً على طريق هذا التقدم) ص ١٤٥ (وبهذا نتيح لأنفسنا أن نتحضر بحضارة العصر فى أخص خصائصها ، كما نتيح لها فى الوقت نفسه أن تحتفظ بما يميزها عن سواها) ص ١٤٦ .

لكن ، ما يلبث الدكتور زكى نجيب أن يصدر تعبيرات تتنافى مع هذا الخط السليم ، مما قد يفيد أن (التوجه) لم يكن يمثل (كياناً) متكاملًا ، على الأقل فى نظر الذين يترصدون طوًلاء الرّادة الكبار .

يقول (وتسالنى : وماذا نحن صانعون بآدابنا ومعارفنا التقليدية كلها ، والذى كانت تحتكر عندنا اسم « الثقافة » ؟ فأجيبك بأنها مادة للتسلية فى ساعات الفراغ ، ولم أعد أقول - كما قلت مراراً ، ومقلداً هيوم ، وجارياً ، مجراه - لم أعد أقول : إنها خليقة بأن يقذف بها فى النار ، وحسى هذا القدر من الاعتدال ، ابتغاء الوصل بين جديد وقديم) ص ١٤٧ .

وإذا نحن قذفنا بكل هذا في النار ، أو أبقينا عليه (مادة للتسلية في ساعات الفراغ) فهاذا أبقينا للأصالة العربية ، وللشعر الروحاني ذى الأولوية على الشطر المادى ؟

إن كاتبنا الكبير بهذا - دون شك - ييسر على الآخرين وصفه بأنه (يتنقل من موقف إلى آخر بوتيرة زئبقية ، غير عابئ بما يحدثه ذلك من خرق لقواعد التفكير المنطقي المتأسس بالحد الأدنى) ص ١٤٧ .

وهل يرضى كاتب عربى أن تكون (جاهيرنا دروايش بالوراثه ، فإذا عقل بعضهم كان ذلك قبساً دخيلاً على طبع أصيل) ؟ ص ١٤٧ .

وهل من المعقول (أن جاهيرنا - منذ الأزل ، أزل التاريخ المدون - مفتونة بالغيب دون الشهادة ، بالباطن دون الظاهر ، بالخفاء دون العلن) ؟ ص ١٤٧ ، وأن (اللا عقلانية مغروزة في طبائعها كألوان جلودها) ؟ ص ١٤٨ .

أليس هذا مبالغة في التعبير عن روحانية الشرق ؟
أليس هذا يستدعى أن يكون (التراث مرادفاً . لللاعقلانية والدروشة) ومن ثم يصبح دور المعتزلة والفلاسفة وعلماء الرياضيات والفلك والطب والصيدلة على هامش التاريخ العربى ؟

هل يمكن أن يكون (هذا التراث العربى كله بالنسبة إلى عصرنا قد فقد مكانته ، لأنه يدور أساساً على محور العلاقة بين الإنسان والله ، على حين أن ما نلتمسه اليوم فى لطفة مؤرقة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان) ؟ ص ١٥١ .

إن هذا التصور المتجاوز لحقيقة التراث هو الذى دفع الدكتور تيزبى إلى القول بأنه (طموح عشوائى) ظل (وهماً وغير فعال ، فلقد أريد للوجود الذاتى أن يتحقق عبر القفز فوق الظل الذاتى ، ظل الواقع العربى الحديث والمعاصر بكل تجاعيده الخاصة ، وظل التاريخ العربى فى امتداده الأفقى) ص ١٥٢ .

ومن القفز فوق الظل الذاتي للدكتور تيزيني أن يجمع بين سيد قطب وزكي نجيب محمود في نزعة واحدة ، لأن سيد قطب (يستهدف إقامة مجتمع مكافئ من النواحي الحضارية المادية - على الأقل - للمجتمع الحاضر ، وفي الوقت ذاته له روح ووجهة وحقيقة المجتمع الإسلامي الأول ، الذي أنشأه المنهج الرباني ، باعتباره قمة سامقة في روحه ووجهته وحقيقته الإيمانية ، وتصوره للحياة ، لغاية الوجود الإنساني ولمركز الإنسان في هذا الكون ، ولخصائصه وحقوقه وواجباته قمة سامقة في تناسقه وتماسكه) .

(إن هذا المنهج لا يرفض الحضارة الصناعية ، ولا يحفل منها ، ولا يتنكر لها)
ص ١٥٤ . لأنه المنهج الإسلامي المتكامل ، منذ كان الإسلام .

لكن المسلمين - عبر الظروف العصبية التي مرت بهم ، منذ زحف التتار إلى اليوم - انغمسوا في تقليدية جامدة وحملوا على الجوهر الإسلامي الأصيل بدءاً وخرافات ، ووقف بهم علماءهم عند حدود الشكل دون المضمون مع أن الحقيقة - كما قررها محمد إقبال - تقول : (هناك درس واحد وعيته من تاريخ الإسلام ، ففي اللحظات الحرجة من تاريخهم كان الإسلام هو الذي أنجى المسلمين ، وليس العكس بالعكس ، إذا ركزتم نظركم اليوم على الإسلام ، واستلهمتم المبادئ الحية الدائمة الكامنة فيه ، فأنتم لا تكونون قد فعلتم أكثر من إعادة تجميع قواكم المبعثرة واستعادة كيانكم المفقود) هامش ص ١٥٧ .

وهذا ما كان ينشده سيد قطب في كل ما كتب ، بعيداً عن (قسر وتطويع الواقع الراهن ، بل المستقبل لماضي ذهبي ، يُراد له أن يكون متحلاً من كل قيد وضابط تاريخي وتراثي عياني) ص ١٥٨ .

إن سيد قطب ورفاقه لم يزيدوا على أن يبنوا للناس أن الشريعة الإسلامية بمبادئها القويمة المتطورة لا تضيق بمشكلات العصر ، وإذا كان هناك ما يؤهم الجمود فهو من فعل أولئك (الكهنة) الذين اتخذوا من الإسلام وسيلة (عيش) ،

فناقضوا الحُكَّام ، وتاجروا بالنصوص الدينية ، وأوقفوا باب الاجتهاد ، أو وقف بهم ، حتى صارت الجماهير تتعامل مع التعاويذ والرقى والتامم ، وهم يروجون لكل بدعة ، ويناصرون كل جهالة .

* * *

ومن القفز فوق الظل الذاتي للدكتور تيزيبي أن يجمع بين الدكتور زكي نجيب وعبد الله العروى اليسارى المتطرف الذى يرى أن الأيديولوجية العربية تتلخص (فى تفسير ما يفعله الغير) ، و (إنه يمكن أن ترفض الأيديولوجية العربية فى مجملها ، بصفتها اثرثة بحتة) ص ١٦١ ويعلل طيب تيزيبي هذا الموقف بأن أثر هزيمة سنة ١٩٦٧ (قد سد على العروى الأبواب والنوافذ التى كان عليها أن تمنع عليه التوحد والانكماش الذاتى ، فلقد فقد القدرة الفعلية على الاتزان العقلى والتماسك العاطفى الداخلى) ص ١٦١ .

إن العروى (عاجز عن تطبيق « الفكر التاريخى » على التاريخ والتراث العربى فهذان هما بالنسبة إليه واقعان أكل الدهر عليهما وشرب ، وبالتالي فإن « من يدافع عن التراث هو بالضبط من لا يعرف سوى التراث ، وعلاوة على ذلك بكيفية تقليدية ») ص ١٦٣ .

وهو يقول بدون لبس (كل ما هو عقلاى يعبر عنه بلغة أجنبية ، بينما كل ما هو عاطفى ودينى وتقليدى يعبر عنه بالعربية) ص ١٦٤ .

(إنه يستخلص « من مناقشة الفكر السلفى أن الرجوع إلى نظريات الماضى والحفاظ على أصالة فارغة ، وهم يعوق التطور ، لأن رباطنا بالتراث الإسلامى - فى واقع الأمر - قد انقطع نهائياً ، وفى جميع الميادين ») ص ١٦٤ .

(إنه إذ يستخلص تلك النتائج الخطيرة باسم الماركسية التى تكون « النظام المنشود الذى يزودنا بمنطق العالم الحديث » يسئ مرتين ، مرة إلى ذلك التراث العربى فى كل وجوهه ، ووجهه التقدمى العميق خصوصاً ، ومرة أخرى إلى

الماركسية التي تجد فيها النظرية التراثية المقترحة الجدلية التاريخية التراثية ، قاعها الأصلي ، ومصدرها المنهجي الحصيب ، لدراسة « التاريخ » و « التراث » العالمى عموماً ، والعربى على نحو خاص) ص ١٦٤ .

ولاشك فى أن نقد العروى دفاعاً عن الماركسية إنما هو لون من التكنيك المرحلى كما أنه قائم على أساس منهج تراثى ، خطط له الدكتور تيزينى منذ البداية والتزم به .

فالعروى - وإن لم يكن تلفيقياً - يلتقى مع الدكتور زكى نجيب فى عبثية التراث ، وفى أنه ليس إلا مادة لهو وترجية فراغ ، لأن العرب يسيطر عليهم فكر الدراويش على مدى الزمان ، لكن العروى أخذ خطأ واضحاً ، وهو أن نبداً من جديد ، دون أن ننظر إلى وراء فى حين أن الدكتور زكى نجيب كمن تورط مع امرأة لم يحبها ، بعد أخرى أحبها ، وأنجب منها ، فهو من باب المروءة يجد عليه التزامات نحو الثانية ، وإن كان بوسعه تطليقها .

ويؤخذ على الدكتور تيزينى - خلال هذا التناول . . أنه لم يكن يفرق بين العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، ومع أنه يفرق بين التراث والتاريخ ^(١) على أساس أن التراث هو التاريخ (ممتداً ومستمراً حتى اللحظة الراهنة) فى حين أن التاريخ يقف عند الماضى . ص ١٦٥ وهو لا ينكر أن العقيدة جزء من التراث ، وإن كانت الجزء المحرك لهذا التراث ، ومن ثم فهي ممتدة ومستمرة حتى اللحظة الراهنة ، وبتعبير أصح (تتحول إلى الزمان المطلق) ، لأن العقيدة تشريع ، مجموعة قيم ، أخلاق مثالية وبهذا تكتسب صفة الإطلاق ، أما التاريخ الإسلامى فيقوم بدور التطبيق السلوكى لهذا التشريع ، ومن خلال ألوان الصراغ ، الظاهرة والباطنة ، الفردية والجماعية ، المادية والروحية الأصيلة والوافدة ، ينشأ الصواب

(١) سنتناول خطأ هذا التفريق فيما بعد .

والخطأ ، الحق والباطل ، الطيب والخبيث ، المعروف والمنكر ، وتُحدّد معالم ،
وتنبهم معالم ، وتظل العقيدة ، والتشريع ، نقية نقاء الفطرة .

الزرعة التحييدية

تتمثل في منحيين (واحد توثيق يقوم على دراسات تحليلية ، وآخر تفسيري تأويلي ،
يستند إلى عملية تركيبية تشتمل على صيغ كلية ، ذات دلالات رئيسية بالنسبة إلى
البحث) ص ١٦٧ والثاني مكمل للأول ، لأن المنحى التفسيري (يقوم على
استنطاق الوثائق المعنية والمحقة بدقة ، وعلى كشف أبعادها ودلالاتها التاريخية القرينة
والبعيدة أى وضعها في سياقها وإطارها التاريخي الخاص والعام) ، وبهذا يعمل
على (استكشاف واستخراج وتقصى الجسور المريئة وغير المريئة ، التي تربط بين
التاريخ المعبر عنه بتلك الوثائق من جهة ، وبين الحاضر أو اللحظة المعاصرة من جهة
أخرى) ص ١٦٨ ومن ثم فالصبغة (الأكاديمية يمكن أن تكون مغرقة بمضمون
سياسي واضح المعالم ومفصّل عنه ، كما يمكن أن تكتسب طابعاً انعزالياً تلقاء الواقع
السياسي والاجتماعي والأيدولوجي العام ، إلا أن هذا الطابع الانعزالي نفسه يخضع
في أساسه لاستنطاق وتحليل سياسي واجتماعي وأيدولوجي) ص ١٦٨ .

غير أن (الكثيرين من ممثلي تلك الصبغة التحييدية يجدون أنفسهم أحياناً
مجاهدين بدراسات وأبحاث حول قضايا « التراث » و « التاريخ » تفوح منها رائحة
التطويع التعسفي والتحزب المبذل لفكرة فلسفية أو دينية أو اقتصادية معينة أو لهدف
سياسي) ص ١٦٩ .

بهذا يكون الدكتور تيزيني قد وضع النقاط على الحروف ، كما يقولون ، إذ بين
ما يجب علينا نحو التراث من توثيق للنصوص ، وتفسير لها وتحليل ، في إطارها
التاريخي الخاص والعام ، مع ربط الماضي بالحاضر ، دون الوقوع تحت مؤثر
أوتحزب ما .

وإن كان التحديد الكامل غير متاح للباحث ، مهما بذل من جهد ، في سبيل تخليه عن كل المؤثرات، لكنه شتان بين من يقصد إلى التحديد ومن يقصد إلى التحزب ، كما أن الفرق بعيد بين الذين يهربون (من محيطهم الاجتماعي السياسي والأيدولوجي لينطووا على التراث والتاريخ بروح أكاديمية ترفض الدخول في مرحلة التركيب بما فيه من عناصر تفسيرية تأويلية ، أى ترفض كل ما من شأنه الإشارة العابرة أو العميقة إلى « السواد » الاجتماعي والسياسي والقومي والأيدولوجي الذي أثمر على أساسه ذلك التراث والتاريخ) ص ١٦٩ / ١٧٠ وبين من (يستمد من دراسته للتراث العربي العام والفكرى من ضمنه ، قوة جديدة ، لتضيء جوانب اللحظة المعاصرة من حياة المجتمع العربي وتمنحها نبضاً دافقاً في اتجاه التقدم الاجتماعي والقومي ، أى في اتجاه الاشتراكية والوحدة ، ولكن تقويل ذلك التراث في شطره التاريخي أشياء لم يقلها ، ولم تكن أصلاً من صلبه ، لا يشكل في نظرنا أكثر من عملية هجينة ليس لها علاقة بالعلم الاجتماعي بمتطلباته الأساسية) ص ١٧١ .

وفي معرض التطبيق أشار الدكتور تيزيني إلى ندوة اشترك فيها أمين الخولي ومحمد القصاص وإبراهيم الإيباري تحت عنوان (التراث العربي - كيف نعمل على إحيائه) ، فذكر (أن هؤلاء يرون مهمة الباحث في التراث العربي تكمن في إحيائه عن طريق جمعه وتحقيقه وإخراجه للناس ، أما الخلافات التي تبرز بين آراء المنتدين فهي لا تخرج - في الخط العام - عن الموقف من كيفية جمعه وتحقيقه وإخراجه للناس ، وإذا كانت هناك في الندوة بعض الأفكار المتعلقة بأبعاد التراث القومية فإنها لا تعدو أن تكون - في صيغتها الواردة فيها - إشارات سريعة ضحلة ، وربما بدت كما لو أنها مُقحمة إقحاماً في متن الندوة) ص ١٧٤ .

(لاشك أنه قد ظهرت في تلك الندوة بعض الأفكار التي تشير إلى رؤية مسيسة للتراث العربي ، كما هو الحال عند أمين الخولي ، ولكن هذا الموقف لا يشغل حيزاً

فعلياً من حوار المتدين الذين يرون شغلهم الشاغل هو توثيق التراث (ص ١٧٥ .
(ولأن أخفق الباحث في اكتشافه - في الندوة المذكورة - موقف عداء تجاه
فكرة « تسييس » النظر إلى التراث العربي ، فإن هذا لا ينفي عن « الوثائقية » كونها
تتضمن بهذه الدرجة أو تلك موقفاً مناوئاً لتلك الفكرة ، وبالتالي من خلال ضبط
طرحنا للتراث بضوابط اللحظة المعاصرة في واقعنا ، بكل ماتتطوى عليه من
مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية وأيديولوجية وقومية وأخلاقية) ص ١٧٥ .
يبدو من خلال هذا التعليق أن الندوة كانت مقصورة على (التوثيق) ، وأعلى
إحياء التراث في إطارة النصي ، لافي إطاره التاريخي ، وهو ماسبق ، أن ذكره
الدكتور تيزيبي ، مبيناً أن (الأكاديمية) تقوم على منحنيين : توثيق النصوص ،
وتفسير لها وتحليل . . وهذا واضح فيما فعلته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، حين
أفردت رسالة الغفران بالتوثيق ، ثم لجأت إلى التفسير والتحليل في كتاب آخر ،
تحت عنوان (على هامش الغفران) . ويمكن أن يكون التفسير والتحليل على هامش
النص الموثق ، لكن التناول في ظل الإطار التاريخي لا يقتصر على هذا الجانب
(الهامشي) ، كما لا يتناول النص إلا من خلال موقف أوقضية .

ومن هنا يكون من التجاوز أن نتهم (الوثائقية) بأنها (تشوّه العلاقة الجدلية
بين العلوم الفردية ، ومنها علم التاريخ والتراث من جهة ، وبين الفلسفة من جهة
أخرى . . ذلك لأنها عاجزة عن الوصول إلى تعليلات تركيبية ، لا يمكن لتلك العلوم
والفلسفة أن تقوم لها قائمة بدونها) ص ١٧٨ .

كما أن من التجاوز أن تصف الوثائق بأنه (يقصر بحثه على عملية تحقيق الكتب
القديمة والوثائق والمخطوطات ، ويخلد من بعد ذلك إلى الدعة والاطمئنان
العلمي) ، ص ١٧٨ . لأن مثل هذا الوصف يوحى بالتهوين من دوره ،
والاستخفاف بعمله ، مع أنه يوفر على من يقوم بالتفسير والتحليل مشاق قد
لا يستطيع أن ينهض بها ، كما أنه يجنبه كثيراً من المزالق والمتاهات ، لو أنه رجع إلى

نصوص غير محققة ، وقد أصابها الحذف أو الاختصار أو التزييف أو الإضافة أو الانتحال مثلاً .

إذن ، من واجبنا أن نكبر هذا الدور ، لأنه دور الريادة والتمهيد وتذليل الصعوبات وليس عيباً أن يقتصر عليه أصحابه ، لأن هذا التخصص من عوامل الإتقان والإجادة . فإذا كان دور التحليل ، صحّ أن نقصد إلى الحقيقة التاريخية ، في إطارها الخاص والعام ، دون الوقوع تحت طائلة التحزب ، ونأخذ بالمنهجية العلمية التي هي (منهجية جدلية تراثية دقيقة ومماسكة إلى جانب حس نقدي) ص ١٨٠ .

ولعله ليس من المغالاة في شيء أن نقول : إن الأستاذ أمين الخولي سبق إلى بيان (أن التراث هو مادة الشعور بالذات ، وسبيل الإيمان بالنفس ، والشعور بالذات والإيمان بالنفس أساس لا تقوم بغيره القومية ولا تكون بدونه القومية حقيقة تعرف الحياة وتعرفها الحياة)^(١) .

إن (أهمية التراث في الحياة عندنا وعند الأمم التي مرت بما نمر به نحن اليوم من انبعاث ونهوض ، تتركز في المبادئ الكبرى التالية عن هذا التراث وهي :

(أ) أنه المحدد لاتجاه التطور . بقدر ما يكون الماضي دائماً مفتاح المستقبل .

(ب) أنه دعامة الشخصية القومية ، بقدر ما يكون التاريخ صورة صادقة لصانعه .

(ح) أنه مادة تصحيح منهج كل درس ، بقدر ما يكون سير الحياة متصلاً متلاحقاً)^(٢) .

فهل التوجه إلى التراث بهذا الوعي يختلف في شيء عن (المنهجية الجدلية) ؟ !

(١) مجلة (المجلة) - عدد نوفمبر سنة ١٩٦٣ - ص ١٧

(٢) مجلة (المجلة) - عدد سبتمبر سنة ١٩٦٣ - ص ١٠ .

أليس هذا (التوجه) ما (يمنح التحليل والتركيب مصامين حقيقية جديدة بتغطية متطلبات البحث التاريخي والتراثي العلمى الدقيق) ؟ !

* * *

لون آخر من (التحييدية) هو النزوع إلى اللادجلة .
وفى سبيل التعرف إلى هذا الاتجاه يورد تعريف الفيلسوف الفرنسى كوندلاك (١٧١٥ - ١٧٨٠) للأيدولوجية ، (بصفتها اتجاهًا فكريًا يعمل على الوصول إلى قواعد تطبيقية تربوية وأخلاقية وحقوقية وسياسية ، عبر تحليل التركيب الفيزيولوجى والنفسى للإنسان) ص ١٨٢ .

لكنه يرى أن هذا الوصف يعبر (فى المجتمع الطبقي ، من حيث الأساس ، عن مصالح طبقية معينة ، وينطوى على قواعد سلوكية ومواقف وتقييمات مطابقة) ص ١٨٣ لهذه المصالح ، (فلقد نظرت كل من الطبقات الاجتماعية إلى الوجود انطلاقًا من مصالحها المباشرة ، وبكثير أو بقليل من الوعى) ص ١٨٣ ، ولاشك فى أن طبقة البروليتاريا - حسب هذا التعميم داخلة فى (كل الطبقات الاجتماعية ، لكن صاحبنا يرى (أن الأيدولوجية فى المجتمع الطبقي لاتمثل أمرًا مقحمًا على هذا المجتمع من خارجه ، أو قضية طارئة مرتبط وجودها بوجود مجموعة من المثقفين والمفكرين القادرين على الحديث عن « أيدولوجيا » معينة ، وعن أدجلة هذه المسألة أو تلك ، وإنما هى ظاهرة ضرورية فى نطاق ذلك المجتمع ، تعبر عن مصالحه وآفاقه القريبة والبعيدة) ص ١٨٤ .

وكأن ماركس وانجلز لم يكونا من (المفكرين القادرين على الحديث عن أيدولوجيا معينة وكأن المفكر الرأسمالى أو البورجوازى أو الوجودى لم يكن يمثل (ظاهرة ضرورية فى نطاق ذلك المجتمع) أو ذاك ، وفقًا لظروف تطوره ، أو وقوعه تحت مؤثرات ذات طبيعة خاصة .

وإذا كان لكل مجتمع أيدولوجيته الخاصة به ، التى تنبثق من مصالحه

الخاصة ، سواء أكان مجتمع العصاة أو مجتمع الحزب ، وسواء وجدت القلم الذى يعبر عنها ويفلسفها أولم تجد ، فإن منحنى (اللادلجة) يأخذ انطباعاً تأملياً منعزلاً ، أو وضعياً خارج حدود الطبقة وخارج حدود التطبيق ، ولعل هذا مايجسده قول مولر Molner : (مادام « المثقف » يصر على موقفه ، من أن نظراته الفلسفية ينبغي أن تكون محددة من قبل الأيديولوجيا ، فإن كل تأملاته ستكون غير مثمرة) ص ١٨٤ .

ومن هذا المنطلق تقسم أوجست كونت للتاريخ البشرى على أساس أنه (يمر بثلاث مراحل ، هى اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية) . وعلى هذا التاريخ - حسب ذلك التقسيم - (أن يخلف وراء المرحلتين الأولين ، لكى يدخل فى محراب الحقيقة العلمية الوضعية المجردة من أوهام وبدائية اللاهوت والميتافيزيقا) ص ١٨٤ / ١٨٥ .

(إن المعطى الوضعى المباشر لا يخضع لعملية تفسيرية ، وإنما يفهم فقط عبر عملية وصفية .. إن العلم الوضعى لا يطرح السؤال : لماذا ؟ وإنما فقط السؤال : ماذا ؟ وبالتالى فمن الخطأ التساؤل عن المادة التاريخية والتراثية فى صيغة « لماذا » ، لأن هذا يدخلنا فى حقل من الألغام الميتافيزيقية) ص ١٨٥ .

وهذا العرض لفكر (اللادلجة) الذى على أساسه (يصبح متوجهاً علينا أن نبدأ بداية جديدة إطلاقاً ، وأن نرفض فى سبيل تحقيق ذلك المراحل الإنسانية المنصرمة) ص ١٨٥ . - يقع فى إطاره الدكتور زكى نجيب محمود ، الذى يرفض التراث العربى ، (بصفته مادة تقليدية للتسلية فى ساعات الفراغ ، لاتربطها رابطة بالعلم والتقنيات الآلية .. كما يرفض المفكرون الغربيون الوضعيون المعاصرون تراثهم ، بحجة أنه يمثل مرحلة سيادة الأيديولوجيا اللاهوتية والميتافيزيقية) ص ١٨٧ .

إن الدكتور زكى نجيب محمود (فى معرض شرحه لمذهب « التحليل المنطقى » الوصفى الذى يأخذ به يقول : إن « حقائق الواقع هى دائماً أفراد جزئية ليس فيها

تعميم ولا تجريد» ص ١٨٧. ومن ثم تصبح مهمة «التحليل المنطقي» الوضعي منصبه على تحليل اللغة ودلالاتها ، أخذًا بقول الفيلسوف الفرنسي دى تراسى : (إن تكوين الأفكار وثيق الصلة بتكوين الكلمات ، فكل علم يمكن رده إلى لغة أجيده صياغتها ، ومعنى قولنا عن علم معين أنه تطور وتقدم ، هو أن ذلك العلم قد ضببط لغته لأكثر ولأقل) ص ١٨٨ .

وبناء على هذا يعلن الدكتور زكى نجيب (أن مؤدى مذهبه فى النقد الفنى هو : «أن ينصب تحليل الناقد على العمل الفنى نفسه ، لا يستنفذ خلاله إلى نفس الفنان ، ولا إلى العالم الخارجى ، بماضيه وحاضره ، بل نقف عنده هو ذاته ، فنرى كيف تتألف عناصره .. نعم نحصر أنفسنا فى العمل الفنى نفسه ، فلا نسمح لأى عامل خارجى أن يتدخل فى حكمنا ، كنفس الفنان ومشاعره ، أو حوادث التاريخ ، أو الأساطير الدينية وغير الدينية ، أو المبادئ الأخلاقية ، أو الأفكار الفلسفية ، فلا يجوز للناقد - بناء على هذه المدرسة الجديدة - أن يسأل عن لوحة - مثلاً - قائلاً : مامزها ؟ أو مامعناها ؟ لأنه لامغزى ولامعنى فى الفنون ») ص ١٨٩ .

المركزية الأوربية وقضايا الاستشراق ..

(انطلاقة من رينان - ت سنة ١٨٩٧ م - تأخذ النزعة المركزية الأوربية اكتساب مواصفاتها شيئاً فشيئاً ، إذ إن رينان ميز بين الجنس السامى والجنس الآرى) ، فى كتابيه (تاريخ اللغات السامية) و (ابن رشد) .. وقد جاء فى كتابه الثانى : (وليس العرق السامى هو ما ينبغى لنا أن نطالبه بدروس فى الفلسفة ، ومن غرائب النصيب ألا ينتج هذا العرق ، الذى استطاع أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى سمات القوة ، أقل مايكون من بواكير خاصة به فى حقل الفلسفة) ص ١٩٧ .

(وعلى العكس من ذلك - كما يرى رينان - فإن الجنس الآرى مُهيأٌ غريزياً

للقيام بعمليات عقلية معقدة ، تتم بالتحليل والتركيب والتفكير في دقائق وتفصيلات الوجود) ص ١٩٨ .

(إن هذا الأمر يعنى - بتعبير واضح ملموس ، بالنسبة إلى رينان - أنه « من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعانى ، أن يطلق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية لفظ « فلسفة عربية » ، مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة في شبه جزيرة العرب مبادئ ولا مقدمات ، فكل ما في الأمر أنها مكتوبة بلغة عربية » ص ٢٠٦ .

(وكتب أيديولوجي الاستعمار الأمريكي « باردجيس » ، في نهاية القرن الماضي : « أن القسم الأعظم من الأرض تسكنه شعوب لم تستطع أن تقيم دولا متمدنة ، وليس بمقدورها عملياً أن تقوم بمثل هذه المهمة ، فقد قدر عليها أن تظل همجية أو شبه همجية ... وإزاء هذا الوضع . لا يقتصر واجب الشعوب الناضجة سياسياً على الاستجابة إلى توسلات الأمم المتخلفة التي تلتهمس المعونة والإرشاد ، بل يتعدى ذلك إلى إرغام هذه الأمم على الخضوع والامتثال) هامش ص ٢٠٦ .

يقول وندلباند Windefband في كتاب له حول تاريخ الفلسفة : (إنه يجد نفسه غير مضطر لكتابة فصل خاص بتاريخ الفلسفة لدى العرب ، لأن ماقدمه هؤلاء للأوربيين لم يكن في الحقيقة سوى مكتسبات الفكر اليوناني والهيليني من العصر القديم .. وبالمقاييس إلى أفكار مبدئية خاصة ، كانت الفلسفة الشرقية في العصر الوسيط أفقر من الفلسفة الأوروبية) ص ٢٠٢ .

مغالطة ، أو تعام ، قد يكون مردهما إلى الفكر الاستعماري الذي يعتمد إلى التضييل والتقوية ، حتى يكتسب أرضاً جديدة ، عن طريق هدم القيم ، ومحاربة الموروثات الأصيلة ، وإشاعة الإحساس بالفقر والحاجة المعنوية والمادية .
ومع هذا ، فقد وجدت هذه المقولة الاستعمارية ، والنزعة العرقية المتعالية ، صدى في نفوس بعض المثقفين العرب ، فاستجابوا لها ، استجابة المغلوب

للغالب ، أو استجابة الموهوم ، بأن كل ما جاء عن الغرب إنما هو من المسلمات التي لا سبيل إلى ردها أو محاورتها .

ينقل الدكتور تيزيني عن الدكتور على سامي النشار قوله : (إننا نتفق مع أرنست رينان في أن المفكرين الإسلاميين قبلوا الفلسفة اليونانية قبولاً كاملاً ، ولم يبدعوا فيها على الإطلاق) .

ويقول : (إن ذاتية العرب وعبقريتهم الحقيقية إنما ينبغي أن تلتبس في الطوائف الإسلامية الدينية) . ص ١٩٨ .

وهو قول خطير ولا شك من أستاذ جامعي ، ينفثه في عقول وقلوب الشبيبة العربية التي ما لبثت هي الأخرى أن تردده على نطاق أوسع ، فتتفاعل به عقول وقلوب المراهقين من طلاب المدارس الثانوية ، ومن ثم تكون فداحة الخطب ، (وعلى نفسها جنت براقش) !!

إنها مسئوليّة خطيرة على رجال التعليم أن يروجوا أفكاراً لم يحسنوا هضمها ، أو لم يحسنوا مراجعتها ، واهمين أن التقدم الصناعي الغربي يتبع تقدماً فكرياً ، دون تمييز بين أفكار طرحتها المصالح الغربية الاستعمارية ، وأخرى يمكن الاستعانة بها ، في تنمية مدركاتنا ، وعلاج مشكلاتنا .

حين نقراً (أن الشبنجلر يرى أن الحضارات مستقلة بنفسها تمام الاستقلال ، الواحدة عن الأخرى ، وأن ما يخل إلينا من وجود تشابه بين حضارة وأخرى ، إنما هو تشابه ظاهري لا يكاد يتجاوز حد اللفظ) ص ٢٠٧ ، ينبغي أن ندرك من وراء هذا أنه يرفض (إمكانية التفاعل بين الشعوب والحضارات) ، ويترتب على هذا (أن العرب في العصر الوسيط لم تقم بينهم وبين الشعوب الأخرى ، وخصوصاً اليونان ، علاقات حضارية عميقة ، كثيراً أو قليلاً) ص ٢٠٨ . وكأنه يروج للمقولة الاستعمارية (الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا) . أو بعبارة أوضح : لقد كتب على الشرق أن يسير في إसार الغرب ، يتسقط ما يجود به ،

ولاسبيل إلى الاستقلال عنه ، وإن توهم أنه يحكم نفسه بنفسه .
 ومما يؤسف له أن ظاهر حياتنا اليوم يساعد على ترويج مفهوم (التبعية)
 للغرب ، ونحن نتنافس ونتصارع من أجل أن نسير في فلك روسيا أو أمريكا ، من
 أجل أن نكون سوقاً لهذه أولئك ، فريق يضع مصيرنا في مخالب الدب ، وفريق
 يضع مصيرنا بين أنياب التنين ، وفي سبيل الاختيار بين هذه المخالب أو تلك
 الأنياب نخوض معارك ، ونعلق مشانق ، ونفتح سجوناً جديدة .
 (إن كل مجتمع يتفاعل مع مجتمع آخر ، يتأثر به ، ويؤثر عليه انطلاقاً من
 احتياجاته الداخلية الأساسية ، من بنيته الداخلية الاجتماعية والقومية والأخلاقية
 والثقافية والعاطفية .

وعلى هذا النحو سيئين لنا أن تأثر المجتمع العربي الوسيط بالثقافة اليونانية
 والهندية والفارسية والصينية لم يكن ليتم إلا على سبيل التمثل الذاتي ، أما أن يكون
 ذلك التأثير ذا طبيعة ميكانيكية ، فهذا لم يحدث) ص ٢٠٣ / ٢٠٤ .
 وبالتالي يمكن القول - كما كتب أنجلز - (كان الفكر الحر النشيط الذي أخذته
 الشعوب الرومانية عن العرب ، وغذته بالفلسفة اليونانية الحديثة الاكتشاف ،
 يعمق جذوره أكثر فأكثر عن هذه الشعوب ، ويمهد لظهور مادية القرن الثامن
 عشر) ص ٢١٥ .

فالتفاعل بين الشعوب ، على أساس من التفاعل بين الثقافات والحضارات ،
 حقيقة مادية ومعنوية ، لا يمكن تجاهلها .. لكن هذا التفاعل لا يتم إلا على أساس
 الاحتياجات الإنسانية والبيئية معاً ، ومن ثم يتم على وفق (الانتخاب) لما يصلح ،
 وما يتلاءم مع درجة التطور الروحي والمادى جميعاً .

ولاشك في أن المجتمع العربي في العصر الوسيط كان قادراً على اكتساب كل
 شيء ، كان من الصحة العقلية والنفسية بحيث يستطيع هضم كل جديد ، أما
 اليوم ، وقد تحملنا أوزار قرون من الانتكاسات ، وأصابتنا التيارات الشمالية الباردة

في مواطن الحس والإدراك ، فمن واجبنا أن نتحصن بما نملك ، ونعمق جذورنا ، ونستدفي ونعالج أرواحنا وأجسامنا ، قبل أن نطلق مع التيار .

يقول كراتشكوفسكى : إن (المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربية في تاريخ البشرية أمر مسلم به من الجميع في عصرنا) ص ٢١٦ . فلم لايقوم البحث التراثي (على اختيار الحدث أو الجانب التراثي بهدف دمج في جسد اللحظة المعاصرة) ؟ ص ٢١٧ .

إن من واجبنا أن نستتبع حاضرننا في ماضينا ، وأن نستتبع ماضينا في حاضرننا ، وأن نخصب هذا بذلك ، بحيث يتم التفاعل بين الأصالة والمعاصرة ، دون أن نزيّف واقعنا بأقنعة سوانا ، وبهذا ننجو من الاغتراب في الماضي ، كما ننجو من الاغتراب في الحاضر والمستقبل .

الجدلية التاريخية التراثية :

هذا الطرح الشامل لكل مايجرى على الساحة العربية من أفكار عن التاريخ والتراث كان سبيلا إلى منهج وتطبيق ، بحيث (يطمح أن يكون موسعا ومعما ، بالقدر الذي تتيحه آفاق وإمكانات وأدوات البحث العلمي) ص ٢٢٢ .

(إن « التراث » بأحد أبعاده هوكل حدث أو أثر أو إنتاج إنساني دخل الماضي وأصبح جزءا منه) ص ٢٤٢ . (وعلى حين يظل التاريخ - بصفته ماضيا - عند حدود متاخمة الحاضر ، فإن التراث « يمتد نطاق وجوده حتى الحاضر » ، متداخلا فيه ، ومكونا منه بعض جوانبه وسماته) ص ٢٤٢ ، بحيث قد نعتقد في بعض الحالات (أن « الحاضر » ليس حاضرا بقدر ما هو « تقليد » لوضع منحدر من الماضي) ص ٢٤٣ .

تقول الدكتورة سهير القلماوى : (إن قيل إن تاريخ الأحداث يعيد نفسه ، فوجدنا ما يصدق هذا القول من الأحداث المعاصرة ، فتاريخ الأدب يعيد نفسه

إعادة أدق وأصدق ، والأدلة على هذه الإعادة لاحتياج إلى بحث أو إشارة)
ص ٩٩ .

(إن مجموعة كبيرة من الأغاني والأمثال والتقاليد الثقافية والأخلاقية والدينية ،
إلخ ، التي تحتل مكاناً هاماً في بنيتنا الثقافية الشعبية المراهقة تنحدر من مراحل
قديمة ، كثيراً أو قليلاً ، من تاريخنا العربي) ص ٢٤٣ .

وبذلك يختلط الماضي بالحاضر ، أو يتجدد به ، دون أن يصبح الماضي عبئاً على
الحاضر ، بل يكون زاداً وسماداً ، وعامل وعى وإخصاب .

(إن الناس حيث يعملون على أنسنة محيطهم الطبيعي والاجتماعي ، يجدون
أنفسهم أمام موروث من العلاقات الاجتماعية الإنتاجية والمنجزات التقنية والأفكار
السياسية والأخلاقية والعلمية ، إلخ ، وعلى ذلك فهم يجدون أنفسهم مرغمين على
الانطلاق من واقع هذا الموروث ، محتفظين - في هذا السياق - ببعض عناصره ،
أو مبدلين فيه عموماً) ص ٢٤٥ .

يقول أنجلز : (إن كل جديد يجد نفسه أمام القوى المنتجة التي حصلها الجيل
القديم ، والتي تخدمه كمادة خام ، من أجل إنتاجه الجديد ، بفضل هذه الحقيقة
تنشأ علاقة في تاريخ الناس ، ينشأ تاريخ الإنسانية) هامش ٢٤٦ .

ولاشك في أن مادة التراث خضعت لمؤثرات كثيرة ، منذ نشأتها ، وخلال
رحلتها الطويلة ، فإذا تناولنا هذه المادة على أساس من النقد الخارجي (التوثيق) ،
والنقد الداخلي (التحليل والتفسير) يمكن أن نُزيل عنها (عناصر التزييف والتشويه
والحشو والتكميل ، تلك التي عمل على بثها وتثبيتها سياسيون أو مؤرخون أو مقومون
تراثيون ، تأثراً بمواقف سياسية أو أيديولوجية إلخ متحيزة نفعية مباشرة أو غير
مباشرة) ص ٢٤٦ .

إن كثيراً من الفلاسفة والمؤرخين والأدباء والعلماء (لم يكونوا محايدين في نطاق
إنتاجهم لتلك المادة المكتوبة بصفهم موجودين ضمن علاقات اجتماعية طبقية

وفتوية وجمعية « قومية » وإنسانية عامة يخضعون - في الخط العام - للأطر الحضارية لهذه العلاقات ذات المواصفات المحددة (ص ٢٤٧ .

ولهذا تشكل المادة التاريخية (مادة موضوعية يستطيع التدخل والتصرف في معطياتها ، على سبيل الاختيار لهذه المعطيات ، وعلى سبيل تنسيقها وتفسيرها ووضعها في إطارها الصحيح من الحركة الداخلية للتاريخ ، ولكنه - وهذا شيء له أهمية مبدئية في البحث التاريخي - لا يستطيع إلا أن يعترف بوجودها الموضوعي دون إكمال أو حشو أو إنقاص ، ودون تزييف أو تشويه) ص ٢٤٧ / ٢٤٨ .

ومن ثم تكون (الحقائق التي يستنبطها المؤرخ من الوثائق هي السياق التاريخي لتلك الوثائق) ، دون أن تخضع لصنع المؤرخ الذي يستنبطها - كما يقول إدواركار فتصبح عملية كتابة التاريخ عملية خلق من جديد) هامش ص ٢٤٨ .

وهذا الدور الذي ينهض به (الباحث) لا يتنافى مع قول فؤاد الشايب : (ولعل حسن الاختيار أساس الموضوعية والنصفة العلمية ، وتفهم روح القوم الذين يؤرخ لهم ، كثيراً ما كان الاختيار السيئ لدى مؤرخينا وروائنا القدامى والمحدثين مقصوداً به خدمة غرض قبل أومذهي أو قومي ، تضليلاً للحق والعلم ، ورغم صحة الحديث ، من حيث حدوثه) ص ٢٤٨ .

فالدكتور تيزيني بعدما يصف هذا القول (بالتمعية والخلط بالمفاهيم والتعسف في استخدامها لا يكاد يبعد عن مضمونها ، بل كأنه يؤيد اتجاه (الشايب) ويزيده وضوحاً ، فيقول :

١ - (ليس كل الذين ألفوا وكتبوا في التاريخ العربي قد قبلوا ذلك بروح موضوعية علمية وإن كانوا عرباً أو مسلمين .

٢ - لم يعد اختيار الحدث التاريخي هو الذي يحدد رؤية المؤرخ للتاريخ وإنما مواقفه ووجهات نظره الاجتماعية والأيدولوجية ومنهجيته العلمية .

٣ - الحديث عن اختيار سيئ وآخر جيد يصبح مشروعاً فقط حيناً ننتقل من

ذلك البحث التاريخي إلى البحث التراثي ، ذلك لأن هذا الأخير يقوم بالأصل على الاختيار التراثي المنطلق من الاحتياجات الاجتماعية الطبقية والقومية والأيدولوجية ، إلخ (ص ٢٤٩ .

أما عن البحث التاريخي فإننا (نؤكد رأى القائلين بذاتية التاريخ ، بمعنى أن ندرس التاريخ لذاته) ص ٢٥٠ ، ومع هذا ، فإن الباحث يكون (معرضاً للتحزب : لصالح شخصية أو فئة اجتماعية ، أو اتجاه فكري ما ، ولكن دون أن يكون ذلك مرتبطاً بعملية تحليل وتركيب ، يخضع من خلالها وعلى أساسها تلك الشخصية أو الفئة الاجتماعية أو الاتجاه الفكري لدراسة معمقة) ص ٢٥٠ .

ومثل هذا التحزب مرفوض من قبل (العاجزين عن إدراك المعنى الدقيق للتحزب التراثي والتاريخي ، فيخلطون بينه وبين التحزب التعسفي غير المنضبط بضوابط طبقية وفئوية وقومية إنسانية وبتوجيهات أيديولوجية محددة) ، ومرفوض من قبل (الممثلين لقوى اجتماعية دخلت الانحسار الاجتماعي ، وتحولت بذلك إلى قوى مضادة لحركة التقدم ، فيلجئون إلى إنكار فكرة التحزب التراثي والتاريخي أصلاً ، في وقت يمارسون هم فيه أشد أشكال التحزب لتلك القوى المنحصرة) ص ٢٥٠ .

* * *

إلى هنا والقلم يعتسف الطريق من أجل أن يستثنى من يخدمون الخط اليساري مع اعترافه أن (أكثر مواقف المؤرخين والباحثين التراثيين الأيديولوجية خلال تلك العصور الطويلة - متحيزة لصالح ملك أو نبي أو أمير أو فقيه أو متصوف أو فرقة دينية ، إلخ) ص ٢٥١ ، وذلك (نتيجة لواقع الحال الاجتماعي الحضاري العام الذي أحاط بهم) ص ٢٥٢ ، وكذلك الحال بالنسبة للناظرين في مواقف المؤرخين السابقين ، اختياراً وتحليلاً وتفسيراً ، فوقع الوجود على الوجدان - بكل ما في الوجود من مؤثرات وصراعات - قادر على تكوين أيديولوجيا ذاتية ، كما هو قادر على

تكوين أيديولوجيا طبقية أو قومية أو إنسانية ، وقد تتداخل الأيديولوجيات ، وقد تتناسخ ، وقد تتناسى ، لكنها تظل تحرك أصحابها وتعمل عملها بدرجات مختلفة . لهذا لانستطيع أن نحكم (التوجه) نحو التراث إلاّ بقدر من (التخلي) عن الأيديولوجيات (الملزمة) ، بدلا من (التحزب) ، والتمسك بها ، وأن تكون الرؤية العلمية مصحوبة بوعى إنسانى عام ، يحكمه حب الحقيقة وحب الخير ، وإرادة السلام .. ومن تم لاتكون (نظرية التراث المقترحة هى تجسد وإغناء وتطوير « للمادية التاريخية » فى نطاق « التراث ») ص ٢٥٤ ، لأن هذا هو التحزب المقيت ، الذى يزيّف ويشوه ويحسم ويخفى ، دون الالتزام بغير الخط الحزبى ، وهو ماسبق أن ندّدنا به فى كتابات الشيوعيين التاريخية .

إننا لانستطيع أن نفصل بين التاريخ والتراث ، كما يفعل السيد الدكتور ، لأن التاريخ بالمفهوم العام يشمل كل مايرتبط بالإنسان ، عبّر مسيرته ، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً ، ومن ثم فالتراث هو كل ماخلفه هذا التاريخ ، وكل ماخلفه التاريخ يعمل فى الحاضر وفى المستقبل بصورة أوبأخرى .

إن الفصل بين التاريخ والتراث عملية مصطنعة ، يقصد بها التخلي عن الموضوعية ، لصالح (الحزبية) ، مع أن هذا الفصل قائم على افتراض وهمى ، وهو أن التاريخ يتأخم الحاضر ولايدخله ، فى حين أن التراث يداخل الحاضر ويعيش فيه .

إذا كان (الوعى الطبقي ، أو مانسميه الأيديولوجيا ، هو حصيلة مكثفة لتكون وتبلور تاريخى وتراثى ، ضمن الطبقة المعنية فى علائقها الذاتية ، وعلائقها الأخرى الخارجية ، القائمة بينها وبين تلك الموجودة فى مجتمعات أخرى متاخمة أو بعيدة) ص ٢٥١ ، فإن الوعى الفردى ثمرة الوعى الطبقي والوعى العام ، ماضياً وحاضراً ، تتشابك فيه علاقات إنسانية ثقافية واقتصادية وسياسية وعسكرية ، إلخ .

وبناءً على هذا ، فإن صانعى التاريخ ، أصحاب الوعى الفردى ، هم

(حصيلة مكثفة وتبلور تاريخي تراثي) ، وهم المعبرون إلى حد ما عن مجتمعهم ، لأنهم مرآة هذا المجتمع ، فإذا كنا بصدد (البحث التاريخي) فإن الأمانة العلمية توجب دراسة (الأحداث) ، في ظل مكونات المجتمع ومؤثراته ، وفي ظل علاقة الفرد بالطبقة ، (وبالطبقات والفئات الاجتماعية الأخرى الموجودة في زمنه) ، ومن هنا لا يمكن فصل التراث عن التاريخ .

وإذا كان (المشروع) الذي يطمح الدكتور إلى القيام به يعتمد على (ملاحظة الحوادث الاجتماعية في سياقه التاريخي والتراثي) ، فإن (ملاحظة الحادث السياسي) تتم كذلك في (سياقه التاريخي والتراثي) .

وسواء تم الفصل بين التاريخ والتراث ، أو لم يتم ، فإن التحزب التراثي والتاريخي لا يبعد عما استنكره ، من أن (المؤرخ مؤلف) ، لأن (الاختيار) والتفسير والتحليل ، على ضوء المفاهيم والأيدولوجيات المعاصرة يجعل من هذا العمل فناً لا يصل إلى درجة العلم ، ومن ثم تضع الحقيقة التاريخية ، لأنها تتلون بألوان الأيدولوجيات .

إذا كان (ارتباط «الاختيار التراثي» بمقتضيات اللحظة الراهنة - في آفاقها المستقبلية - ارتباطاً موضوعياً وذاتياً ، لأننا حين نختار من تاريخنا ، فإننا نفعل ذلك انطلاقاً من موجهات ومقتضيات وآفاق واقعنا العربي الراهن اجتماعياً واقتصادياً وقومياً وثقافياً ، إلخ) فقيم إنكاره على الدكتور عبد الرحمن بدوي قوله : (كان على التاريخ - شاء أو لم يشأ - أن يكون ذاتياً ، وأن يتوقف على قدرة ذاتية خالصة للقائم بالبحث التاريخي) ، ثم يعلق بأن الدكتور بدوي (ينقل هذه الصورة الرمادية الداكنة عن قضايا التاريخ من الغرب الإمبريالي المستنشد تاريخاً إلى إطار اجتماعي ، لم تستطع قواه الاجتماعية ، البورجوازية في طبيعتها ، أن تحقق الحد الأدنى من التقدم العلمي التاريخي) هامش ص ٢٦٩ .

وإذا كان (واضحاً ومفهوماً ومشروعاً ألا يكون المستشرقون - من حيث المبدأ

العام - قادرين على ممارسة « الاختيار التراثي » العربي ص ٢٦٩ ، لأنهم غرباء عن هذا التراث ، أولأن مكوناتهم (الذاتية) تختلف عن مكونات أصحاب هذا التراث ، حتى إذا وعوا التاريخ والتراث العربي واللحظة القومية المعاصرة في الوطن العربي وعياً علمياً ، ووقفوا إلى جانب العرب وقفة مسيسة أصبحوا قادرين (ص ٢٧٠ .. أليس هذا التصور من واقع المنهج الذاتي لا الموضوعي .

مأمعنى أن هذا الاختيار (ليس « اختياراً » مقصوداً بذاته ولذاته ، وإنما هو فعل هادف) ص ٣٧٢ أليس هذا الهدف من واقع (التوجه الذاتي) وإن كان جزءاً من التوجه الوطني أو القومي أو العالمي ؟

إذا استعدنا الماضي تراثياً ، (نستلهمه ونسائله ونحاووه ، بهدف الإسهام في حل مشكلاتنا المعاصرة) ص ٢٧٦ ، ألا يعد هذا إعادة كتابة للتاريخ أو تأليفه ؟ . وإذا كان (لكل عصر الحق في أن يمارس الاختيار التراثي ، وفق احتياجاته وتطلعاته الموضوعية والذاتية فيأخذ من عناصر التراث الماضية والراهنة على سبيل الاستلهم التراثي ، أو التبنى التاريخي التراثي ، مايلي تلك الاحتياجات والتطلعات ، ويدع منها ما هو غير ذلك للباحثين المؤرخين الأكاديميين) ص ٢٨٢ ، فأين تقف المنهجية العلمية ، إذا لم تقف إلى جانب المؤرخين الأكاديميين ؟ .

لقد جال الدكتور جولة واسعة بين النزعات الفكرية المختلفة ، وقاتل في كل الجبهات ليجد نفسه أخيراً يتحرك في إطار ذاتي ، مدفوعاً بنوازع (حزبية) بعيدة من الحقيقة العلمية التي تطلب لذاتها ، لا الفائدة التي يجنيها الفكر الاشتراكي من ورائها .

إن هذه الجولة الواسعة هدفها تطهير الساحة الفكرية والسياسية من أى (أيديولوجية) مغايرة للمادية الاشتراكية ، لأنه (كيف تستطيع فلسفة تمثل حصيلة تطور عاصف في إطار علاقات رأسمالية نامية جداً أن تلبى الحاجة الثقافية لمثقفى طبقة بورجوازية إقطاعية هجينة متخلفة لم تحقق تراكمًا أولياً في الحقول الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ؟) ص ٣١٤ .

على هذا يصبح (الخيار الوحيد المطروح أمام الوطن العربي هو الثورة الاجتماعية الاشتراكية من حيث هي الأداة الوحيدة القادرة على تجاوز التخلف الحضارى والتجزئة القومية) ص ٣٣٧ فهي ثورة متطورة قائمة على فلسفة يتوجب عليها (أن تغير صيغتها مع كل اكتشاف ذى أهمية رائدة على الصعيد العلمى الطبيعى) كما يقول أنجلز . هامش ٣٢٣ ، وأن تغير أسلوب تعاملها مع الأيديولوجيات المختلفة ، وفقاً للظروف التى تنشأ معها أو من حولها ، (من خلال الحزب السياسى الثورى المتجانس أيديولوجياً ، سياسياً ، وتنظيماً ، على أساس الاشتراكية العلمية وقاعدتها النظرية الفلسفية) ص ٣٢٨ .

وانطلاقاً من هذا الموقف (لايفوتنا التأكيد على أن نظرية التراث المقترحة هنا ترى مهمتها القصوى فى العمل على اكتشاف :

١ - وحدة الفكر العربى فى سياقه التراثى ، بعد أن يكون قد بحث واستقصى فى سياقه التاريخى .

٢ - وفى خلق جسور عميقة بينه وبين الحاضر العربى ، فى احتياجاته الشاملة الاجتماعية والاقتصادية والقومية والثقافية الأيديولوجية) ص ٣٣٠ / ٣٣١ .

وإذا كان (التراث العربى الفكرى يحدد نفسه حتى الآن مرغماً على أن يقدم مزيداً من التبريرات لشرعية الوجود الأيديولوجى الإقطاعى ، وبالتالي للوجود الطبقي الإقطاعى ، وذلك انطلاقاً من واقع الحال فى الوطن العربى الذى يتميز بأن الجماهير العظمى فيه تتحرك فى إطار هذا الوجود الأيديولوجى وتحميه ، معتبرة إياه الوجود الأمثل ، ومعتبرة أن أى تحدٍ له هو تحدٍ لها نفسها) ص ٣٣٤ / ٣٣٥ - فإن علينا أن نعرف (كيف نعبئ الجماهير اشتراكية وقومية ديمقراطية ، إذا كان معظمها ما يزال متمسكاً بالقيم الدينية الإسلامية والمسيحية) ص ٣٣٩ .

(إن الدينين الإسلامى والمسيحى لا يتعارضان ، فى نطاق تأويل عصرى لها ، منطلق من منهجية البحث الماركسى ، مع الأخذ بالاشتراكية العلمية وأساسها

الفلسفي نظرية ، وبالاشرائية تشكيلة اقتصادية اجتماعية (ص ٣٣٩
(ماعلينا إلا أن نمد أيدينا إلى الوراء لنكتشف كل مامن شأنه تدعيم مواقفنا
الأيدولوجية الاشرائية لدى جماهيرنا مزيلين بذلك مرة واحدة ، وإلى الأبد ،
تلك القطعية التي تكونت بيننا وبين هذه الجماهير. ومثبتين كذلك أن تاريخنا وتراثنا
مترعان بالأفكار الاشرائية الثورية ، ونكون بذلك أخيراً قد سحبنا البساط من
تحت أرجل القوى والأحزاب السياسية الإقطاعية والبورجوازية الإقطاعية التي
جعلت من تاريخنا وتراثنا - لفترة مديدة - حكراً لها واحتياطياً أيدولوجياً لمعاركها
ضد التقدم (ص ٣٣٩ / ٣٤٠ .

(لاشك أن ذلك التراث خصب وغزير في عناصر العداء للتقدم الاجتماعي
والفكري ، ومن ثم فإن لجوء أيدولوجية تلك الطبقات إليه يرتكز إلى أساس فعلي
غير مصطنع ، وبناء عليه فإن الرد على ذلك لاينطلق من إنكار تلك العناصر كما
يفعل ذلك الأيدولوجيون تجاه العناصر التقدمية منه بغباء وحقد ، وإنما هو من
تقويم جديد للفكر العربي الإسلامي كله ، تقويماً يضعه في سياقه التاريخي
والتراثي ، ويخضعه « لاختيار تراثي ثوري » . منطلق من موجبات واحتياجات
وآفاق المرحلة القومية المعاصرة في الوطن العربي (ص ٢٤٦ .

(لنبحث في ذاكرتنا تلك الانتفاضات التي التهمت في المجتمع العربي الوسيط
والحديث على الأقل - دون أن نذكر المعاصر - مثل انتفاضة الخوارج والقرامطة
والزنج ، والانتفاضات الفلاحية في لبنان وسوريا والعراق ومصر ، الخ ، ثم
لنستعرض الصراع الأيدولوجي الذي دارت رحاه بين اتجاه التقدم واتجاه المحافظة
والرجعية ، في تلك المراحل التاريخية من المجتمع العربي .. فلننا نجد أن تحليلاً
اجتماعياً واقتصادياً وأيدولوجياً وثائقياً للمراحل ما قبل الاشرائية - يقدم لنا
مجموعة ضخمة من الإنجازات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والأيدولوجية التي

حققتها الطبقات المستغلة السائدة في المجتمعات الإنسانية قبل الاشتراكية) .
ص ٣٦٢ / ٣٦٣ .

وعلينا أن نعى جيداً قول لينين : (بدون تراث الثقافة الرأسمالية لانستطيع أن
نبني الاشتراكية) هامش ص ٣٦٤ .

وهذا لانصبح (الماركسية) فكراً دخليلاً على المجتمع العربي الإسلامي ، بل
تكون نابعة منه ، أصيلة فيه ، وبخاصة إذا عرفنا أن كارل ماركس قرأ كتاباً (في
الأموال) لمؤلف عربي من القرن الرابع الهجري يسمى أبو عبيد الله ، ترجمه أحد
المستشرقين ، وعلق ماركس على هوامشه بخطه تعليقات تشيد بالأفكار الاجتماعية
التي فيه .. ويروى المستشرق بولجانوف أن ماركس كان يقرأ هذا الكتاب في أثناء
تأليفه لكتابه (رأس المال) وأن بين أبي عبيد الله وماركس في قضية العمل وقيمته
شبهاً كبيراً ص ٣٦٩ . ولقد سبقت الإشارة إلى اشادة لينين بفكر ابن خلدون ،
ولقد تساءل لينين : (ترى ، أليس في الشرق آخرون من أمثال هذا الفيلسوف ؟)
ص ٣٧٠ .

وهناك وثائق ومواقف أخرى للينين ولغيره من الماركسية ، تظهر اهتمامه المباشر
والخاص بقضايا التطور في الوطن العربي الحديث . ص ٣٧١ .

و (إن اللينينية تقدم صورة دقيقة عن فهم وتطبيق وتطوير الماركسية في المجتمع
العربي ، وهذا ما يضع حداً لأعداء الماركسية المستوردة) هامش ص ٣٧٢ .

هكذا يثبت الكاتب القدير أن بيننا نسباً وصهراً مع الماركسية. وهكذا (ترى
أصالتنا متطابقة مع مجموع الحركات والاتجاهات والشخصيات التقدمية والمحرضة
على التقدم في تراثنا العربي الإسلامي ، بدءاً من التساؤلات العقلية البسيطة التي
طرحها القرآن والمؤمنون والهاطقة اللاحقون أمثال أهل الرأي والنظر والقديرين ،
وحق أعمق وأعقد المسائل والحلول التي طرحها وقدمها المفكرون العرب
الإسلاميون في مراحل النهوض ، والانحسار ، ثم النهوض الحديث) ص ٣٧٣ .

هكذا يخطط القوم من أجل نشر (الماركسية) في حين يحمل (الكهنة)
أكفانهم بين أيديهم ، يحرمون كل جديد ، ويكفرون كل مجتهد ، ويجاهدون ضد
النظم الاقتصادية الحديثة في البنوك وشركات التأمين ، ويلبسون نساءهم ثياب
الحجاب المتجاوزة . فتى يا أيها النّوّام نصّحو ؟ !

في الدين والتراث

٥

(طبقاً لما يقول أرنست رينان - بحق - فالفكر القديم ليس قادراً على أن يقدم لنا شيئاً ، وأن علينا لذلك ألا نطالبه بأكثر من نفسه هو) ص ٦ .
بهذا يقدم هادي العلوي كتابه (في الدين والتراث)^(١) ، الذي ينحو منحى صادق جلال العظم في مهاجمة الإسلام والمسلمين بصورة أكثر عرياً وأشد تبجحاً .

تقول سطوره الأولى : (مبدئياً ، ليس بين الإسلام والاستعمار تناقض ، فلاستعمار لا يحارب الأديان ، لأنها أصلاً لا تحاربه ، والإسلام كعقيدة لا شأن له مع الاستعمار ، وقد استطاع المتدينون المسلمون ورجال الدين الإسلامى ممارسة طقوسهم وواجباتهم الدينية في ظل الحكم الاستعماري بكل أشكاله : احتلال ، حكومات عميلة .. ومن غير أن تثار في وجوههم أية مشكلة بسبب ذلك) ص ٨ .

عبارة لا يجرؤ الاستعمار نفسه على أن يقولها لا بسبب الخلل في التركيب ، إذ إن عدم محاربة الاستعمار للإسلام - فرضاً - لا يعنى عدم التناقض ، فقد تكون المهادنة وسيلة لتجنب صراع يسبب متاعب ما أغناه عنها ، ثم إن المصالح الاستعمارية لا يمكن بحال ألا تتعارض مع مصالح الشعوب الإسلامية ، يكفي أن يكون المستعمر دخيلاً على هذه الشعوب ، يشاركها قوتها ، ويهدد مسيرتها ، ولقد

(١) دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٣ .

حارب الإنجليز بعضهم بعضاً على الأرض الأمريكية لجرد أن بعضهم سبق إلى هذه الأرض واستأثر بها . . هذا . . وإن تاريخ الاستعمار في أفريقيا وآسيا يمثل حروباً مستمرة ضد الإسلام ، وضد اللغة العربية ، بصورة ضارية ، ومن يقرأ العناوين الرئيسية - دون أن يقلب في صفحات التاريخ الأسود الطويل - يتعرف إلى ما صنعه فرنسا بالإسلام واللغة العربية في الجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا ومالي وتشاد والنيجر وغينيا والسنغال والصومال (الفرنسي) وسوريا ولبنان ، ويتعرف إلى ما صنعه إيطاليا بليبيا والصومال (الإيطالي) وإرتريا ، ويتعرف إلى ما صنعه إنجلترا في مصر والسودان وفلسطين والعراق واليمن وفي الهند وأفغانستان وإيران ونيجيريا وغانا وتنجانيقا وزنجبار ويتعرف إلى ما صنعه هولندا بأندونيسيا وساحل الخليج العربي وشرق أفريقيا ، ويتعرف إلى ما صنعه روسيا بالشعوب الإسلامية ، من الخزر والترك والفرس والأرمن ، الذين ضمتهم إلى الاتحاد السوفيتي واستنزفت عقديتهم ودماءهم وأموالهم . . ولا يخفى ما تحدثه الآن في أفغانستان واليمن وإرتريا والصومال وسوريا ولبنان وتشاد .

ولقد استدرك الكاتب خطأه ، في هذا التعبير ، فقال (والكلام بلا فواصل) :

(ولكن الاستعمار وجد نفسه أكثر من مرة أمام مجابهة ترتدى ثوباً إسلامياً ، كما حصل - على سبيل المثال - في حركة الجامعة الإسلامية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني ، وفي حركات التحرر الوطني في المغرب العربي ، حيث ارتبط النضال ضد الاستعمار الفرنسي ببقايا ثقافة إسلامية رافقت وعززت الأهداف الوطنية والقومية لكفاح المغاربة ، وأخيراً في ثورة العشرين العراقية ، التي قادها رجال الدين الشيعة (١١) ضد الاحتلال الإنجليزي للعراق ، في معالجة أزمت كهذه كان الاستعمار مضطراً إلى شن هجوم أيديولوجي ضد الإسلام ، ووسيلته إلى ذلك هي التبشير والمحتوى الثقافي لتبشير ديني بحت ، يشرح مزايا المسيحية والمسيحيين ،

ومساوئ الإسلام والمسلمين ، هادفاً إلى زعزعة العقيدة الدينية لهؤلاء وتحويل أفكارهم باتجاه المسيحية دين المستعمر) ص ٩/٨ .

فإذا كان الأمر كذلك ففيم كانت العبارة قبل ، إلا إذا كان الكاتب مدفوعاً بمحدد أسود لمهاجمة الإسلام والمسلمين ، لأن العقيدة الدينية هي التي لا تزال الصخرة الصامدة في وجه المدّ السوفيتي والتعاليم الماركسية ؟

قد تجد التحركات الإسلامية اليوم عوناً من جهات غير إسلامية اعترافاً منها بقدرة العقيدة الدينية على مواجهة المدّ الإلحادي التخريبي الدموي .

ولقد تحالف من قبل الإنجليز والفرنسيون والأمريكان مع الاتحاد السوفيتي في مواجهة النازية ، وكلمة تشرشل - عن استعداداته للتحالف مع الشيطان (الروسى) للدفاع عن بلاده - مشهورة .

لكن هذا العون لا يمكن أن يحوّل التصادم (إلى نوع من الوفاق) يستخدم فيه الإسلام ستاراً لتنفيذ مشاريع استعمارية) ، وليس صحيحاً أنه (قد حصل مثل ذلك في السودان على يد الحركات الدينية كالمهدوية والإخوان المسلمين ، وفي الجزيرة العربية على يد أسرة آل سعود ، ومؤخراً في أندونيسيا ، ومن أبرز وأقوى أشكال التحالف ما تمخّض عن إقامة دولة الباكستان التي وضعت - منذ لحظة ميلادها - في خدمة المصالح الإنجليزية والأمريكية) ص ٩ .

إن مثل هذا القول الجزاف بعيد كل البعد عن المنطق السياسي والمنهجية العلمية ، لأن الحركة الدينية لا تنشأ على أرضها مقطوعة الصلة بالعالم ، لأنها جزء من التيارات المتصارعة على هذا الكوكب ، وكما تهبّ الرياح على مكان حين يسخن الجو أو يبرد في مكان آخر ، وتسقط السحب في غير مكان إنشائها كذلك الاتجاهات الفكرية والعقائدية تتأثر وتتحرك بحركة ما يجري في العالم ، لكنها - بقدر أصالتها وأصالة القائمين بها - لا تزيف ولا تنحرف ، وإن لبست ثياباً ملونة تفرضها طبيعة المناخ أو طبيعة اللعبة السياسية .

وإذا كان الشيخ محمد الخالصي قد أعلن (في رابعة النهار) عن (وجوب الاتفاق مع الإنجليز والأمريكان وغيرهم من مستعمري أوروبا المسيحية ضد الشيوعيين ، لأن أولئك أهل كتاب وهؤلاء ملاحدة) ص ١٠ ، فإن دعوة هذا الشيخ - وهو ابن الشيخ مهدي الخالصي أحد زعماء ثورة العشرين العراقية ، ضد الاستعمار الإنجليزي - إنما هي دعوة (المخالفة مع الشيطان) في مواجهة الوباء الذي يهلك الحرث والنسل .

وإذا كان الاستعمار لا يحارب الأديان - كما يزعم الكاتب - ألا يُستعان به ضد أعداء الدين ؟

ماذا يفعل أبناء أفغانستان اليوم إذا لم يجدوا غير العون الأمريكي ؟
إن أخطر ما تصاب به الدول (النامية) اليوم أن يبلغ ببعض أبنائها الولاء للدولة أخرى حذاً التخلي عن الوطن والدين والتاريخ .

الإسلام والاستعمار الثقافي

(تتمركز الدراسات الغربية لتاريخ الإسلام حول محاولة إلغاء الوجود التاريخي للحضارة الإسلامية ، أعنى سلبها تلك المساهمات الفعلية في حضارة العالم القديم ، وإنزال دورها في التاريخ الإنساني إلى مرتبة الصفر وقد نهض بهذا العبء المستشرقون) ص ١٢ .

لكن من المستشرقين من لجأ (إلى حضيض الشتم الذي يمارسه صغار الصحفيين) أمثال الأب لا مانس ، ولكن هذه الطريقة (مفضوحة ومنفرة للغاية) ومنهم من أخذ منهج البحث العلمي ستاراً يعمل من ورائه على (تفرغ الظاهرة من أى محتوى إيجابي يحتمل أن يكون قد حقق لها تأثيراً في مجالها الخصوص . . ويمكن أن يشار في حدود هذا المخطط إلى الكثير من كتابات كبار

المستشرقين أمثال لويس ماسنيون ، وهاملتون جب ، ومتغمري وات ، وروزنتال ، وهنرى كوربان ، فضلا عن سابقهم دى بور، وفلهوزن ، وكولدزهر ، وغيرهم) ص ١٣/١٢ .

ويدعو إلى هذا الموقف (حاجة الاستعمار إلى المزيد من الأسلحة ، فى صراعه ضد الشعب العربى والشعوب الإسلامية بوجه عام ، وبحقق هذا المسعى للمستعمرين منافع استراتيجية خطيرة ، وعلى سبيل المثال : تجريد الشعوب من خصائصها القومية ، تشكيكها فى قدراتها الذاتية على التطور ، تأكيد الفلسفات العرقية ، تصوير تخلفها الحالى كما لو كان امتداداً لتاريخ طويل من التأخر والهمجية) ص ١٤ .

فإذا كان هذا هو موقف (الشوفينية الأوربية) فما عسانا نفعل لنحمى أنفسنا من هذه الأساليب الخبيثة ؟ .

يقول السيد الباحث الذى سبق أن قرر وجود وفاق بين الاستعمار والإسلام : (لم يعد للقوى الثورية - فى منطقتنا العربية - من مبرر لبقاء علاقتها مع العقائد الدينية ، أياً كان شكلها ، إن الأيديولوجية الثورية تتعارض فى جوهرها مع الدين ، وليس للدين بدوره أن يقدم أية مساهمة فى كفاحنا الحالى ضد الاستعمار والإمبريالية) ص ١٤ .

فأين تقف هذه القوى الثورية ؟ فى صف الاستعمار الغربى الذى (يجرد الشعوب من خصائصها القومية) . وأبرز هذه الخصائص الدين واللغة والتاريخ ؟

* * *

ويقول : يجب الفصل بين الدين والتراث ، إذ (يختلف الموقف من الدين عن الموقف من التراث ، إن ثقافتنا يمكن - بل يجب - أن تستغنى عن الفكر الدينى ، ولكنها لا تستطيع الانفصال عن التراث الفكرى للإسلام) ص ١٥ .

فأين يسكن هذا (الفكر الدينى) إذا لم يكن فى (التراث الفكرى للإسلام) ؟

يقول (يؤكد لينين أن الثقافة القومية ذات طابع مزدوج ، إذ هي تتضمن بالإضافة إلى الثقافة السائدة للطبقة الاستغلالية عناصر من الثقافة الديمقراطية الاشتراكية ، ذلك لأن في كل أمة جماهير كادحة مستغلة ، ويوضح الكاتب السوفيتي فلاديمير غوريونوف - في تحليله لهذه المقولة اللينينية - أن العناصر الديمقراطية هي الجزء غير القابل للاستبعاد من التراث والذي ينبغي أخذه بالضرورة لبناء الثقافة الجديدة) ص ١٥/١٦ .

وماذا يفعل الاستعمار الغربى غير أن يركز على الجوانب (السلبية) التى تخدم أهدافه ؟

إذن ، فالموقف واحد ، دون حاجة إلى منهجيات علمية ، فكل تراث فيه الطيب والخبيث ، والسمين والغث ، والكلاّب عادة لا تأوى إلّا إلى الجيف . فإذا كان - عند (السادة) الشيوعيين - (التفسير المادى للتاريخ هو النظام الأمثل لضمان تقييم سليم للظواهر المدروسة) ص ١٧ فإن (المنهجية الموضوعية) عند (السادة) الرأسماليين هي (النظام الأمثل لضمان تقييم سليم للظواهر المدروسة) . فإذا نحن فاعلون ، وقد وضّعنا (الثوريون) بين اختياريّين ترفضهما مصالحنا الحيوية ومقوماتنا القومية ؟

وإذا كانت هذه (الظاهرة التاريخية) مرتبطة خيوطها بالعقيدة الدينية ، فكراً ومناخاً وأسلوب حياة ، فكيف لمن ينكر الدين ومحاربه أن يهتدى إلى (قرار عادل جدير بالاحترام) ؟

إذا كان الباحث (يستطيع بتقييم آحادى الجانب أن يمسك بأرسطو ويطرّحه في مزبلة التاريخ فيما لو أخذ بنظر الاعتبار نظريّاته الفلكية ، كما يستطيع باحث آخر أن يعتبر أرسطو مادياً من الطراز الأول إذا استند إلى جوانب معينة من فلسفته الطبيعية) هامش ص ١٨ فكيف نطمئن إلى ما يفعله الشيوعيون أو الرأسماليون وهم يتوجهون إلى التراث بدوافع (سياسية استعمارية) ؟

أليس من واجبتنا أن نتوجه إلى التراث العربي الإسلامي بروح عربية إسلامية
بحيث تستجيب الأصالة التاريخية للأصالة الذاتية فنكشف عن حاجتنا لتدعيم
حاضرنا ومستقبلنا ؟

نحن نعييب على المستشرقين دراستهم للأدب العربي ، لأنهم يتعاملون مع ظاهر
الدلالة اللغوية دون القدرة على اكتناه موحياتها فتذوق اللغة والتفاعل معها
لا يتوافران بمجرد دراستها لأن اللغة علاقات نفسية ذات أبعاد مختلفة ، ومن هذه
العلاقات النفسية الولاء القومي : ديناً ولغة وتاريخاً وعادات وتقاليده .
ولقد تحول الولاء القومي عند الشيوعيين - للأسف - إلى ولاء مذهبي حزبي ،
ومن ثم كان من اليسير على الماركسي أن يضحي بدينه ووطنه وقومه على مذهب
(الشيطان الأحمر) فكيف يحكم أمثال هؤلاء في تراث (عربي إسلامي) ؟

* * *

ويقول : (يتعين أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن تراث الإسلام لا يمثل - حتى في
أقدم أدبياته : القرآن والحديث وسلوكيات وأفكار الصحابة والتابعين - موقفاً
واحداً يمكن أن تتحدد خصائصه تحديداً نهائياً وقاطعاً) هامش ص ٢٢ .

وهذا القول يتردد على أقلام اليساريين وأشباعهم ، من صادق العظم إلى غالي
شكري ، ومنع هذا فإن أحداً لم يسأل نفسه : هذا (الموقف الواحد) ، من أي
شيء ؟ من الخالق ؟ من المخلوق ؟ من الخير ؟ من الشر ؟ من الحلال والحرام ؟ من
الحقوق والواجبات ؟

هل ثمة اختلاف فيما جاء به القرآن ؟ فيما جاءت به السنة ؟ فيما بين القرآن
والسنة ؟

هل قال الصحابة أو التابعون بغير ما جاء في القرآن والسنة أو بما يخالفها ؟
لو أن هؤلاء اليساريين يقرءون في أصول التشريع الإسلامي لكان لهم أن
يضعوا أيديهم على مكان الداء ، فيحق لهم أن يتاجروا بها . . أما أن يقف الأمر

عند مجرد الافتراءات المطلقة ، فهذا ما لا ينبغي الالتفات إليه .
والسيد الكاتب نفسه يعترف بأن المنابع التي ينهلون منها ، ثم يتقيئون ما ينهلون ليست صالحة للأخذ بها ، لأن (المعالجات الماركسية للتراث الإسلامى تواجه معضلتين ، أولاهما : عدم الإحاطة بالظواهر المدروسة ، تلك المشكلة اللازمة لأكثر المستشرقين ولكنهم من الكتاب العرب أيضًا ، ولا عذر للباحث فى التمسك باستقراء ناقص يستند إليه تصوره لأية ظاهرة يدرسها ، والثانية : ترتب على الامتدادات المعاصرة لحضارة الإسلام ، من جهة ارتباطها بالدين) ص ٢٢/٢٣ .
فإذا كانت الحضارة الإسلامية مرتبطة بالدين على امتداد التاريخ الإسلامى إلى اليوم ، وإذا كانت (المعالجات الماركسية لا تملك الإحاطة بالظواهر المدروسة) ، فكيف نجرؤ على أن نصدر أحكاماً مطلقة . ترددها أبواق صماء ، لا تملك القدرة على المناقشة والمراجعة ؟ .

تشريع الاستبداد . ونشوء البيروقراطية فى الإسلام . .

تحت هذا العنوان المثير يقول :

(كانت الشريعة هى الدستور المرعى للدولة . فى زمن النبی محمد والخلفاء الراشدين ، مع فترة استثنائية من ثلاث سنوات ، تستغرق حكم عمر بن عبد العزيز ، فى هذا العقد كانت أعمال الخلفاء مقيدة بأحكام الكتاب والسنة ، وما أدى إليه اجتهدهم فى الأمور المسكوت عنها فى هذين الأصلين) ص ٢٨ فمن أين جاء الاستبداد فى التشريع إذن ؟

يقول : (إن الدولة الإسلامية استمرت تحكم بلا دستور ابتداءً من معاوية حتى سقوط الخلافة العباسية) ص ٣٠ .

وعلى هذا ، فالذنب ذنب حكام بنى أمية وبنى العباس ، وليس ذنب الدستور ، لكنه يقيم الحجة على الشريعة ، بأن (السلطة كانت فى ممارستها لهذه

السياسة في حاجة إلى مرتكز أيديولوجي ، وقد وفرت المبادئ الدينية مادة كافية لهذا الغرض (ص ٣٥ .

وفي بحثه خلف هذا (المرتكز الأيديولوجي) يذكر أن عبد الله بن عمر (اختط لنفسه موقفاً من السلطة يقضى بطاعة كل خليفة) ، وأنه قال (لا أقاتل في الفتنة وأصلى وراء غالب) ص ٣٦ وأن الحسن البصري أفتى بأن (أفعال المستبدين قد تكون عقوبة من الله على عصيان الناس لأوامره وقد تكون بلاءً منه يمتحن به العباد) ص ٣٨ وأن هذه الفتوى كانت (لمنع الانتفاضة المسلحة التي كان العراقيون ينوون القيام بها ضد الحجاج ، والتي عرفت في التاريخ باسم حركة ابن الأشعث ، وكان الحسن البصري معادياً للحجاج والأمويين ، ولكنه ضد المعارضة المسلحة) ص ٣٨ .

أى أن المأخذ على موقف الرجلين بسبب المسألة حفاظاً على الصف الإسلامي ، في وقت انتشرت فيه الفتن ، وقاتل المسلمون بعضهم بعضاً . ولو أن هذا الموقف مدان ، لأنه يحاول إطفاء الحريق ، بدلا من أن يمددها بالوقود ، فما ذنب الشريعة ؟

يقول : (من الجدير بالملاحظة أن عقيدة الجبر مستمدة أصلاً من القرآن ، وتوجد آيات تنص على الإرادة الحرة للخالق وتدخله المباشر في تعيين الرزق والعمر ، بل وسائر الأحداث في المجتمع والطبيعة) ص ٣٩ وكذلك الحال بالنسبة للقدرية ، فهم يجدون في القرآن آيات (تنص على الإرادة الحرة) للإنسان وأنه مسئول عن عمله (كل نفس بما كسبت رهينة) (يوم تجزى كل نفس بما كسبت) . . (من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد) .

رصيد موفور من الآيات الكريمة تحدد مسئولية الإنسان ، وتدعوه إلى أن يسعى ويمشي في مناكب الأرض ، طلباً للرزق ، وأن يجاهد في سبيل الله - إلى جوار

تحقق الإرادة الإلهية ، وقد عالج القدرية والأشاعة ، في كتبهم الكثيرة ، موضوع الكسب والاكْتساب - الجبر والاختيار - علاجاً فلسفياً رائعاً ، سبقت الإشارة إليه (ص ٧٦ وما بعدها) خلال مناقشة أوهام الدكتور تيزيني .

على أن (من المدهش أن تقترن هذه العقيدة - عقيدة الجبر - بمستوى رفيع من الاندفاع في العمل من أجل الدعوة . . ويستخلص بليخانوف من هذا الوجه دليلاً على أن الجبرية قد تلعب دوراً إيجابياً في التاريخ) ص ٤٠/٣٩ . لأن هذا المذهب ليس أساسه السلبية أو التواكلية ، وإنما أساسه تنزيه الله عن أن يشاركه في ملكه أحد ، أو مرد الأمر إلى الله ، تأدباً وتعظيماً لأن (بيده ملكوت كل شيء) . هذا إلى أن (شيوع الجبرية قد أدى أحياناً إلى اعتناقها كعقيدة فلسفية دون أن تعنى بالضرورة مساندة السلطة) هامش ص ٤١ . وإذا كان أحمد بن حنبل قد رفض (مقاطعة المأمون وخلفائه برغم تبنيهم للطريقة المعتزلية) ص ٤١ فإنه رفض الاستجابة لإرادة المأمون والمعتصم من بعده أن يقول بِخَلْقِ القرآن ، واحتمل محنة التعذيب والسجن .

وإذا كانت (العقيدة الشيعية بفرعها الإمامي والإسماعيلي تظهر الخلافة كما لو كانت جزءاً من الوحي الإلهي ، ويعتبر وجود الأئمة الشيعية من هذه الناحية استمراراً للنبوة) ص ٤٣ ، فهذا شأن الشيعة فيما يذهبون ، ولا علاقة لهذه المزاعم بالتشريع الإسلامي ، وسواء كان مرد هذه المزاعم إلى دسائس اليهودى عبد الله بن سبأ وشيعته ، أو هى من صنع الانتكاسات التي مُنئى بها الشيعة الإمامية والإسماعيلية ، فإن مثل هذا الضلال يحدث إلى الآن ، فما يزال المتسلقون يبالغون في تعظيم ذوى السلطان ، ويجعلون منهم هياكل مقدسة ، يستوى في ذلك المعز لدين الله الذى قال فيه ابن هاني الأندلسي :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وجوزيف ستالين الذى كتب فى نعيه أحد المتطلعين إلى الرعاية مقالاً يقول :
(مات نبي الله ستالين) .

* * *

هذا عن الاستبداد ، أما عن البيروقراطية فقد نبئت جذورها فى عهد عمر بن الخطاب ، إذ (وصف عمر نفسه بأنه كان شديداً مهيباً ، وكان الناس إذا أرادوا أن يكلموه فى حاجة وسطوا عبد الرحمن بن عوف لاختصاصه به ، ولكن عمر لم ينزل عن جمهوره وقد أبدى تخوفه من أن ينزل الولاة فكان يشترط عليهم ألا يتخذوا حاجباً) ص ٤٤ .

فما ذنب عمر إذا كان مهيباً ؟ وهو القائل : (إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسدونى) ، فلما قال أحدهم : (والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) حمد عمر الله لأنه وجد فى أمة محمد من يقومه بسيفه .
وحين راجعته امرأة - وهو على المنبر - فى أمر المهور ، قال أصابت امرأة وأخطأ عمر .

فن أى طريق يصل هذا (العلوى) إلى مثالية عمر ؟
يقول : (وفى الطبرى نص كتاب أرسله عمر إلى أبى موسى الأشعرى ، أحد ولاته على البصرة ، يقول فيه : « إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من قبلك وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم وفى القسم) ص ٤٥ .

ومن أجل أن الناس فى المجتمع القبلى وفى أى مجتمع يستعينون بغيرهم فى رفع حوائجهم تصبح (هذه التوصية نذيراً بإنهاء الصلة المباشرة بين السلطة والجمهور) ص ٤ ، كأن على عمر أن يوصى بالضرب على أيدي وجوه الناس الذين يؤدون خدمات اجتماعية ، أو بالضرب على أيدي من يستعينون بهم . . وهذا (الهادى العلوى) يعلم ماذا يحدث فى مجتمع الحزب الواحد ، إذ يتوقف قضاء

الحاجات على رجال الحزب ، أو من يلوذون بهم لكنه (الأفن) الذى يعيب (امتناع الخلفاء الراشدين عن اتخاذ الحرس الخاص ، برغم الإشارة عليهم به لأغراض الصيانة) بأنه (تصرف ينطوى على السذاجة) ص ٤٦ ، فإذا أقام معاوية الحرس الخاص والبوابين اتهمه بالاستبداد والانعزال عن الشعب ص ٣١ ، فأين الصواب يا ترى ؟ .

وبعد أن يبالغ في اتهام الحكم الأموى (بالجبرية والخيلاء) ص ٤٦ يقول : (إن الخليفة الأموى حافظ - مع شراسته وعنفه - على البساطة فى شكلية السلطة ، باتجاه يعكس قرب الصلة بالبدواة ، طبقاً لنظرية ابن خلدون) ص ٤٧ .

ولما كان العباسيون قد وصلوا إلى الحكم عن طريق السيف ، ولما كانت هناك عناصر كثيرة تعمل ضدهم فى الخفاء وفى الجهر ، ولما كانت النظم الفارسية قد أخذت طريقها إلى جهاز الدولة ، سياسياً وإدارياً ، فقد حق لأبى حيان التوحيدي أن يقارن (بين هذا الأسلوب وأسلوب الناس فى مخاطبة ربه ، فيلاحظ أن الناس يتجرءون على مخاطبة الأخير (١١) مباشرة ، مستعملين ضمير المخاطب ، فى حين لا يستطيعون ذلك مع رجال الدولة) ص ٤٩ . مع ملاحظة أن التوحيدي ذكر ذلك فى (مطالب الوزيرين) (١١) ، ومع ملاحظة أن حكام الكرملين - شأنهم شأن جميع حكام العالم - لا يتحركون إلا ومن حولهم جيش من الحرس الخاص العلنى ، والسرى ، فضلاً عن رجال الأمن المركزى ، ورجال الأمن العام ، ومباحث أمن الدولة ، إلى آخر هذه الأجهزة التى شكلت فى الدرجة الأولى لحماية الحكام على حساب الكادحين البروليتاريين. ١١

(١) كتاب فى تعدد مطالب الوزيرين : الصحاح بن عباد وابن العميد - حققه ونشره إبراهيم الكيلانى - دمشق سنة ١٩٦١ .

تحريم كنز الأموال . . أسرارہ ومعلقاته . .

يتناول الآية الكريمة (٢١٩) من سورة البقرة :

(ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو)

والآيتين الكريمتين (٣٤ - ٣٥) من سورة التوبة :

(والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب

أليم ، يوم يُخَمَّى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكتزون) .

ويورد ما قيل في تفسير الآيتين ، ثم يقول : (إن المفسرين الذين قالوا بالنص

على حرمة التملك في آيتي العفو والكنز مجمعون على أن هذا الحكم أبطل بعد أن

شرعت الزكاة ، والظاهر من الروايات أن الزكاة شرعت حلا للخلاف الناشئ من

استئصال بعض الصحابة لتحريم الكنز ، ولا يخفى العديد من الصحابة والمفسرين

ارتياحهم للنسخ ، وإعجابهم بالزكاة التي طهرت أموال المسلمين وحررتها من

القيود) ص ٦٥/٦٦ .

ثم يصور موقف الصحابة من إنفاق ما زاد عن الحاجة ، والأخذ بالزكاة على

شكل فريقين ، فريق على رأسه عثمان بن عفان ، الذي يمثل الأغنياء وفريق على

رأسه على بن أبي طالب الذي يمثل الفقراء .

فالفريق الأول يناصر الزكاة ، بموجب الآية الكريمة (١٠٣) من سورة

التوبة : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ، وفي سبيل ذلك عمد إلى

الادعاء بنسخ آيتي العفو والكنز ، ولا أدري إن كان من قبيل المصادفات أن يتخذ

عثمان قراره المشهور بجمع القرآن بتحرير نسخة معتمدة منه ، واتلاف جميع النسخ

المتداولة ، حتى ذلك الوقت . . وقد انتهزت هذه الفرصة لتحريف آية الكنز ، حتى

تطابق التأويل المقصود ، ولعل مما شجع عليه أنه لا يتطلب سوى حذف حرف واحد من الآية ، وقد نقل السيوطي في « الدر المنثور » عن ابن الضريس « أنهم - لما أراد عثمان أن يكتبوا المصاحف . . أرادوا أن يلغوا الواو التي في « براءة » والذين يكتزون الذهب والفضة » . . فاعترضهم أُبَيُّ بن كعب ، وقال : لنلحقها أولاًضَعَنَّ سِنِيَّ على عاتقي ، فألحقوها ، وأبَيُّ من الممالئين لعلی ، وكان عضواً في لجنة جُمع القرآن ، لكونه أحد القراء المعتمدين) . ص ٧٠/٦٩ .

والغاء الواو يؤدي إلى أن يصبح (الذين يكتزون الذهب والفضة) صفة للأخبار والرهبان في الآية السابقة ، وهذا يكون فريق الأغنياء حاول العبث بالقرآن من أجل إباحة الكنز .

ولسنا في حاجة إلى ذكر وقائع جمع القرآن ، فبين أيدي القراء كتب كثيرة قديمة وحديثة تناول هذا الأمر بالتفصيل .

ونكتفي بقول الكاتب الألمعي ، معلقاً على هذا (التآمر) بأنه (كان مقدراً له الفشل حتى ولو لم يضع أبى سيفه على عاتقه ، لأن القرآن أحيط بحصانة شديدة ضد التحريف ، إذ كان معظم الصحابة يحفظونه عن ظهر قلب) ص ٧١ .

وكأنه قد غاب عن عثمان بن عفان - وهو من الحفظة - (أن الصحابة يحفظونه عن ظهر قلب) ، ومن محفوظاتهم قول الله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ، وقوله جل شأنه (إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) . . ثم إن اللجنة التي شكلت لكتابة المصحف العثماني كانت من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقد تقتصر الروايات على زيد وسعيد ، ولم يشترك أبى بن كعب إلا في اللجنة التي قامت بجمع المصحف وكتابته في عهد أبى بكر ، ولقد كان زيد ثابت عضواً في اللجنتين ، وكانت مهمة اللجنة الثانية كتابة عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبى بكر ، فمن أين جاءت

هذه الأوهام^(١) ١٩

أليست هذه (تنويعات) على دعاوى الشيعة أن عثمان حذف أكثر من ثلث القرآن في حق علي والأئمة من بعده ، دون توقر وتورع لدور هذا الصحابي الجليل في نشر الدعوة الإسلامية وهو من العشرة المبشرين بالجنة ؟

(إن وجود نص في الكتاب لتنظيم أحكام الميراث يفترض بالضرورة وجود المال الذي يورث وهذه لمن الحجج البالغة التي تؤكد ما سبق القول فيه من إلغاء تحريم الكثر وإباحة تملك المال) ص ٧١ ، بل (إن المقصود بكثر الأموال هو تجميدها ، والامتناع عن استثمارها) ، لأن (هذا التصرف يؤدي إلى حرمان المجتمع من ثروة يمكن أن تزيد في قدراته الاقتصادية) ص ٧١ ، وفي هذا يقول الزمخشري : (إن الله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده ما لا ، من حيث أذن له فيه ، ويؤدي عنه ما وجب ، ثم يعاقبه عليه) . ص ٧٤ .

إذن فالجمع بين آيات العفو والكثر والزكاة قائم على تنظيم التصرف في المال ، إيجاباً وندباً لصالح المجتمع ، وتقرباً إلى الله ، ومن ثم لا يكون تعارض ولا يكون نسخ .

والفرق الثاني يتمثل في ثورة أبي ذر على البذخ والإسراف ، بعد اتساع الفتوحات وكثرة الفئء ، وهي ثورة ارتبطت بالغيرة على المجتمع الإسلامي ، وبالخوف من غواية المال ، كما ارتبطت بطبيعة تكوين أبي ذر ، إذ كان متصعلكاً قبل الإسلام ، وكان من أوائل الذين دخلوا في الدين ليواجه السلطة القرشية المستبدة بماها ، فقد تمرد على هذه السلطة قبل الإسلام وأراد أن يتحداها بالإسلام وبمجموعة المسلمين الكادحين ، أمثال عمار بن ياسر وأبيه ، وبلال ، وصهيب ،

(١) يراجع في ذلك كتاب (تاريخ القرآن) للدكتور عبد الصبور شاهين - دار الكتاب

العربي - القاهرة - سنة ١٩٦٦ .

وعامر بن فهيرة ، وزيد بن حارثة ، وخبّاب بن الأرت ، ولهذا (رفض أن يستفيد من الفرص التي أتاحها الفتح للصحابة ، وقد واصل معيشته البسيطة ومناوأة لأشراف قریش ، دون تفريق بين من أسلم منهم ومن لم يسلم) ص ٧٧ وهذا لا يمثل التزاماً بالمبادئ الإسلامية بقدر الالتزام بموقف ذاتي لا يملك معه أن يستجيب لمقتضيات الحياة الجديدة .

ولاشك في أننا نختلف في تقدير هذا الموقف والإعجاب به ، وفي النظر إلى صاحبه نظرة عطف وإشفاق ، وبخاصة أن غيره من الفقراء تغيرت بهم الحال ، وتمتعوا بالطيبات من الرزق .

لكن (هادي العلوي) يريد أن يشكل من أبي ذر فريقاً يرأسه الإمام على في مواجهة (التيار الجديد) .

(إن تحريم الكثر - كما بينت دراستنا يبدأ من آتبي العفو والكثر ، أى في عهد محمد ، ومن هنا فالمشكلة ليست من صنع أبي ذر ، وإنما هي بالأحرى من صنع الكتلة التي ينتمى إليها أبو ذر ، ويتزعمها على بن أبي طالب) ص ٨٤ .

ويتساءل (عن السر في أن أبا ذر هو الذي تولى إثارة هذه المشكلة في عهد عثمان ، وليس على بن أبي طالب الذي كان أبو ذر يعمل تحت لوائه) .

ويجب بأن (الظروف المحيطة بعلي بن أبي طالب لم تهيب له مجابهة صريحة ضد الخليفة الثالث . . وأنه أرسل ولديه الحسن والحسين ، وأمرهما بالدفاع عن عثمان لما حُوصِر في داره ، مناورة أراد بها دفع التهمة عن نفسه ، ومن هنا كان يجب أن يتصدر المجابهة شخص آخر يمثله فيها ، ويتحمل مسئوليتها عنه) ص ٨٥ .

ونتساءل نحن : ماذا فعلت بقية (الكتلة) التي كان ينتمى إليها أبو ذر ؟ ولماذا كان على بن أبي طالب زعيم الكتلة (ماركساً لأرض زراعية ، ونقد يُعدّ

بعشرات الألوف) ؟ ص ٨٧ .

وإذا كان أبو ذر قد نشأ فقيراً ، وعاش فقيراً ، ومات فقيراً ، والتزم بنص تحريم

الكتر ، فما الحاجة إلى أن يلحق (الفقر) عن مزدك ، سواء جاء هذا القول عن الأستاذ أحمد أمين أو عن غيره ؟ .

وهل لمجرد أن يكون (سلمان) فارسياً ، وكان اسمه روزبة بن خشنودان ، أن يصبح حاملاً لجرثومة المزدكية - فلماذا إذن لم يرقم بدور أبي ذر ، أو بالوقوف إلى جانبه ؟ .

يقول هادي العلوي ، رواية عن أم المؤمنين عائشة : (كان لسلمان مجلس من رسول الله ، يتفرد به في الليل ، حتى كان يغلبنا على رسول الله) ، فإذا كانا يفعلان في هذه الجلسة الخاصة ؟

يقول : (لأبد أن يثير هذا المجلس الليلي الاعتقاد بأن محمداً كان يتلقى من روزبة أموراً خاصة تتعلق بمسيرة الدعوة على صعيد معين . . ومن المرجح أن تحريم كثر الأموال الذي كان يعنى ضربة مباشرة ونافذة ضد الأرستقراطية ، هو أحد أبرز علامات هذا التأثير) ص ٨٠/٧٩ .

يقصد أن آية الكثر إنما هي من تأثير الأفكار المزدكية التي نقلها سلمان إلى (محمد) ومن ثم فالقرآن ليس من صناعة محمد وحده ، وإنما شاركه في تأليفه غيره (! !)

وقد يرد سؤال حول آيات الزكاة والمواثيق لكن الأمر قد خرج عن دائرة السؤال والجواب !!

الفكر العربي من وجهة نظر استشراقية . .

هاملتون جب أصدر كتاباً بعنوان (المدخل في الأدب العربي) ترجمة كاظم سعد الدين ، (والكتاب مكرس للأدب العربي في أعين فروعه) ، وقد جاء في الصفحة ٦٣ :

(يعتقد المسلمون أن القرآن كلام الله الذي أوحاه إلى محمد . . غير أن الطالب

الغربي المدرك أن القرآن من عمل محمد يجد كثيراً من أهميته في الطريقة التي يكشف بها القرآن التطور التاريخي لشخصية خلافة . . الخ) ص ٩٣ .

وقد آثارت هذه العبارة هادى العلوى ، لا لأن (جب) تحدث عن الرسول محمد بغير صفة الرسالة ، ولا لأنه تناول القرآن على أنه من عمل (محمد) ومن ثم فهو يعبر عن التطور التدريجي (لشخصية) صاحبه - بل ما أثاره هو (تلك الصورة التي ترسمها لعقليتين متقابلتين : عقلية المسلمين الدينية ، وعقلية الباحث الغربي العلمانية .

إن مثل هذا التقابل ينطوى على قدر كبير من الافتعال . فكون الباحث غريباً لا يعنى بالضرورة أنه يفكر تفكيراً علمانياً .

إن هذا الباحث الذى يقول ما قال عن القرآن قد يظل عاجزاً عن إدراك أن أسطورة التكوين مثلاً من عمل موسى ، أو أن العهد الجديد من تلفيقات الرسل ، ولأمسك عنان القلم حذراً من سوء الفهم .

إن اللاهوت - عدّ عن السحر والشعوذة والكهانة - قد لقي ويلقى في الفكر الغربي القديم والمعاصر عناية ، إن لم تزد على ما لقيه عند الشرقيين فلأنها على الأقل تضاهيه ، فثلاً يحتاج الإنسان إلى العلم لكي يتقدم ، يحتاج إلى الخرافة لكي يمارس الاستغلال والنهب والسيطرة على غيره . . ولم يتوقف هذا التلازم إلا مؤخراً ، وعلى حدود المجتمعات التي أسعفها الحظ فاتخذت من الاشتراكية نظام حياتها (!!) .

فن المعلوم أن الحضارة الإسلامية لم تقتصر على النشاط الديني ، وإنما شملت تصارعات الفكر الإنساني باتساعه الذى بلغه في تلك الحقبة) ص ٩٣/٩٤ .

إذن (يحسن صوغ العبارة موضوع البحث على الشكل الآتي :

« إن المسلمين - المتمسكين بعقيدتهم الدينية - يعتقدون المسألة الفلانية ، ولكن الباحث العلمى يرى خلاف ذلك » ص ٩٥ .

وهذا لا تشمل العبارة أمثال الباحثين العلمانيين ، أمثال هادى العلوى ،
والا اضطر إلى أن يطالب برد شرفه .

أما أن يستمر (جب) فى وصف الأسلوب القرآنى - شكلا ومضمونا - بأنه
(يعبر عن آراء محمد الشرعية والفلسفية بعبارات من الحدث والوصف الرمزيين) ،
وأنه (أنجز فناً شخصياً للغاية جديداً متميزاً)^(١) فهذا لا يحتاج من الكاتب الذى
يعلن عن (شيوعته) إلى مناقشة ، أما ما يمس (شيوعته) فهذا هو العار والشنار .

من فصول المسرح الدينى فى الوطن العربى :

تحت هذا العنوان يتحدث عن مآخذ مختلفة على ألوان من النشاط الدينى ،
أكتفى بعرض أفكاره ، دون حاجة إلى تعليق . .

١ - (أقيمت مؤسسات ونفذت مشاريع تهدف إلى تدين المجتمع العربى ، على
حساب الأهداف الملحة التى تطرحها الحياة بلا توقف) ص ١١٠ .

(إن هذه الأجهزة الحيوية التى تضم الإذاعة والتلفزيون والسينما تفرض ضغطاً
دينياً متزايداً على رأى العام فى الوطن العربى ، وقد تبوأَت السينما والتلفزيون
المصريان مركزاً قيادياً فى هذه المعمعة شأنها فى معامع الغناء والرقص الشرقى
والأفلام السينمائية السيئة الصيت ، فنذ أوائل الستينات ، والجبهات المعنية فى مصر
تنتج المزيد من الأفلام والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية ذات المحتوى الدينى
إضافة إلى ما كانت تنتجه فى السابق من الأغانى الدينية والأدعية والتواشيح تغذى
بها أجهزة الإعلام ودور السينما العربية والأجنبية .

ويتندرع مهندسو هذه المشاريع بحجة إثارة الهمم ، والتذكير بالأعجاد أما فى
الواقع فلأنها موجهة للتذكير بالمضمون الدينى للأحداث ، بعيداً عن أى مغزى

(١) انظر الكتاب المذكور - طبعة بغداد * سنة ١٩٦٩ - ص ٣٧ / ٣٨ .

اجتماعى يمكن للمؤرخ أن يستخلص من بين الشعارات الدينية البالغة التطرف) ص ١١١/١١٢ .

٢ - (تتفق الأنظمة العربية على جعل الدين مادة أساسية للدراسة فى المراحل السابقة للتعليم الجامعى ، وتطغى على مناهج الدراسة الدينية فى هذه المراحل نبرة وعظمية باردة ، وفكر غيبى يتجاف بشكل مؤسف مع روح العصر) ص ١١٦ .

٣ - (إن نظرة سريعة على هذا العصر ترينا أن الدول التى حافظت على تواصلها مع الدين لا تخرج عن إحدى صفتين :

(١) دول تستخدم الدين لغايات أيديولوجية أحوج إليها الصراع ضد الطبقات المحكومة .

(ب) دول متخلفة تسمى على سبيل المثال دولاً نامية .
وقد أرجع هيجل أسس الدين إلى الشعور بالعجز عن تصور المثل الأعلى فى الوجود (١) .

وفى ضوء هذه الحقيقة فقد يغدو من السهل أن ندرك لماذا كان النشاط الدينى فى الدول العربية مثلاً أكثر ابتداءً مما هو فى دول أوروبا الرأسمالية أو فى الولايات المتحدة ، إنه يرجع فى الأرجح إلى الفارق الحضارى بيننا وبينهم .
ويجد المجتمع المتقدم عملياً وتقنياً حلولاً للكثير من المشكلات التى يقف الإنسان البدائى أمامها مبهوئاً ، فيلجأ فى تحليلها أو فى مواجهة أخطارها إلى الدين) ص ١٢٥/١٢٧ .

٤ - (السيد اليزدى هو أكبر مجتهد شيعى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وتعد كتبه مصدراً رئيسياً للدراسات الفقهية والكلامية فى الوقت الحاضر) ، ومع هذا (كان يتولى بنفسه تنشئة كوادى من كبار الموظفين أو العسكريين الإنجليز تكون مؤهلة للعمل فى العراق أو البلاد العربية والإسلامية الأخرى) ١٣٢/١٣٣ .

٥ - (آية الله الشيرازي ، وهو من علماء الدين في كربلاء ، لديه رسالة فقهية بعنوان « أحكام الإسلام » طبعت مؤخرًا وقد جاء فيها في باب أحكام الصلاة : إن الصلاة لا تصح في مكانين هما :

(١) الأراضي التي استولى عليها الإصلاح الزراعي بعد أن كانت في حوزة الإقطاعيين .

(ب) المعامل التي أمتها الحكومة) ص ١٣٤ .

٦ - يقول الغزالي : (ليس الغرض ببناء مسجد في كل سكة والفقراء محتاجون) ، ومع هذا يتبارى المسلمون في بناء المساجد .

و (اقترنت بعض المساجد بفضائح مالية ، كالمسجد الذي بنى في عهد حكومة عارف في العراق ، واستمر بناؤه أكثر من سبع سنوات ، أما مساجد الشيعة - وتسمى حسينية - فيبينها التجار الذين يهبون الناس في النهار ، ويكون على الحسين في الليل) ص ١٣٧/١٣٨ .

* * *

وبالإضافة إلى هذا هاجم الطقوس التي تجري في المناسبات الدينية المختلفة وبخاصة ما يتصل بالشيعة منها في المحرم وصفر ، كما هاجم إدارة الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية .

التوحيد في تطوره التاريخي .. التوحيد يمان

٦

احتفلت الأوساط السياسية في اليمن الجنوبية بصدور هذا الكتاب ^(١) أيما احتفال وتصدرت الكاتبة ثريا منقوش شاشة التلفزيون ومكرفون الإذاعة وقاعات المحاضرات الجامعية وتوجت ذلك كله بمنصب في إدارة جامعة عدن ، بالإضافة إلى انتدابها للتدريس بكلية التربية ..

قيل : لأنها زوجة رئيس اتحاد الكتّاب ، وقيل : لمكانتها في الاتحاد النسائي وقيل لأنها قدرت على تسجيل ولائها للفكر الماركسي ، بمناهضتها الفكر الديني ، الذي لا يزال يتحرك بقوة في خلايا المجتمع .

والكتاب لا يتجاوز ماجاء في كتاب (حول الدين) لكارل ماركس وفريدريك أنجلز ^(٢) في إطار من الأساطير التي حفلت بها كتب التاريخ العربي وكتب التفسير . وللأسف ماتتناوله هذه الكتب من أخبار الحياة الإنسانية الأولى وما صاحب هذا التاريخ من مبالغات أسطورية حول الشخصيات والأحداث الواردة في القرآن الكريم أصبح مادة سهلة التناول ، بين أيدي مدرّبة على التزييف والتشويه ، بحيث تأخذ (البريء بالسقيم ، والصالح بالطالح ، والطيب بالخبيث) .. وهذا لا يرجع إلى غفلة حملة الأقلام قديماً ، بقدر ما يرجع إلى غفلة المعاصرين الذين يفتنون برددون هذا الآفات الفكرية وكأنها مقدسات .

(١) دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٧ م .

(٢) ترجمة زهير حكيم - دار الطليعة سنة ١٩٧٤ م .

ولهذا تقول الكاتبة : (ليس لنا من هدف في هذه الدراسة سوى أن نوقظ عند القارئ عقلايته ليكون هو الحكم في قضية من أهم قضايا الفكر الديني) ص ٩٥ .

وهو هدف يردده كل كتّاب (اليسار الإلحادي) وبين أيديهم من كتابات القدامى والمحدثين ما يملأ الأبواق باللُّهاث ، لكنهم من غفلة أيضا لا يقعون في مبالغات الافتراء على الدين أو في إنكار الحقيقة الدينية فحسب ، بل يقعون في عدم التمييز بين الحقيقة والخيال وبين الواقع والوهم وهو مانكب به (دراويش الفكر الديني) .

التوحيد والموحدون الأول :

تقول : (لقد استفاد الإسلام من المعلومات التاريخية عن الحضارة اليمنية ، بعد سقوطها وخرابها الكلي ، الذي دفن معه أحقية الإنسان اليمنى في الدعوى التوحيدية كما أوردتها النقوش ، والذي تبطن من نتيجة فقدان الذاكرة عند اليمنيين في فترة انحطاط حضارتهم وتحطمها - ببطانة دينية مثالية ، أخرجت الوقائع التاريخية كما ظهرت في الكتب المقدسة وفي مقدمتها القرآن) ص ٤٣ .

فما جاء في القرآن ، ومن قبله التوراة ، إنما هو فكر إنساني ، استعان بأخبار دينية قديمة أكسبها تطاول الزمن (بطنانة دينية مثالية) وذلك لأهداف سياسية . (لاشك وأن تبني القرآن لأخبار الأنبياء وتسليط الضوء على أخبار أقوام الجزيرة - وجنوبها على وجه الخصوص - قد جاء ليضع السوط الرباني على رقاب أتباع الدعوة الجديدة حين كان يعجز عن إقناعهم بالترغيب ، وحين كان ينتصب أمام الدعوى خصوم عديدون يقارعون الحجة بالحجة مدركين الأهداف البعيدة للدعوة واستراتيجية الدعوة على المدى القريب والبعيد بحكم ممارستهم للسلطة في مجتمعهم القرشي .

واسمات الدعوى - من أجل تثبيت مبادئها وقيمها الجديدة - تطويراً لنفسية مجتمع الجزيرة العربية لتقبل السلطة القادمة من صفوف الطبقات الدنيا في المجتمع القرشي ، بعد أن بقيت لفترات متعاقبة في يد طبقة التجار والأغنياء من قريش . واستخدمت بذلك المشاعر الدينية الهلامية الملامح وتم تركيزها في الدعوى الجديدة ، بعد أن شذبت بالترغيب والترهيب (ص ٣١ .

تكررت عبارة (وضع السوط الرباني على رقاب أتباع الدعوة الجديدة) بصور مختلفة، مع أنهم وقد أصبحوا (أتباع الدعوة الجديدة) ليسوا في حاجة إلى أخبار (تفرع) وتشكل (مظهراً من مظاهر الإرهاب الروحي) ص ٣٢ . لكن الكاتبة تفكر بوجدان الحياة الحزبية الماركسية ، ولهذا تحولت الدعوة الإسلامية إلى ثورة (طبقية) داخل (المجتمع القرشي) ، وتحول الأنبياء إلى أجداد ، خلع عليهم الزمان طابع التقديس .

(يقول أنجلز : « إن الأنساب الواردة في سفر التكوين ، والتي تظهر في صورة تسلسل نوح وإبراهيم .. الخ هي تعداد صحيح تقريباً لقبائل البدو في ذلك العصر طبقاً لقرباتهم اللسانية الكبيرة والصغيرة الخ) .

(إن التعداد الوارد في سفر التكوين يؤيده - في كثير أو قليل - الجغرافيون القدماء، كما أن الرحالة المحدثين قد برهنوا أن معظم الأسماء القديمة مازالت موجودة في بعض التغيرات اللسانية) .

(وترى الماركسية أن حقيقة تلك التسميات - بنى إبراهيم ، بنى هود .. إلخ . إنما يعود إلى فترة موهلة في القدم عرفت بالعهد البطريكي ، وهو العهد الذي استحوذ فيه الرجال على أدوات الانتاج ، وأقرت سلطتهم بعد أن لحقت الهزيمة التاريخية العالمية بالجنس السائى ، وفي ذلك العهد خضعت العائلة للسلطة الأبوية ، وخضعت العشيرة بعد ذلك لرجل كبير منها ، وأصبحت الثورة المجمعة من فائض إنتاج العشيرة ملكاً له ، واكتسبت القضية الساللية صفة القدسية ،

وأصبح من الطبيعي أن يقدس الجدد الذي تنسب إليه القبيلة) .
 (واستمر التطور على هذا المنوال ، وخف التقديس للعادة القديمة ، ووصلنا
 إلى ما قبل الميلاد بمئات من السنين ، فإذا بالعبادة للجد الأكبر تصبح مجرد
 تقديس ، ويصبح معبود الأمس نبياً ، يمثل في الوقت نفسه النبوة والسلالة)
 ص ٤١ / ٤٣ .

وهذا واضح في قصة إبراهيم الذي فرض نفسه على الذاكرة التاريخية
 (فحفظت اسمه في التوراة ، كما حفظته بقية القبائل العربية في ذاكرتها ، ونسى
 هود وصالح ولقمان ، حتى جاء القرآن ليذكر) ص ٤٣ .
 فمن أين للقرآن أخبار هود وصالح ولقمان ، ولم تحفظها الذاكرة التاريخية ، ولم
 تتحدث عنها النقوش القديمة ؟

تقول : (لقد لعبت الحكاية الأسطورية في السرد القرآني دوراً كبيراً في التأثير
 على أتباع الرسالة ، ذلك أنها تشكلت إثر تغييرات وتطورات مادية ملموسة
 موضوعية حدثت في جنوب الجزيرة عقب تحول طرق التجارة وانتشار الفتن
 والقلاقل بين القبائل ، والتدخلات السياسية والعسكرية من قبل الحبشة في الشؤون
 الداخلية وغيرها من الأوضاع والظروف الموضوعية التي أعقبتها انهيارات تامة في
 اقتصاديات جنوب الجزيرة تبعها تحطم شامل لتمدنها العريق وحضارتها العظيمة آن
 ذاك) ص ٣٣ .

فكان هذه (التطورات المادية) نهبت (الذاكرة التاريخية) فاستعادت مانسبت
 لكن (الذهنية الإقطاعية الغبية) فسرت هذه الأحداث (وكأنها كوارث طبيعية
 حلت بأقوام جنوب الجزيرة ، ذلك أنها كانت صعبة التفسير والفهم على العقلية
 العربية الساذجة والبسيطة فأخرجت بقالب أسطورة) ص ٣٢ .
 وأراد الرسول (على لسان الأنبياء أن يثبت في أذهان أتباعه الولايات التي حلت
 بحضارة جنوب الجزيرة لأهداف سياسية محددة) ص ٢٦ .

وتسأل عن هذه (الأهداف) والحركة (داخلية) لاتتجاوز ثورة (البروليتاريا)
القرشبة على الرأسمالية المتسلطة .

كما تسأل عن السر في الوقوف عند (هود وصالح) اللذين قد يصح نسبتها إلى
جنوب الجزيرة ، من بين خمسة وعشرين نبياً ورسولا جاء ذكرهم في القرآن .
كما أن القرآن لم يعن بتفصيل أحداث هذين الرسولين اليمنيين كما عنى بقصة آدم
ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى .

ثم إن الأحداث اليمنية التي حركت ذاكرة التاريخ كانت في اليمن الشمالى بعد
تخريب سد مأرب .

فما الذى أصاب ذاكرة اليمن في الجنوب ؟

يجب أولاً أن نعرف أن المؤرخين اليمنيين ، قديماً وحديثاً ، حريصون على أن
ينفذوا بالتاريخ اليمنى عن طريق الهجرات ، أو عن طريق الحروب ، إلى أنحاء
مختلفة من العالم على مستوى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وعلى هذا يمكن أن يكون الدم
اليمنى قد تسلل إلى جميع هؤلاء الأنبياء .

لكن الكتابة لاتقر هذا الاتجاه الذى يرتكز في جملته على الاعتراف بما جاء في
التوراة والقرآن من أخبار الأنبياء .

الأنبياء من وجهة نظر العلم المثلث ..

(لقد بالغ « فيلى » في تقديراته بالنسبة لقدم الحضارة اليمنية ، فأوغل في
التاريخ وذهب في المدى آلاف السنين ، ليطوع الأحداث الزمنية لآرائه متجاوزاً في
ذلك - في بعض الأحيان - حدود الأعراف والتقاليد العلمية والتاريخية) .

(كما وأن هذا رأى لفيلى يعطى الحضارة اليمنية الأسبقية التاريخية والزمنية على
حضارات بابل وكنعان إلخ ، وهذه نظرية دحضت الآن ، على ضوء ما اكتشف
من نقوش تحمل التقويم الحميرى الذى يرجعها إلى عدة مئات من السنين قبل

الميلاد ، كما وأن النقوش والآثار البابلية المكتشفة تؤكد أقدمية الحضارة في بابل على كثير من حضارات الجزيرة) ص ٤٦ / ٤٧ .

وجاء الدكتور أحمد سوسة في كتابه (العرب واليهود في التاريخ) ليثبت (أصل ونسب شخصية إبراهيم الدينية ، لتصبح شخصية تاريخية حقيقية) ص ٤٨ .

(لقد قام الدكتور سوسة بعملية الربط بين الإله « سين » المكتشف فعلا في الآثار والنقوش اليمنية ، ويقع معبده في الحريضة بحضر موت ، وبين شخصية إبراهيم وفكرته التوحيدية التي ورد ذكرها أول ماورد في التوراة) ص ٤٨ .
(إن التوحيد الذي عثر عليه في النصوص والآثار التاريخية لايشير مطلقاً إلى التوحيد بالإله الديني ، والذي جاء الإيمان به في مرحلة متأخرة من الحضارة الإنسانية لاتتجاوز القرون الأولى ، قبل الميلاد مباشرة .. وماعرف من توحيد في النصوص القديمة المعثور عليها لم يكن سوى توحيد للآلهة الكثر في إله واحد ، تمثل في الشمس بالنسبة للمصريين « الفكرة الأخناتونية » ، وفي القمر بالنسبة لأقوام جنوب الجزيرة واختلف اسمه من منطقة إلى أخرى) ص ٤٩ .

(وما تجدر الإشارة إليه أن فكرة التوحيد اليمنية قد جاءت بعد فكرة التوحيد الأخناتونية ، وفق آراء العلماء المعاصرين الذين يعيدون تاريخ نشوء الحضارة اليمنية إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون من الزمن) ص ٥٠ .

(وذلك يعني أن فكرة التوحيد اليمنية المتجسدة في الإله « سين » أو « المقه » قد ظهرت في الجزيرة بعد قيام الحضارة في ربوعها ، فكيف ظهر الإله سين قبل ذلك في العراق) ص ٥٠ .

و (كيف حدث أن أصبح إبراهيم وهو ابن صانع الأصنام الفقير واحداً من الملوك الثلاثة الذين دعوا إلى التوحيد ، وسكنوا في المنطقة الجنوبية من بابل ، بناء على المعلومات التي يوردها فيلي ، في نص ورد له في كتاب « مقومات الإسلام »

والتي تنبأها الدكتور سوسة ، وأوردها كمعلومات يقينية يستدل بها على أن هجرة إبراهيم وشخصيته حقيقة واقعية) ؟ ص ٥١ .

(لقد وقع الدكتور سوسة في كثير من التضارب في المعلومات التاريخية وهو يقوم بمحاولة تثبيت شخصية إبراهيم الأسطورية ، من خلال التداخل التعسفي بين معطيات العلم الحديث والآراء الغيبية المسيطرة على فكره مسبقاً) ص ٥٢ .

* * هذا الإنكار لشخصية إبراهيم لا يتفق مع مجاء على لسان أنجلز والماركسيين من أن نوحاً وإبراهيم وغيرهما من الشخصيات الواردة في التوراة حقيقة يؤيدها (في كثير أو قليل الجغرافيون القدامى والرحالة المحدثون) ، لكن كأجداد لا كأنبياء .

ثم إن الآية الكريمة : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) (آل عمران - ٦٧) لا تعني (دحض آراء اليهود والنصارى وإرجاع نسبته إلى الجزيرة العربية) ص ٥٣ . وإنما تفيد أن مادعا إليه إبراهيم إنما هو العبادة الخالصة لله ، بعيداً مما دخل على اليهود من أن (عزيرا) ابن الله ، وما دخل على المسيحية من أن المسيح ابن الله ، فهو دين حنيف (خالص) لله ، منزّه عن الشرك ، يسلم الأمر لله ، سبحانه ، وهذا ما تؤيده الآية التالية (إن أوّلَى الناس بإبراهيم للّذين اتبعوه ، وهذا النّبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين) (آل عمران - الآية ٦٨) .. فالانتساب إلى إبراهيم يقوم على الالتزام بتعاليمه ، لا على كونه أباً أو جدّاً .

وتدعى الكاتبة أن (تلك الشخصيات الأسطورية ، كنوح وإبراهيم وسليمان وغيرهم) اتخذتهم التوراة (محور الحوادث التاريخية لأقوام الجزيرة رغبة منها في ربط جميع حوادث التاريخ بينى إسرائيل والذين يتتسبون إليهم باعتبارهم جذور الجنس البشرى في شمال الجزيرة) .

(وقد جاء تسجيل حوادث التوراة خدمة لمحاولة « قورش » التي كانت تهدف

إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين لحماية الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية من الهجمات البيزنطية من جهة الغرب) ص ٥٤ .

(وجاء المدافعون عن عروبة إبراهيم منطلقين من نفس المنطلق ، متأثرين بآراء التوراة ، مخضعين معطيات العلم ، من تنقيبات وحوادث تاريخية مسجلة ، للفكرة المقدسة التي نشؤوا وترعرعوا عليها) ص ٥٥ .

(يتحدث القاضي الشماحي - في كتابه « اليمن والإنسان والحضارة » عن قوم عادٍ الأول بأنهم كانوا على جانب مهيب من القوة العسكرية والجسمية والحضارية والاقتصادية وبأن أرضهم كانت على جانب كبير من الخصب والاعتدال ، وأن بلادهم كانت ذات جنات وأنهار ونعم وعيون وقد استخلفهم الله على ذلك بعد حوادث الطوفان « النوحية » ، وأنه أرسل لهم هوداً ، إلا أنهم أصروا على كفرهم ، وحدث ماحدث لهم ، وعلى أثره تحول هود ومن معه من الأحقاف إلى حضرموت ، ومات هناك ، وأنه قبر فيها ، وأثره اليوم القبر المعروف « بقبر النبي هود » وهو مازال مزاراً حتى يومنا هذا) ص ٥٥ / ٥٦ .

(إن تلك المعلومات التي حصل عليها الكاتب على أثر تنقيبات أركيولوجية حدثت في المنطقة ، وجاءت أخبارها لتنبئنا بالعثور على أسلحة صوانية ، وقطع متحجرة من بيض النعام ، وعلى حد معلوماته ، فإنها تعود إلى ما قبل خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، تلك المعلومات العلمية ، يحاول الكاتب إخضاعها للمعتقدات الغيبية المسبقة في ذهنه ، ليعمدها بتنقيبات العلم ، بعد عملية الخرج التعسفي بين العلم والقيم والأفكار المثالية) ص ٥٦ .

(وزيد بن عنان - في كتابه الجديد « تاريخ اليمن القديم » - قد اعتمد على معلومات أوردها كاهن كلداني ، يدعى « بروسوس » وهو كاهن عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، وتحدث عن أخبار موغلة في القدم تعود - لو أننا قننا بجمع

وطرح تلك السنين - إلى ما قبل العشرة الآلاف سنة قبل الميلاد ، قبل حياة ذاك الكاهن) .

(ويعتبر كلام الكاهن كمسلمات بديهية ، ويصبح مصدراً مهماً في تناول الأحداث التاريخية على الرغم من ضياع الكتاب ، ونقل المعلومات عن الناس بعد ثلاثة قرون من حياة ذلك الكاهن) ص ٥٩ .

.. وهذا تنكر الكاتبة صدق الأخبار الواردة في التوراة والقرآن وإن استعان المؤرخون بالنقوش والتنقيبات الأركيولوجية ، وبمعطيات العلم الحديث ، وإن رجعوا إلى مؤرخين سابقين على (الميلاد) .. أما أفكارها هي فهي مسلمات مادامت قد وردت على لسان أنجلز وماركس ومن هنا نخوهما من الاشتراكيين الماديين .

الدين في اليمن ..

ومع هذا ، فهي تعتمد في فصل كامل تحت هذا العنوان على مؤرخين إسلاميين كالمهدي صاحب (الإكليل) ، والفخر الرازي صاحب (تاريخ مدينة صنعاء) وجواد على صاحب (المفصل) .

ولم تحاول أن تسأل نفسها : لماذا تأخذ أخبار هؤلاء المؤرخين عن الدين اليمنى ، وتنكر أخبارهم عن أنبياء الله ، مع أن أخبار هؤلاء الأنبياء وردت في مصادر أكثر توثيقاً .

ثم إذا كانت تعترف بوجود إله أو آلهة ، فلم لاتصدق أن هناك رسلاً لهذا الإله أو هذه الآلهة ؟

إننا لانستطيع أن ننكر ما لا نعرف ، وإلا فهذا هو الغباء بعينه ، ولكننا نستطيع أن ننكر ماتقوم الأدلة القاطعة على عدم وجوده أو على استحالة وجوده .

إنها تعترف بعبادة الإله « ود » ، و « أيل » ، « والعزى » ، و « الزهرة » ، و « سين » ، و « المقه » ، « وشمس » ، « ويهوه » وقد وردت نصوص عن

« الرحمن » و« الرحيم » ، ووردت عبارة « هلاه » بمعنى « اللهم » ص ٧٩ / ٨٠ .

وتذكر (أن تسمية سيناء إنما هي مأخوذة من الإله اليمنى الحضرمي « سين » الذي حملته أصحابه مع غيره من الآلهة إلى شمال الجزيرة ويعتقد « فيلي » أن الإله « سين » الذي ورد اسمه في النقوش البابلية إنما هو « سين » إله قبائل حضرموت حملته الحضارمة إلى العراق في رحلاتهم التجارية وحسب ترجيحاته ، فإن فكرة التوحيد الإبراهيمية قد جاءت متأثرة به) .

وأن « ودًا » (الإله الرئيسي لثمود ، وحامي حايها انتشرت عبادته في أجزاء كثيرة داخل الجزيرة العربية ، وتعبدت له قريش والخزرج وتميم إلخ) ص ٧٩ . وأن الإله « أيل » (قد عُبد عند الثموديين ، فتسموا باسمه تيمناً) ص ٨٠ وهذا الإله إله بني إسرائيل ، وكلمة إسرائيل ذاتها تفيد معنى (نجي الله ، أو) صنى الله) . وأن « يهو » (قد عبد عند جميع الأقوام العربية الغربية ، ويرى فرويد أنه إله مدياني . حمله موسى المدياني ^(١) إلى شعبه الجديد) ص ٨١ .

وأن « سين » يعنى السماء ، كما يعنى القمر ، وقد اشترك الثموديون مع غيرهم من أقوام جنوب الجزيرة في عبادة الإله « عثرسين » أو عثر السماء مع تخوير بسيط في التسمية حيث كتبت في النصوص الثمودية « عثر سم » ص ٨٠ . والإله « المقه » (يلفت أنظار العلماء الأوربيين على الأقل ، لأنه يتمتع بمكانة عليا في عبادات الجنوب ، واحتل مكان الصدارة في عبادات شعوب المنطقة ، وأصبح الإله القومى لتلك الشعوب باختيار طوعى ، أو بإكراه حين تراجعت أمامه الآلهة وتقدم هو أمامها عقائدياً وتاريخياً) ص ٨٧ .

(١) لعله يشير إلى ما جاء في القرآن عن رحلة موسى إلى مدين ، خوفًا من فرعون ، وتلمذ على نبي الله . شعيب عشرة أعوام .

وقد (بنى البيت المقدس ، أى كعبة « مكة » على غرار كعبة « المقه » المشيده من قبل فى مناطق كثيرة من اليمن) ص ٨٦ .
 فإذا كانت هذه الشركة فى الآلهة على مستوى الجزيرة العربية وشرق أفريقيا وكان (سين) بمعنى السماء ، والمقه بمعنى اللامع أو الثاقب أو القوى ، ص ٨٨ والودّ فى الدلالة العربية العامة بمعنى الحب ، فلم لاتكون كل هذه الأسماء صفات لموجود واحد هو الإله ؟ .

تقول الكاتبة عن « المقه » (إن ورود اسمه بمعان عدة تتلاءم من غير شك ومكانته عند اليمنيين وغيرهم من الأقوام التى ارتبطت بهم ، سواء أكان فى الجزيرة أو على الساحل الآخر للبحر الأحمر ، وكنتيجة لانتشاره ، ومن وحي الواقع الطبيعى والاجتماعى ، فقد تعددت رموزه وصوره ، فمرز إليه بنسر ، ورمز إليه بصورة حية ، ورمز إليه فى اليمن برأس ثور ، وحملت لنا الآثار رءوسا كثيرة علقّت أو نُحِتّت على أبواب المنازل ، وفوق أعمدة المعابد ، ودخل بيوت العبادة وعند مدخل المدن ، بل وألبست على أعناق النساء ، والأطفال ، لعلها ترعاهم حيث كانوا وأينما ولّوا) ص ٨٨ / ٨٩ .

وعلى ضوء هذا التفسير يمكن القول إنه الإله الواحد الذى دعا إليه الرسل والأنبياء لكن الناس - على وفق ظروفهم النفسية والحياتية - رمزوا له برموز تقرّبه منهم ، أو سموه بأسماء محببة إليهم ، وبخاصة أنه كان (ثمة علاقة حميمة قد تولدت بين الملوك والآلهة حتى أصبحوا مرتبطين ارتباطاً كلياً ، فلا يقدمون على عمل إلاّ بعد أن يستشيروها ، ويقدموا لها القرابين ولا ينتزعون نصراً من خصم غنيد إلاّ وبادروا فى تقديم مايلزم تقديمه إليها) ص ٧٢ .

و(لقد انتشرت فى مدن قُتبان المعابد الضخمة التى تشهد على أن جزءاً كبيراً من إمكانيات الدولة قد حشد بصورة رئيسية لبناء تلك المعابد وتأثيثها بأثمن الأثاث

وأغلاه ، وأجمل التحف وأثمنها وفرشت أرضها بأجود أنواع المرمر ، وزينت
جدرانها بأنواع من الصدف) ص ٧٧ .
(وكان الإله « المقه » مصدر إلهام ووحى لجباية سبأ .. ولقد تمكن ملك سبأ
من انتزاع النصر العسكرى بجهود الإله « المقه » الذى حرس ووقى كل السبئيين
والقبائل المشتركة معهم) ص ٨٣

(وشهدت مأرب وشهد معها الإله « المقه » عظمة سبأ وتمدنها فارتفعت راية
السود تبشر بالاستقرار وتفرض التمدن والحضارة على الأرض اليمنية بعد أن توزعت
من مأرب فوق الأرض اليمنية حتى وادى حضرموت ، وانتشرت شبكات الرى
لتفرض وحدة الأرض اليمنية ، واستطاع بذلك أن ينتزع لقب الإله القومى ، كما
مكنه من أن يصلو ويجول فوق الجزيرة العربية إضافة إلى الحبشة فخلد اسمه فى
المدينة المقدسة مكة ، وهى أصلا وكما يبدو محوره من لفظة « مقه ») ص ٨٤/٨٥ .
(وقد استعين بالآلهة مراراً من أجل نزول الأمطار ، حين كانت المنطقة تصاب
بجفاف فتقدم الهدايا ويخرج بالأضاحى إلى العراء وتردد أدعية وأناشيد مازالت حتى
اليوم فى قرى اليمن) ص ٧٨ / ٧٩ .

.. هذه الصلة الوثيقة بين الناس والإله هل كانت تتم مباشرة أو عن طريق
وسيط ؟

لقد (حملت لنا النصوص القتبانية أسماء نساء دخلن فى سلك الكهنة ،
وقدمن أنفسهن كمندورات للمعابد) ص ٧٨ .

وهؤلاء الكهنة - من رجال ونساء - إنما يكهنون بتعاليم متوارثة ، سواء
احتفظت بأصالتها ، أو تطورت بفعل المؤثرات المختلفة لكنها تحمل دون شك دلالة
على (ظاهرة) النبوة أو الوساطة بين الخالق والمخلوق .

وفى أى صورة من الصور كان هذا الوسيط ، فإن ما جاء بالكتب المقدسة يؤكد

هذه الحقيقة ، ويزورها في أكمل كيان ، ومن ثم لم يكن داع ابتداءً إلى إنكارها والسخر ممن يتحدثون عنها .

التوحيد عند البغينين .

(أردت أن أخضع هذه القضية لنقاش فكري معتمدة على الوقائع التاريخية كما أوردتها النقوش والتنقيبات الأركيولوجية ، والتي ترى أن التوحيد الذي عرف في تلك الفترة إنما هو توحيد بإله مرئي ، تمثل بكوكب من الكواكب الثلاثة الكبيرة الشمس والقمر والزهرة ، وتجسد في صورة ثور أو وعل أو خية أو يوم .. إلخ ، ثم تحول ذلك التوحيد المرئي والذي استنبط من أجل تأدية أهداف محددة للسلطة والمجتمع إلى توحيد بالإله الغيبي بعد مرحلة حضارية في شمال الجزيرة أفل نجمها ، إثر الغزو والاحتلال الفارسي البيزنطي للمنطقة وصراعها في الشمال من الجزيرة ثم في جنوبها ، وحل الإله الغيبي محل الإله المرئي المتجسد ، واستغل التفكير الناتج عن التأثيرات الحضارية لإعادة بناء صرح حضارة قد تهدم) ص ٩٠ / ٩١ .

تريد أن تقول : إن الإله (استنبط من أجل تأدية أهداف محددة للسلطة والمجتمع) ، فلا حقيقة لوجوده وإنما اخترعه الملوك من أجل تحقيق أهداف محددة للتأثير على الجماهير في تسيير الجيوش ، ولتسخيرهم في خدمة الأرض التي هي ملك السلطة الحاكمة ولاضير أن تقام المعابد ، ويوظف الكهنة ، ويستعان بهذه الآلهة (المخترعة) على النصر وعلى إنزال المطر ، وعلى إخصاب الأرض !!

ومادامت الآلهة تابعة للسلطة فإن آلهة المهزومين تصبح تابعة لإله المنتصرين وأوينتهى دورها بسيادة إله الدولة المنتصرة ، كما انتهى دور الدول المهزومة .

(لقد ابتداءً التوحيد بإله مرئي كبير ، في فترة كانت تنجح فيها الدولة إلى التوحيد

لقبائلها وأراضيها الممزقة لتبنى فيها دولة متأسكة الأطراف موحدة الرقعة الجغرافية
الواحدة) ص ٩١:٦

لكن : كيف يتحول الإله المرئى إلى غيبى (بعد مرحلة حضارية فى شمال
الجزيرة أفل نجمها) ؟ .
أىكون (الإله الغيبى) مرحلة فكرية متخلفة ، أم أن اختفائه وراء ستار الغيب
إعلان عن الهزيمة ؟

إن التجريد فى عالم الفكر ، وفى عالم الخيال ، وفى مراحل النمو الإنسانى -
خطوة متقدمة بعد التجسيد ، فالصغار يحسدون كل المعانى المجردة فى عالم الكبار ،
فلم تختلف أمر الألوهية ، فصار التجريد مرتبطاً بالتخلف الحضارى ؟
ثم إن الحقيقة المرتبطة بنشأة موسى وعيسى ومحمد ، وهم أقرب الرسل إلى
التاريخ الموثق ، لا يمكن أن تشير - وقد دعوا منذ البداية إلى الإله الواحد المكمثل
الصفات - إلى هذه الحقيقة الإنسانية التى تدعيها الكاتبة ، ومن أخذت عنهم ،
فقد كان كل من الرسل الثلاثة محاصراً من أعدائه ، أصحاب السلطة فى المنطقة التى
نشأت دعوتهم فيها ، ولم يكونوا ممثلين بدعوتهم إلى التوحيد لإرادة السلطة
أولاد إدارة الجماهير ، وإن كانت المبادئ التى دعوا إليها لإصلاح الجماهير ولإصلاح
الحاكمين أيضاً .

ولقد كانت الدولة المصرية فى عهد موسى إمبراطورية واسعة ، امتد تاريخها
زهاء خمسة قرون (١٥٨٠ - ١٠٨٥ ق . م) ، ومن أشهر رجالها تحوتمس
الثالث ، وامنحوتب الرابع (أخناتون) ، وأحمس الأول ، ورمسيس الثانى ،
وارتبطت دعوة موسى بتخليص اليهود من قبضة فرعون .

وكانت الشام تابعة للدولة الرومانية من قبل مجيء عيسى بقرون ، بل كانت
ساحة للمد والجزر بين النفوذ الفارسى والرومانى ، وقد دالت دولة البتراء ودولة
تدمر قبل الميلاد ، كما كانت العراق واقعة تحت السلطة الفارسية .

ولم ترتبط دعوة عيسى بتحرير فلسطين من أيدي الروم ، لأنها اقتضت على المبادئ الأخلاقية العامة .

وجاء الإسلام وقد دالت دولة اليمن ، ولم يكن في قلب الجزيرة العربية دولة بالمعنى السياسى المعروف ، وكانت الحيرة تابعة لدولة الفرس ، كما كانت غسان تابعة لدولة الروم ، واليمن واقعة تحت سلطان الفرس .

ولم تكن دعوة الرسول محمد من أجل قيام دولة العرب على أنقاض دولة الفرس أو دولة الروم بل كانت دعوة أخلاقية للإنسانية كافة ، الناس سواسية ، ولافضل لعربى على عجمى ولاأبيض على أسود إلا بالتقوى .

ولو أن (الإله) حاجة اجتماعية أو سياسية لقامت دولة الفرس أو دولة الروم وكل دولة على هذا الأساس ، ولكن ازدهار الحضارات رهنا بازدهار العبادات . ثم إذا كانت الدعوة التوحيدية التى تمثلت بإله أكبر مرئى ومتجسد قد تطورت

إلى التثـل بإله غيبى فلم كم يتم هذا التطور على أرض واحدة ؟

لـم كم تم مراحل هذا التطور على أرض اليمن ، أو تكون دعوة موسى ثمرة هذا التطور على أرض مصر ، وتكون دعوة عيسى ثمرة هذا التطور على أرض فلسطين ، وتكون دعوة محمد ثمرة هذا التطور فى قلب الجزيرة .

إن التوراة تحدث عن الأنبياء السابقين الذين دعوا بدعوة موسى وكان موسى مصداقاً لما جاءوا به ، وجاء عيسى لا لينقض بل ليتمم .. وإن القرآن يحدث عن الأنبياء السابقين ، وكان محمد مصداقاً لما جاءوا به ، فكيف فات هؤلاء الرسل هذه الحقيقة التى جاءت بها السيدة ثريا منقوش ؟

تقول (إن تلك التسميات : ود ، عم ، سين ، المقه - كانت تشير إلى الإله « القمر » معبود الجزيرة العربية الرئيسى ، إلا أن تجسيدات ورموزه هى التى تباينت واختلفت من شعب إلى آخر) ص ٩٢ .

إذن ، ليست هناك كثرة ولا تعدد ، وإنما هناك (وحدانية) طال بها الزمن

فأخذت أشكالاً مختلفة في أذهان عبادها ، الذين شغلهم صراعات الحياة .
وتذكر من أسباب عبادة القمر أن الإنسان (أحس بعطفه عليه ، حين سهل له
رزقه ، فراققه في رحلاته التجارية عبر الصحراء المقفرة الموحشة ، فكان سميحه
وأنيسه في الليالي الطويلة ، وكان حليفه في مواجهة قسوة الطبيعة ، وكان لا بد من
إعادة الجميل إلى رب النعمة لإنسان الصحراء ، وقد أدرك الإنسان ذلك في فترة
أكثر تقدماً ورقياً ، فتوجه إليه بكل جوارحه يقدسه ويعبده) ص ٩٧ .
ولاشك في أن هذه الأسباب المادية للقمر لانتخص الشعب اليمنى أو شعب
الجزيرة العربية ، ومن ثم كان ينبغي أن تشترك كل الشعوب التي تتمتع بميزات القمر
هذه في عبادته ، دون حاجة إلى ربط هذه العبادة (بالتقدم والرقى) ، لأنها ميزات
مادية محسوسة ودائمة وكان يكفي أن تكون هذه العبادة دليل وفاء الشعب العربي
وعرفانه للجميل !!

وتقول : (كان لا بد من الإشراف الفعلي على التجارة المتحركة بين الممالك ،
لذا فقد تطلب هيمنة مملكة قوية ، وإشراف إله جبار مقاتل ذى جبروت مطلق ،
وكانت سبأ هي المهيأة لذلك ، فقد توفرت فيها شروط هذا الحامي) ص ٩٩ .
ولكن القمر الوديع الناعم الرقيق لا يصلح لهذه المهمة ، ولعل الشمس أحق
بالترشيح لهذا الدور ، غير أن أهل اليمن عُرِفوا بالرقّة والغزل ، فلما أحبوا القمر،
والحب سيد الموازين، لم يعدلوا بالقمر إلهاً .

وتقول : (قد احتاج تنظيم تلك الموارد الطبيعية المبعثرة بين الممالك إلى تجميع
لها ، فوضع ملوك سبأ أيديهم عليها بعد أن جهزوا الحملات العسكرية باسم الإله
الكبير « المقه » ووجدوا في طرح فكرته عاملاً مهماً لإشعال الحاس في النفوس ،
والالتفاف حول الملك ، ووجدوا تحت جناحه سترًا يخفون وراءه أطماعهم في موارد
الممالك الأخرى) ص ١٠١ / ١٠٢ .

إذن ، لقد كان (الإله الكبير المقه) موجوداً قبل أن يجهزوا الحملات

العسكرية وإن (طرح فكرته) إنما كان عامل تبشير به ودعوة إليه ومن ثم يمكن أن تكون الدولة في خدمة الإله لأن الإله في خدمة الدولة ، بدليل أن (التركيز على أسر الأطفال .. جاء ولاشك لاعتبارات عدة منها سهولة نقلهم وإذا بهم في بطن سبأ وقبائلها وإعادة تربيتهم حتى يصبحوا من جنود سبأ المقاتلين لترتفع راية الإله السبئي « المقه » وقد تم كل ذلك باسم الإله « المقه » وتحت رعايته) ص ١٠٨ .

ولقد قام ملك سبأ (كرب أيل وتر) بإعادة (القبتانيين إلى مدنهم « ثلنان ، وصنوت ، وصيدوم ، ورداع ، وميفع بنجام » ، لالشيء إلا لأنهم تحالفوا مع الإله السبئي « المقه ») ص ١٠٨ .

وقد (فرضت عليهم الضرورة الملحة في المساواة مع أفراد القبيلة المنتصرة التقرب إلى إلهها للحصول على المساواة الاجتماعية الكاملة بعد أن ضمنوا لأنفسهم المساواة القبلية) ص ١٠٩ .

بهذا يصبح تأثير الإله على الحياة تأثيراً قوياً ، يشمل السلم والحرب والزراعة والتجارة ، وبهذا يكون الدين والدولة شيئاً واحداً ، بالرغم من أن (اليمن - كدولة من دول الشرق القديم - لم يعرف الملكية الخاصة نتيجة لتنوع وطبيعة الأرض وتربتها وطبيعتها الجغرافية الصحراوية) ص ١١٠ ، وهذا ما أثار - دهشة و (تساؤلات ماركس حول كيفية وعى الشرقيين لقضية الملكية الفردية للأرض ورفضهم لشكلها الإقطاعي) ص ١١١ ، مع أن (نظام الحكم كان قائماً على السخرة ، لأن المشاريع الكبيرة كانت تستلزم من الدولة تسخير جماعات كبيرة من الفلاحين بالدرجة الأولى والقبائل المهزومة لإنجازها) ص ١١٢ .

وبهذا تضع السيدة الكاتبة - دون قصد - نقطاً على غير حروفها ، أو تصنع حروفها تحت نقط غيرها !!

علاقة اليهود باليمن ..

ومن حيرتها بين الحروف والنقط أن فرقت بين (العبيرو) و (بنى إسرائيل) ،
و (الموسويين) و (اليهود) .

وذكرت (أن التوحيد الأخناتوني قد جاء كنتيجة للتطور الذى لحق بالفكر
الإنسانى الدينى ، وهو ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أرقى) ص ١٢٢ ، وأن (موسى
كان قائداً عسكرياً اعتنق الفكرة الأخناتونية التوحيدية . . وحرص - على حد رأى
فرويد - على تعلم أتباعه أسس التوحيد الأخناتوني ، وجاء لهم ببعض الشرائع
المستمدة أصولها من التشريع الفرعونى ، وقد ارتد قومه عن إيمانهم برب أخناتون ،
كما حصل لأقوام الإمبراطورية المصرية ، وعادوا يعبدون العجل وهو ما زال على
قيد الحياة ، فتألم لذلك كثيراً . . وقيل إن لموسى شرائع ووصايا إلى أتباعه ، إلا أن
المؤرخين لم يعثروا على مثل تلك الشرائع ، وبذلك انتهت الفكرة الموسوية وانتهى
معها أتباعها ، على الرغم من المحاولات لإطالة عمر جماعة هى أصلاً بلا وجود ،
وما دمنا لم نعثر على براهين علمية حقيقية لذلك فإن كل ما قيل يبقى بالنسبة إلينا
حكايات نسجها الخيال الدينى لأهداف سياسية واقتصادية بعيدة
المرام) ص ١٢٦ .

وما دامت هذه (الأهداف سياسية واقتصادية بعيدة المرام) واليهودهم فى
الدرجة الأولى أصحاب هذه الأهداف ، إذن ، فكيف (لم يكن أمام اليهود من
نموذج يمكن الاحتذاء به غير سبأ والحضارة اليمنية التى كانت مزدهرة
حينها) ص ١٣٤ ، وكان (حلم اليهود ، بدولة على نفس النسق فى شمال الجزيرة ،
خاصة بعد أن أحسوا بسيطرتهم الفعلية على تجارة مدن الهلال الخصيب : سوريا ،
فلسطين ، مصر ، وبلاد الرافدين) ؟ ص ١٣٥ .

إنه لم يكن من مبرر لنش هذا الماضى اليهودى ، بحثاً عن موسى وجاعته وعن

تشريعاته ووصاياه ، إلا لأنهم وجدوا في هذا الماضي القوة التي يركزون عليها في بناء الدولة الحديثة على شاكلة دولة اليمن .

وإذا كان في التراث اليهودي ما يساعد على تجميع (الشتات) وحفز الهمم فلا حاجة إلى الارتكاز على (إله) يميني !!

لقد روت لنا (القصص والحكايات) عن علاقة بلقيس ملكة سبأ بسليمان ، وتحدثت التوراة عن هداياه التي (سلبت لبَّ سليمان وسحرته) .

(وبصرف النظر في التخرجات الدينية والأبعاد السياسية للخلط الزمني في سرد الأحداث فإن ذلك يعنى رغبة اليهود بتفكيرهم التجارى في إيجاد علاقة ودية مع أصحاب تلك الخبرات ، إن لم يكن من الممكن الاستحواذ عليها) ص ١٣٧ .
(وكانت طموحات اليهود تتمركز في محاولاتهم الكثيرة - لا نتزع مكانة سبأ كوسيط تجارى بين الشرق والغرب أوحى منافسة تجارها في تجارتهم وتصوروا أن ذلك لن يتأتى لهم إلا بعد التماسك بين فئاتهم المشتتة في العالم ، وإخضاع تلك الفئات لفكرة دينية واحدة تمثلت في التوحيد بالإله « يهوه » على غرار التوحيد بالإله « المقه » القوى المتجبر يجبروت سبأ وعظمتها) ص ١٣٨ .

ولو أن الأمر اقتصر على هذه المكاسب المادية ، فلم تكن ثمة حاجة إلى موسى المصرى وأخناتون ، ولا إلى موسى المديانى وشعيب ، ولم تكن حاجة إلى (أتون) أو (يهوه) ، ولا إلى تشريعات فرعون ووصايا شعيب . .

ومع هذا فالتوراة قائمة على أنها تشريعات موسى ، والملوك اليهود هم أبناء هرون أخى موسى ، والكنهه اليهود هم أبناء (لاوى) أحد الأسباط الذى من نسله موسى ، وقصة الخليفة منذ آدم إلى موسى تقوم على سلسلة من الرجال اتصل نسبهم .

لكن الكاتبة الباحثة عن الخطأ تصر على أن اليهود (قد حاولوا في القرن الرابع بعد الميلاد النفاذ إلى اليمن ، وتم بالفعل التقارب بينهم وبين الحميريين إثر لقاء ملك

حمير « تبع أسعد كرب » بحبرين من أحبار يثرب ، دخلا إليه - كما تذكر كتب التاريخ - عن طريق الدين ، وتمكنا من إقناعه فافتنع ودخلت اليهودية في القرن الرابع الميلادي إلى اليمن عن طريق السلطة في اليمن ، وقد أخذ الملك « تبع أسعد كرب » الحبرين معه إلى اليمن ، وهناك قام بفرض الدين اليهودي الجديد ذي الأصول اليمنية بقسوة وعنف ، إلى الحد الذي أحرق وأباد معارضيه (ص ١٣٩/١٤٠ .

(واعتقد اليهود أن حكمهم قد تحقق في تأسيس دولة موالية لهم ، لمت شعهم في أعقاب حملة الرومان على يهود فلسطين وتدمير هيكلهم . . لكن الروم ظلوا يلاحقونهم حتى اليمن فحركوا أتباعهم في الحبشة واندفع الفرس يدعمون الاتجاه الوطني في جنوب الجزيرة محاولين جنى ثمار النعمة اليمنية) ص ١٤٠/١٤١ .

(ومن هنا ، فلم تكن فكرة التوحيد اليهودي المتجسد في الإله « يهوه » ، أوحى الوحداية التجريدية متأثرة بالتوحيد الأخناتوني ، كما يعتقد البعض ، على الرغم من وجود تشابه كبير بين نشيد أخناتون في الإله « أتون » إله الشمس وبين الزامور رقم ١٠٤ التوراتي ، ذلك أن التوحيد الأخناتوني هو أول توحيد كوني قائم على المحبة والإخاء والسلام) ص ١٤١ . أتلك المقدمة تؤدي إلى هذه النتيجة ؟

أمن المعقول أن اليهودية التي غزت اليمن بعد أن اكتمل وجودها على أرض فلسطين وبابل ، لبأن الأسر ، وصار لها أعداء يطاردونها حتى جنوب اليمن تستوحى الوحداية من أرض اليمن ، مع أن التوحيد اليهودي ارتقى إلى مرحلة التجريد ، وظل التوحيد اليمنى في مرحلة التجسيد وهي مرحلة متخلفة ، على حين لا تستفيد اليهودية من الدين المصري ، وهي التي نشأت على أرض مصر ، وهاجرت إلى أرض واقعة تحت نفوذ مصر ، وكان زعيم هذه الديانة اليهودية من أتباع الديانة المصرية ، كما يقول فرويد ؟

وإذا كان المنجز يتحدث عن (الكتاب اليهودي المسمى « بالكتاب المقدس »

فيرى أنه ليس سوى ذكرى تقليد عرني قديم) ص ١٤٤ . فأين هذا الكتاب اليمنى الذى أخذت عنه التوراة ؟

ثم إن الدين اليمنى - (المستنبط) لأهداف سياسية واقتصادية - ارتبط بالحضارة اليمنية وهى (حضارة دنيوية عملية ، اهتمت بالطبيعة والإنسان ، وأولت هذين القطبين فيها جل طاقاتها وقدراتها) ص ١٠١ ، عن طريق بناء السدود وإقامة المشروعات الزراعية والتجارية والعسكرية على حين تتحدث التوراة عن حركة الإنسان بحركة الإله الذى يتابع شعبه المختار بتعاليمه ومحايته أيها سار . . أليس حديث (التوراة) عن إبراهيم وموسى يوجب القول بأن (التقليد العرني القديم) إنما هو ما تمثل فى صحف إبراهيم الذى كانت رسالته بين مصر والحجاز وفلسطين ، وفى صحف موسى التى صار الشعب اليهودى يحملها فى (التابوت) أيها سار ؟

وإذا كان (اليهود ، عبر تاريخهم قد شكلوا - كما يرى ماركس - مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادى محدد بعيد عن الثقافة الرومانتيكية التى تمثلت بالفكرة الأخناتونية فى التوحيد ، ولقد جاء توحيدهم متأثراً بالتوحيد اليمنى المتشكل عبر ظروفه المادية المحددة) ص ١٤٦ . فمن أين جاء التشابه بين مزامير داود وأناشيد أخناتون ؟ ص ١٤١/١٤٢ وهل كان كل ما جاء فى التوراة والتلمود مطبوعاً بالطابع المادى ؟

يبدو أن ماركس اليهودى - فى سبيل الانتصار لماديته - أخذته الغفلة أو تغافل عن أسفار راعوث وأيوب والجامعة والأمثال والمزامير ونشيد الأنشاد ، وأرمياء ، ومراثى أرمياء وحزقيال ، وزكريا ، من صفحات أدبية راقية فضلاً عن التشريع المتمثل فى سفرى اللاويين والعدد .

ولقد نسيت الكاتبة أن اليهود غزوا بدينهم اليمنى ، فى عهد (تبع سعد كرب) وكان التوحيد بالإله « يهوه » فى عهد الامبراطورية الفارسية حين تمكن اليهود من أن

يقوموا بدور تجارى أساسى بين مصر وبابل) ص ١٤٧ ، وبهذا تكون اليهودية قد غزت فارس قبل أن تغزو اليمن مع أن فارس كانت تدين بدين له طقوسه وتشريعاته التى ترقى على ماكان باليمن ١١

الوحدانية التجريدية عند اليهود والمجنيين . .

ثم إن الكاتبة ضربت صفحاً عن هذا كله وعرضت القضية من زاوية أخرى ، فذكرت (أن الفكر الإنسانى ليس سوى بُنى أقيم أساسها وهيكلها العام من مجموعة الثقافات الوطنية والقومية ولشعوب وأمم الأرض ، خاصة تلك التى عاشت فترات حضارة وتمدن ، ومن هنا فقد أضاف كل شعب ، بما يملك من عبقرية فكرية ، إلى مجموع معطيات الإنسانية آراء فكرية عقائدية وفلسفية وثقافية وقيماً حضارية تداولتها البشرية فيما بينها) ص ١٥٠/١٥١ .

(واستطاعت الذهنية الشرقية متجسدة فى الذهن اليهودى ، أن تخوض فى عملية التجريد فى الإيمان بلله متوحد فى ذاته . . وكان اليهود أكثر الناس قدرة على استيعاب نتائج التداخل بين الحضارات بحكم ظروف الشتات التى عاشوا فيها) . (وتمكن اليهود من انتزاع شرف السبق التاريخى لذلك الحدث الذهنى الذى شكل مرحلة انعطاف حضارى بالنسبة للإنسان) ص ١٥٠ .

فقد (تلقف اليهود الفلسفة الاغريقية والهيلينية على وجه التحديد ، وهم فى الشتات بشغف عظيم ، حين كانوا يبحثون لهم عن حل لفاجعتهم التى حلت بهم بعد السعى البابلى ، فسعوا جادين لايحاد كيان قومى لهم يجتمع فيه شتاتهم ، وكان لابد من فلسفة وقيم معينة تدفعهم أولاً وقبل كل شىء للتماسك خوفاً من الدويان فى أطم وشعوب الأرض التى وصلوا إليها فى شتاتهم ذلك . . ولم يكن هناك من سلاح غير الدين لإثبات الذات ، وهو وسيلة العصر المعروفة حينها) ص ١٥١ .

. . فإذا عرفنا أن الأسر البابلى تم بعد عهد سليمان ، الذى بلغت الدولة اليهودية

في عهده أقصى ما كانت تحلم به ، فانقسمت الدولة ، بين رجعام ويربعام ، إلى يهوذا ، وإسرائيل (٩٢٢ ق.م تقريباً) فلما قويت دولة الآشوريين ، توجه سرجون (٧٢٢ ق.م) إلى الشام واستولى على السامرة عاصمة إسرائيل ، ونقل كثيراً من سكانها أسرى، ثم قضى على دولة يهوذا واستولى على القدس .

وحين سقطت القدس في يد نبوخذ نصر (٥٩٨ ق.م) ساق أمامه الملك يهوياكين والنبي حزقيال ، ومعها سبعة آلاف رجل مسلح وألف عامل مكبلين بالحديد فكان هذا الأسر البابلي الأول^(١) .

وكل هذا تم بعد تاريخ حافل للشعب اليهودي ، منذ خروج موسى به من مصر (١٢١٣ ق.م) إلى أن تولى سليمان ، عهد الاستقرار والازدهار (٩٦٠ - ٩٢٥ ق.م) أى بعد ثلاثة قرون تقريباً .

فهل نسى اليهود هذا التاريخ تحت أثر النكبات التي لحقت بهم في زمن الآشوريين والبابليين أم زادتهم تمسكاً به ، حتى أكب الحاخامات على هذا التاريخ يدونونه ويضيفون إليه حتى كانت التوراة التي تحتوى على تاريخ إسرائيل إلى سنة ٢٤٠ ق.م أما عن التلمود فلم يبدأ تدوينه إلا في وقت متأخر يكاد يصل إلى عهد يهوذا هاناسى أحد حاخاماتهم فيما بين ١٩٠ ، ٢٠٠ للميلاد .

إذن فقد كان لليهود دور عقائدى شفهي ومدون قبل أن يصلوا إلى أرض اليمن . فإذا كان سقراط ، أستاذ أفلاطون قد ولد سنة ٤٦٩ ق.م^(٢) أى بعد الأسر البابلي بأكثر من قرن من الزمان ، وإذا كان الإسكندر الذي انتشرت الثقافة اليونانية على يديه قد غزا فلسطين سنة ٣٣٢ ق.م فكيف أخذ اليهود عن الفلسفة اليونانية فكرة التجريد؟

(١) انظر للمؤلف : اليهود تاريخاً وعقيدة - كتاب الهلال سنة ١٩٨١ ص ٢١ وما بعدها .

(٢) يذكر أن حياة سقراط كانت بين (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) وأفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧ ق.م) .

وأرسطو ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) .

وإذا كانت (فكرة التوحيد الموسوية قد بقيت كأثر غامض ومبهم إلا أنه موروث ومستمر يفعل فعله في الخفاء ، وتوطدت رويداً رويداً سطوته على النفوس إلى أن قدر له في خاتمة المطاف - أن يحول الإله يهوه إلى إله موسى ، وأن ينفخ في الحياة من جديد ديانة كان موسى قد أقامها قبل قرون طوال ثم كان مآلها الهجر) - كما يقول فرويد ص ١٥٢/١٥١ فما الهدف من قولها : (إن ذلك التوحيد الموسوى ليس سوى الوجدانية التجريدية والتي جاءت عبر تلك المصالحة بين القيم الدينية الشرقية التي كانت سائدة آن ذاك وبين الفلسفة الغربية الإغريقية بعد أن تغلغلت في الأرض العربية ، خاصة المَعْلَم اليوناني منها ، ولقد تلففها الشرق بإيمان عظيم حين رأى فيها المنقذ له من ضياعه بعد أن انهارت حضارته ومدنه العريقة الواحدة بعد الأخرى فقاد ذلك إلى ظهور الفكرة الواحدة كمثال الخير عند أفلاطون ، واللوغوس أو الكلمة عند الرواقيين ، ولقد حمل الفلاسفة اليهود تأثيراتهم تلك إلى الديانة اليهودية ، فإذا الإيمان اليهودى بالإله يهوه يمتزج مع تلك الفلسفة التجريدية ليكونا معاً « وحدانية تجريدية » يظهر فيها الله بمظهر جديد ، ليس له رمز ، ولا صورة ، ولا تمثال ، بل هو مفهوم مجرد جاء على لسان موسى) ص ١٥٢ . وإذا كان ما وصل إليه المزج بين الفكر الشرقى والفكر الغربى هو (مفهوم مجرد

جاء على لسان موسى) ففيم كانت هذه الرحلة الشاقة ؟

إن أثر الفكر الهيلينى تجلّى عند (فيلون) من أبناء مدرسة الإسكندرية (الأفلاطونية الحديثة) ولكن فيلون (تخطى أفلاطون بعد أن تم له عملية استيعاب فكرة أفلاطون في مثال الخير ، فصار هذا المثال إلى ما فوق الواحد ، ليصبح الله أفضل من الفضيلة وأفضل من العلم) ص ١٥٣ ، فهو الذى (يحتوى العناصر ويهيمن عليها ولا يتخويه شيء ، وهو فوق الزمان والمكان لأنه في كل مكان) ص ١٥٣/١٥٤ .

لكن هذه المعالم جميعاً وصل إليها (الفكر الموسوى) وكل ما زاد على يد فيلون

المتأثر بالمذهب الخلقى الصوفى الرواقى هو أن (كل شىء مفعم بالإله) ص ١٥٤ وهو بهذا أيضاً يبعد عن الجذور الموسوية ، لكنها شروح تزداد عمقاً وسعة . فإذا كان الإنسان قد انتقل إلى (المفهوم المجرد) وتوصل إلى (القناعة بالتوحيد أو الوجدانية المطلقة) ، وكان (من جملة تلك المجتمعات المجتمع اليمنى) فإن دور الفكر اليهودى أسبق على الفكر اليونانى الرواقى .

(لقد بدأ ذكر « ذى سموى » فى نص مع الإله الهمدانى « تاب ريام » ثم بدأ فى الابتعاد عن مرافقة آلهة أخرى فى نصوص متأخرة ، يرجع البعض منها إلى ما قبل الميلاد بنصف قرن وقد وصلت تلك العقيدة إلى الكمال اللاهوتى بعد أن صار إله السماء والأرض) .

(كما ظهرت عبادة « الرحمن » فى نفس الفترة التى ظهرت بها عبادة رب السماء ، كما وردت لفظة « الرحيم » فى نصوص صفوية وأخرى سبئية) ص ١٥٦ فهل يعد هذا دليلاً على الوجدانية وتعدد الصفات ، لاعلى كثرة الآلهة ، كما يعد دليلاً على أثر اليهودية التى دخلت مع (تبع سعد كرب) أو يكون دخول فكرة التوحيد مع حجاج بيت الله الحرام الذى أذن لإبراهيم الخليل بالحج إليه من قبل دعوة موسى عليها السلام بخمسة قرون أو تزيد . ؟

(يذكر الإخباريون وتحفظ لنا الكتب ذكر جماعة عُرِفَتْ « بالأحناف » كانت تدعو إلى عبادة الرحمن سكنت اليمن ورفعت صوتها بالتوحيد ، وقد وردت لفظة « حنف » فى النصوص العربية الجنوبية وهى بمعنى « صبأ » أى مال وتأثر بشىء ما) .

(ومازال تاريخ نشوء الحنفية فى اليمن غامضاً ، ومن المحتمل أن تكون امتداداً لديانة « ذى سموى » التى يعتقد أنها كانت ضمن العبادات السائدة فى القرن الأول قبل الميلاد فى اليمن) .

(وقد كان لعقيدتهم أربعة أركان - كما يذكر الفخر الرازى - هـ : حج

البيت واتباع الحق ، واتباع ملة إبراهيم والإخلاص لله وحده) .

(ولقد استمر ذلك المذهب ينتشر ويتوسع ولم يعد مقصوراً على جماعة من الناس ، وإنما أصبح يمثل تياراً قوياً خاصة قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة ، على رأس ذلك التيار أسماء كبيرة ، كأمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة الإيادي ، وأسعد أبوكرب الحميري ، وعلاف بن شهاب التيمي ، وخالد بن سنان العبسي ، وغيرهم وكلهم من بيوتات يمنية وقرشية معروفة . ويبدو أنها كانت بدعوته تلك تبحث عن مخرج لأزمة الحضارة المنهارة في جنوب الجزيرة ، ولم تتمكن من العثور على حل لذلك الاختناق الحضارى إلا في الدعوة التي خرجت من قلب الجزيرة العربية رافعاً رايها الرسول العربي محمد بن عبد الله ، عاثراً على الحل والدواء ، بعد أن عرف المرض العضال الذي أصاب الجزيرة العربية بجنوحها وشمالها .

(واستطاع القائد العبقري أن يصوغ الروح العربية من جديد ويخلق منها أمة نطقت بلغة واحدة ، وآمنت بفكرة واحدة ، كمقدمات تاريخية لخلق الكيان الواحد لها بأسسه المادية والحضارية ، وليبنى الدولة العربية المركزية الواحدة مستوعباً الفكر الإنساني والحضارى بعامة) ص ١٦٠/١٥٨ .

* * *

هذا . . وما أظن هذه الدهاليز الفكرية المتداخلة التي تاهت فيها الكاتبة أكثر من مائة وستين صفحة ، لتصل إلى هذه النتيجة ، في حاجة إلى تعليق .

التراث والثورة . . .

٧

من الطرائف العراقية أن بعضهم كان يعرف نفسه قائلا : ثلاثة شين ، يقصد أنه شروق^(١) شيوعي شيوعي . .

ومعظم شيوعي العراق من الشيعة ، اتخذوا اللون الأحمر تعبيراً عن السخط وإرادة الانتقام من الحاكمين (السُّنَّين) ، كما أن اللون الأحمر يكسبهم تأييد المعسكر الاشتراكي مادياً وسياسياً .

ومن المعروف أن (الحسينيات)^(٢) في العراق تؤدي دور دولة داخل الدولة ، من الإشراف على التعليم والتوعية والرعاية الاجتماعية ، ومهام أخرى .

وقد تصطبغ دور العبارة في بلاد أخرى بهذه الصبغة ، لكن الذي يلفت النظر أن كثيراً من حملة الأقلام صاروا يروجون للشيوعية ، تحت شعار السخط الثوري ، والمنهجية العلمية الاشتراكية ، ليس عن إيمان بحق الكادحين من العمال والفلاحين ، وليس عن رغبة في تحرير البلاد من المظالم والآفات الاجتماعية والسياسية ، وليس عن اقتناع بأن إنجيل ماركس هو خير المذاهب والتشريعات التي ظفر بها الجنس البشري ، سبيلاً إلى الانعتاق من الغيبات والأساطير المقدسة التي تغل الفكر والإرادة ، وتزيف الطموحات الإنسانية الممثلة في الحق والخير والجمال والحرية والمساواة . . ليس من أجل أن يصنع الإنسان قدره دون تسلط وهمي ،

(١) الشروقيون هم سكان جنوب شرق العراق في العمارة والناصرية وكربلاء والبصرة .

(٢) الحسينية بمثابة المسجد عند السنين ، لكنه مسجد يؤدي وظائف اجتماعية وسياسية .

وأن تتحرر إرادته في تقرير مصيره ، بل لأن هذا الطريق هو (موضة) العصر الذي يكسب الشهرة ، ويعجل بالانتشار .

إن حملة الأقلام الذين يروجون للشيوعية في العالم يسهل عليهم الوصول إلى مساقط الضوء ، لأن التنظيم الحزبي في أى من بلاد العالم يسعى جاهداً من أجل السيطرة على وسائل الإعلام وتدور النشر ، تماماً كما يفعل التنظيم الصهيوني ، وإن كان هذا التنظيم الأخير أكثر حرصاً على أجهزة المال والاقتصاد والسياسة .

وهذا يفسر الإلحاح المستمر على أقلام بعينها ، والإهمال المتعمد ، وإرادة قتل المواهب الأخرى التي ترفض هذا الاتجاه ، أو لم تعرف الطريق إليه .

ولعل تعبير (السلبية) في بلادنا يحمل في طياته بعض هذه الملامح ، تأسيساً بهذا الاتجاه الذي عشن وأفرخ أجيالاً في مواطن مختلفة ، أو انعكاساً لما يدور في الساحة ، حتى لا يفقد (الآخرون) مواطني أقدامهم .

* * *

لعل هذه المقدمة تمهد لعرض كتاب (التراث والثورة)^(١) لغالى شكرى ، وإن كانت هذه السطور القليلة لا تملك إلا الإشارة الموجزة ، لكنها تعرف باتجاه يتحرك بيننا ، ويجد طريقه على رؤوس الأشهاد .

والأستاذ غالى شكرى من الدارسين المؤهلين - في إخلاص شديد - لحمل الأمانة التي حملها شبلى شميل ، وفرح أنطون ، وسلامه موسى ، ولويس عوض ، وهى أمانة التنوير والتطوير ، وخلع أكفان التراث عن هذا الشعب العربي العريق . وعراقه هذا الشعب العربي تمتد إلى ما وراء (الحركة) الإسلامية ، عبر آلاف السنين، حيث الحضارة الفرعونية والفينيقية والسومرية والبابلية .

(١) دار الطليعة - بيروت - سنة ١٩٧٣

(إن تراثنا أغنى من أن يحُدَ بمرحلة حضارية واحدة ، فمن بابل وآشور ، ومن الفراعنة والبابليين والفينيقيين وغيرهم من بُناة الحضارة القديمة ، ومن اليهودية والمسيحية والإسلام ، وغير هذه الديانات من الرسائل الروحية والاجتماعية والفكرية الكبرى . ينحدر إلينا تراث ضخم ، لم يلقِ للأسف ما هو جدير به) ص ١٩ .

ولاشك في أن سعة دائرة التراث تزيد في ثراء الأمة العربية ، لأنها تعدد الروافد وتنوعها ، وتوسع النبايع وتعمقها .

والانفتاح على العالم الأكبر - وبخاصة في المجال الأدبي - يححر الفكر العربي من قيود كثيرة ، فلا يربطه بدين ، ولا لغة ولا وطن ، لأن الإنسانية تراثه ، والعالمية مجاله ، والثورة مرامه .

وفي سبيل (تأسيس منهج يصل بين التراث والثورة) ينبغي أن نعلم :
أولاً : (أنه) لا سبيل لثورة ثقافية دون أن تشمل قضية « التراث » ، بإعادة نظر جذرية تتناول كافة « المحرمات » التي عانى الفكر العربي من تجاهلها أمداً طويلاً . ص ١٣ .

ثانياً : (أن الأصالة هي الواقع ، بكل ما يشتمل عليه من عناصر ، ومن بينها « التراث » ، والمعاصرة هي استخدام المنهج العلمي في التفكير) .
(فلو اعتبرنا الأصالة هي الواقع بكل شموله وعناصره لرفضنا من التراث الشيء الكثير مما يعوق حركة الواقع وتقدمه ، وتصبح أصالتنا هي ذلك الرفض الواعي للوجه السلبي في التراث) . ص ١٤/١٥ .

ثالثاً : (أن العودة إلى التراث كالانتماء الحضارى للغرب ، كانا مجرد رد فعل مدعور أمام الرياح القادمة من وراء البحار) . ص ١٦ .

ولهذا كان ضعف قدرة دعاة العودة إلى التراث ، ودعاة الانتماء الحضارى للغرب ، على تبيين مواقفهم ، واستبصار أهدافهم .

(إن المصريين الذين كانوا يحملون مثلاً بمصر « فرعونية » ، والسوريين واللبنانيين الذين كانوا يحملون بالحضارة « الفينيقية » ، والعراقيين الذين كانوا يحملون ببابل الجديدة - لم تكن لديهم جميعاً إجابة واضحة عن هذا السؤال : ما هى الملامح « الواقعية » لمصر الفرعونية ، أوفينيقيا ، أوسومر التى تريدون بعثها ؟) .

(أما دعاة الفكرة الإسلامية المتطرفة فهم وحدهم الذين امتلكوا وتصوروا واضح المعالم لدولة الإسلام التى يريدونها ، لأن القرآن فى ذاته « تشريع » متكامل السمات للوجود الاجتماعى والسياسى ، وأصحاب هذه الدولة ، الآن ، هم الكتيبة المتقدمة للرجعية العربية. ، على جبهة التراث) . ص ١٠ .

رابعاً : (كانت دائرة الفكر والأدب المشغولة بالتراث دائرة ضيقة من خاصة المثقفين ، أما الآن ، فبرامج التعليم من الطفولة حتى الجامعة ، وبرامج الإذاعة والتلفزيون التى تخاطب ملايين الأميين ، والصحافة ودور النشر التى يسيل لعبها أمام الربح السريع ، وتشريعات المجالس النيابية - هذه كلها تنقل القضية من الدائرة الضيقة إلى أوسع الدوائر إطلاقاً ، دائرة الشعب بمختلف طبقاته وطوائفه ومذاهبه واتجاهاته السياسية والاجتماعية والدينية ، وهو الشعب الذى يجد نفسه الآن مطوقاً بقواعد وقيم منحدره منذ آلاف السنين ، من ناحية ، ومحددات الحياة فى الثلث الأخير من القرن العشرين ، من ناحية أخرى ، ولقد كان شعبنا يعانى مشقة هذا التناقض معاناة حرة ، إن جاز هذا التعبير ، ولكنه الآن - وهو يرى القيم القديمة تأخذ طريقها إلى الدساتير والقوانين - فإن التناقض سيكون حقاً ، لا مجازاً ، بين الحياة والموت ، لا بين القديم والجديد) . ص ٩/٨ .

هكذا يعرض الكاتب قضية التراث ، من خلال خوفه على المجتمع العربى ، أن

يؤدي إلى موته نشر (القيم القديمة) ، التي هي التشريع الإسلامي ، الذي يطالب بالأخذ به نواب الشعب ، باعتبار أن الدولة دينها الإسلام ، لأن الغالبية العظمى من الشعب مسلمون ، ولأن الدور التاريخي لهذه الدولة ، طوال أكثر من ألف عام ، كان تحت راية الإسلام .

وجرائم (القيم القديمة) التي تعمل على نشرها أجهزة الإعلام والنشر والتعليم والمجالس النيابية - تتجلى خطورتها في أن (القرآن في ذاته تشريع متكامل السمات للوجود الاجتماعي والسياسي) ، ولهذا وجب الحذر في مواجهة هذه الجرائم القاتلة ، فنعمل على عزلها ، قبل أن نستخدم المصلل الواقى .
ولهذا ينبغي إدراك أن (العودة إلى الإسلام ، وليس الإسلام نفسه ، هو « وجهة النظر » الجديرة بالمواجهة ، في معركة التراث ، بين الثورة والثورة المضادة) . ص ١٠ .

وحق لاثير العواصف ، من حيث ندرى ولا ندرى ، ينبغي أن نتبين :
١ - أن (الخطأ الفادح الذي تورط فيه الفكر العربى هو أنه نظر إلى تراثنا نظرة جزئية ، لأنها حددت « مولد » تراثنا بالفتوحات العربية ، وأصبح « الإسلام » وحده هو كل تراثنا) . ص ١٨ .

٢ - أن (الحضارة في جوهرها « إنسانية » ، لها دورات جدلية ، تعتمد الأخذ والعطاء ، ونحن حين نأخذ من الحضارة الحديثة « لاستوردها » ولا نطلب من الغرب أن يسدّد ديناً ، لأن الحضارة حضارتنا كما هي حضارتهم ، بلا زيادة أو نقصان ، والامتناع عن « الأخذ » هو تنكر لتراثنا ، الذي يشكل عنصراً تاريخياً من عناصر تكوين هذه الحضارة ، وهو أيضاً تنكر لقيمة « العطاء » الذي يرفع جباه أجدادنا عالياً) ص ٢٠ .

(لقد تأثر تراثنا وأثر ، وأخذ وأعطي ، والضرورة العلمية تقتضى رصد هذه

المجموعة من المؤثرات والتأثيرات المتبادلة ، حتى نحدد البعد الإنساني العام لتراثنا (ص ٢١ .

٣ - (الفرق بين الذين « يتكلمون » عن إحياء التراث وبين الذين يحيونه بالفعل ، الأولون يقتلون أعظم ما فيه ، بتكفينه في كهنوت التفسير والورق المصقول ، والآخرون يهون أروع ما فيه شرارة الحياة الجديدة المعاصرة ، الأولون في واقع الأمر يشكلون جبهة الثورة المضادة للتراث ، والآخرون يشكلون طليعة الثورة داخل التراث) ص ٣٣ .

٤ - (إن أقصى ما نستطيعه في هذا الصدد هو الاستنارة بأدوات البحث العلمي الحديثة في رؤية التراث رؤية جديدة ، وهو ما ندعوه بإعادة التقييم ، أما فرض المصطلح الجديد على التراث القديم ، بهدف سياسي نبيل ، هو إقناع الآخرين بأن الاشتراكية مثلا ليست غريبة على تراثنا - فهو يحمل من المحافة لروح العلم ما يبتعد بالمحاولة في المدى الطويل عن الهدف النبيل ، بل قد يحىء برد فعل عكسي ، نتيجة ما نتوهم أنه « أرض مشتركة » فوق هذه الأرض يكسب الرجعيون بغير شك ، لأنها في الأصل أرضهم ، وليست أرضنا) ص ٣٤ .

* * *

بدأ الكاتب بتوسيع دائرة التراث ، ليتخطى ، أو ليغطي على التراث الإسلامي بالتراث الإنساني ، وعلى التاريخ في مرحلة مازلنا نحيا امتداداتها ، بالتاريخ العام الذي نستشرف إليه من بعيد .

والتي بالدكتور تيزيني في أن (الحضارة في جوهرها إنسانية ، لها دورات جدلية ، تعتمد الأخذ والعطاء) ، لتصبح الثقافة الاشتراكية - وليست الحضارة الغربية - نابعة من تراثنا ، لا دخيلة ، ولا مستوردة ، ويمكن أن نقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، لكن لا ينبغي أن نقول هذا القول ، حتى لا (يحىء برد فعل

عكسى) على (أرض مشتركة) ، يكسب فوقها (الرجعيون دون شك ، لأنها في الأصل أرضهم ، وليست أرضنا) .

وانفرد غالى شكرى بما أسماه (الوحدة التاريخية للشعب . . فما يتعذر علينا استنباطه من إحدى مراحل تراثنا قد لا يتعذر العثور عليه من مرحلة أخرى ، أى أن ما لاجده في الحضارة السومرية ، أو الفرعونية ، أو الفينيقية ، أو المسيحية ، وما لاجده في هذه المراحل الحضارية من تراثنا القومى قد نجده في الإسلام ، وهكذا) ص ٣٧ .

وهذا ما تلميه فكرة استيحاء التراث في العمل الأدبي ، وهو ما ليس موضع جدال أو مراء ، حتى من أشد الدارسين تعصباً ، أو «رجعية» .

لكن الذى هو موضع استنكار ، أن تضيق الدائرة بعد اتساعها ، ليصبح (التراث الإنسانى) هو (تراث الوجه الثورى للحضارة العالمية الحديثة) ، لأننا (أحوج ما نكون إلى التراث الاشتراكي العلمى ، نظرية وتطبيقاً ، هذا التراث هو الذى سيمدنا - على صعيد الحركة - بأدوات التغيير الثورى لواقعنا المتخلف) . ص ٣٩ .

(إن ضيق الاختيار واتساعه متصل أوثق الاتصال بطبيعة الأفق الاقتصادية والاجتماعية للطبقة التى تختار ، فكلمنا انحصرت مصالحها في دائرة أنانية ضيقة لم تتسع رؤيتها واختيارها الفكرى لما هو أنفع للمجتمع ككل ، وما هو أكثر فائدة للإنسانية جمعاء) .

(وهكذا ، فالطبقات الثورية ، بطبيعة محتواها الاجتماعى ، هى الشريحة الأكثر انفتاحاً في رفضها وقبولها لما في تراثنا وتراث غيرنا من تقاليد وقيم) ص ٤١ . (وهى - حين تحاول أن تتخطى حدود أزمتها - إنما تحاول أن تتشغل المجتمع كله من الوهدة التى يتردى فيها ، وأن تنقذ الإنسانية مما يهددها في مكان ما على ظهر هذا الكوكب) ص ٤٢ .

(هكذا نستطيع أن نفهم : لماذا أكتب أوروبا - في فجر نهضتها - على تراث اليونان والرومان ، وناضلت المسيحية في عقر دارها ، ونجحت في فتح عصر جديد ، لا للبرجوازية وحدها ، ولا لأوروبا وحدها ، ولكن للإنسانية كلها ، ولماذا أخفق أسماتيك ، فرعون مصر ٧١٢ - ٦٦٦ ق.م في دعوته : « عودوا إلى القدماء » ، بإحيائه الشعائر القديمة ، وأساليب الفن القديم ، ولم تكد تمضي مائة سنة حتى كان الغزاة من كل جانب يكتسحون البلاد) . ص ٤٤/٤٤ .

ولا شك في أن الدعوة إلى الأخذ بالقيم الإسلامية هي (عودة إلى القدماء) ، على طريقة أسماتيك ، جاء على أثرها الغزاة من الفرنسيين والإنجليز والإسرائيليين ، وتوالت هزائمنا وانتكاساتنا .

ولو أن الدعوة كانت إلى الأخذ بالتراث اليوناني والروماني ، كما فعلت أوروبا ، أو بالتراث الفرعوني والسومري ، كما ينبغي أن نفعل . . ولو أننا ناضلنا الإسلام (في عقر داره لنجحنا في فتح عصر جديد ، لا للبرجوازية وحدها ، ولا للعرب وحدهم ، ولكن للإنسانية كلها) ، عن طريق الاشتراكية العلمية ، والوعى المادي للتاريخ .

(إن تحرير الأرض من الاحتلال يتساوى مع تحرير الإنسان من الفقر والجهل والخوف ، ومن ثم كان التراث الذي تنجز الرجعية مهمة إحيائه ، ويحرص الاستعمار على بقاءه وتدعيمه ، هو تراث التفاوت الطبقي ، ومعاداة العلم ، والاستسلام للقهر . . إنه التراث الذي يحتاج إلى « الهدم » بمحاول الدراسة العلمية والبحث الموضوعي ، بكشف همزة الوصل بينه وبين القوى الاجتماعية المستفيدة من ركامه الأيديولوجي) ص ٤٥ .

(والتراث في حياتنا لا يبدأ بالكلام المكتوب أو المخطوط أو المحفوظ . المقروء أو المسموع ، وإنما هو يبدأ بتلك القيم والعادات والتقاليد ذات الطابع العملي ، أي هذه التي تنعكس في سلوك الأفراد والجماعات انعكاساً فعلياً ، وتجري في ممارساتهم

اليومية مجرى الأشياء الطبيعية ، لا من قبيل الشذوذ والاستثناء (ص ٤٦ .
ومن هنا ، فالقيم والعادات والتقاليد الإسلامية لا تمثل - في إطار المجتمع
العربي - إلا ظاهرة الشذوذ والاستثناء ، أو القشرة التي رُسبها القرون الأخيرة ،
التي لا تكاد تتجاوز خمسة عشر قرناً . لكن أصالة الدماء التي تجري في دمائنا ،
والانطباعات الحيرة التي انغرزت في سلوكنا ، إنما هي من فعل سبعين قرناً من
الزمان .

(ولقد ثبت - بالدليل القاطع من التجربة التاريخية - أنه ليس صحيحاً أن
تغيير القيم تلقائياً غداة تغيير الاقتصاد والسياسة) ص ٥٥ .
لهذا ، لا ينبغي أن تشكل (الظاهرة الإسلامية) - بما صاحبها من حضارة
زاهرة ، امتدت في خلايا المجتمع ثقافياً واقتصادياً وسياسياً - أي خطر على الكيان
العربي الذي واكب التاريخ الإنساني ، منذ فجر الزمان ، بحضارات شاحنة شموع
الأهرام ، خصيبة خصوبة حداثق بابل ، نبيلة نبالة عصر الشهداء .
إن دراسة جادة للأمثال العامة تحدد مسار المجتمع العربي ، على وفق تقاليد
ما قبل (الظاهرة الإسلامية) .

ولا ريب في أن المثل يعبر عن الوعي العميق الذي أصلته التجارب والتفاعلات
الاجتماعية والسياسية والاقتصادية خلال رحلة الإنسان الذي عاش على هذه
الأرض منذ نشأة الحياة .

وبهذا تصبح المرحلة الإسلامية على هامش حياة الإنسان على هذه الأرض
العربية ، ويصبح الوقوف عندها لوناً من التعصب والعنصرية والجمود .
(ولولا أن المواهب الفنية الرئيسية في الأدب العربي الحديث تنتمي بصورة
أوبأخرى إلى اليسار ، بمعانيه المختلفة ، لتواترت إلى الأبد من عقولنا ووجداناتنا
أروع ما في تراثنا من قيم وتقاليد) ص ٦٦ .

لأن دورهم انصرف إلى الكشف عن (القيم والتقاليد الثورية المطمورة في تراثنا) .

فقد خيمت - منذ المد الإسلامي - على تراثنا الأصيل خيوط عنكبوتية لزجة ، شلت ، أوكادت ، حركتنا الحرة ، وزيفت ، أوكادت ، معالم حياتنا وتقاليدنا ، وطغت مئات الأفلام الرجعية بركام من التهييمات الميتافيزيقية على حركة الفكر العري ، حتى كادت تقتل فيه الحياة . . ولولا هذه العناصر الثورية التي كانت تنبعث من حين لآخر ممزقة هذا الركام ، ولولا ما تشكله (اجبهة الصمود والتصدي) في وجه هذا (الغناء) الذي يتدفق تدفق السيل - لما آذن فجرنا بهذه الإشرافة التي تتألق من هنا ومن هناك ، ولا تلبث أن تمزق كل أنسجة الظلم والظلام ، معلنة الانتصار العظيم للإنسان الاشتراكي الذي يملك مقومات الحياة الحرة الكريمة .

* * *

إنه - إن تكن (القوى الرجعية) في الوطن العري تتجه إلى (بعث « المثل الأعلى » للقيم والسلوك من أركان وأنقاض تلك الفترة الطويلة المظلمة) - فإنه (يتعين على القوى الثورية أن تفعل العكس ، وتبحث عن رموز ثورتها في الفترات المضيتة ، بالإضافة إلى دراسة الظلام ، وتحليل أسبابه ، وبلورة نتائج السلبية على الماضي والحاضر والمستقبل) ص ٨٥/٨٦ .

(إن انفتاح المعتزلة على العالم من حولهم ، لم يكن مجرد سياحة فكرية بين الغرائب ، وإنما كان عنصراً منهجياً في التفكير ، هو أن الموروث من السلف الصالح فقط وحده لا يكفي لحياة الإنسان ، وأن التراث البشري وحدة واحدة بالتشابه والتناقض معاً ، لذلك فهم ، بدلا من التعريف الشائع لعلم الكلام بأنه « علم يتضمن الحجاج عن القواعد الإيمانية بالأدلة العقلية » ، قبلوا التعريف رأساً على عقب ، وجعلوا السنة والعقائد في خدمة العقل ، ومن ثم ظهر في بداياتهم الأولى

نزعة الاعتماد على العقل ، وإقامة سلطان له ، إلى جانب النصوص المنزلة ، وكان لموقفهم التحررى من إرادة الإنسان ، وتقديس عقله ، ما دفعهم إلى أن يتفقوا على أن العبد قادر خالق الأفعال خيرها وشرها ، ولكنهم جعلوا الحرية الإنسانية شرطاً لتحمل المسؤولية بالثواب والعقاب ، أى أنهم رفضوا فكرة القضاء والقدر ، « إذ كيف يجبر الله عباده على فعل قَدَرَهُ هو عليهم ، ثم يحاسبهم ، لأنهم فعلوه » ، وقد تطور الأخذ بالعقل عند المعتزلة ثلاث مرات ، الأولى أنه كان أداتهم لفهم الدين ، والثانية أنه أصبح نداً للشرع مساوياً له ، وفى الثالثة تغلب العقل عندهم ، وحاولوا تطويع الوحي فى خدمته .

وهكذا ، لم تعد هناك فى عرفهم « مسلمة يقينية » ، بل أصبح كل شىء قابلاً للنظر والنقد ، وحل الاستقراء والاستدلال مكان الإيمان .
ولم يكن المعتزلة مجرد تيار فكرى ، بل كان لهم تنظيمهم السياسى الذى تبلور فى أواخر القرن الأول الهجرى .
وهم بدعوتهم لحرية الإنسان يرونه صاحب الحق فى إقامة وإسقاط السلطة السياسية (ص ٨٧/٨٨ .

* * *

سبق أن تناولنا الرد على هذه الأفكار المفتراه على المعتزلة فى كتابات (طيب تيزينى) ، وتبيننا أن (تيزينى) يعتمد الى تشويه النصوص ، حتى تخدم أهدافه ، لكن كاتبنا هذا لا يكتفى بترديد ما سبق به (تيزينى) . بل يغالى فيزعم أنه رجع فيما قدم إلى كتاب الملل والنحل (ج ١ ص ٥٨ - ١١٣) ، ومع أنه يذكر هذا الكتاب فى ثبوت مراجعة ، ولم يشر فى الهامش إلى الطبعة التى أخذ عنها ، فإن هذه الصفحات تتناول فرق الاعتزال ، وتعرض آراء متنوعة ، بعضها يميل إلى الاعتدال ، وبعضها يميل إلى المغالاة ، لكنها جميعاً لا تكاد تبعد عن الخط

الإسلامى العام ، كما سبق بيانه عند عرض كتاب (مشروع رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر الوسيط) .

ومن المغالاة فى التزييف ما يردده عن (عارف تامر) من أن القرامطة (قد تأسست دعوتهم على قواعد اجتماعية واقتصادية . « فكان من أهدافها القضاء على استغلال الانسان للانسان ، ونزع الأملاك العقارية الفردية الواسعة ، ومصادرة الإيرادات الطائلة الخاصة لمصلحة الدولة ، وفرض ضرائب معقولة متدرجة فى الضخامة ، وإلغاء قانون مبدأ الوراثة ، ومصادرة أملاك المهاجرين والعصاة ، ووضع جميع وسائل النقل والمواصلات تحت تصرف الدولة ، وزيادة المصانع الوطنية وآلات الإنتاج ، وإصلاح الأرض المجدبة ، وتحسين المزروعة منها ، وفرض العمل الإجبارى على جميع الأفراد ووصل العمل الزراعى بالصناعى ، وإقامة نظام شورى قائم على مجلس خاضع للانتخاب الجماعى يحل محل الملكية الوراثة ، ونسف نظام الاستثناء بين الطبقات ، وتغيير العقيلة السائدة المرتكزة فى كل شىء على الدين وكل هذا يهدد بالفناء ») ص ٨٩ .

هذا مع أن الحقيقة لا تتجاوز الضرب على الأوتار التى تثير الجماهير المعانية والمتشوقة إلى الانتقام من نظام الحكم الذى خضع للأتراك ، وتفشت فيه عوامل الفساد المختلفة .

وعمل القرامطة وغيرهم لا يكاد يختلف فى شىء عما كان يفعل الصعاليك وقطاع الطريق .

لقد نهض بهذا (التنظيم) عناصر فارسية ممتورة وحاقدة وحاملة ، اتخذت (التشيع) رداءً ، ومع ذلك أحلت للأتباع ترك الفرائض الدينية ، كما أحلت النيذ والخمر ، واتخذت بيت المقدس قبله ومحجاً واتخذت فى مراحلها الأولى نظام الشركة فى الأموال ، لكنها ما لبثت أن استخدمت الإغارة والنهب والسلب ، وهاجمت قوافل الحجاج ، وقتلت عشرات الألوف ، وسرقت كسوة الكعبة ، ونهبت التحف

والكنوز ، من البيت الحرام ، واقتلعت الحجر الأسود ، وذهبت به إلى هجر ، وأصبحت سرطانياً في جسم الأمة ، يتحرك ما بين البحرين والعراق والشام ، حتى قال أحد قادتهم ، أبوطاهر الجناي :

أنا الله ، وبالله أنا يخلق الخلق ، وأفنيهم أنا

فإذا كان هذا هو النموذج الثوري في التراث ، وكما فعل حسين قاسم عزيز من البابكية^(١) دعاة العدالة الاجتماعية - فإن مفهوم الثورة الاشتراكية يتحدد في مجرد استغلال الكادحين والمطحونين للانتقام أبشع الانتقام من النظام الاجتماعي ، بدلا من العمل على إصلاحه .

وللأسف هذا المظهر المأساوي الشرير هو ما شد الانتباه إليه ، وكان عمل (الثوريين) على إحيائه وإشاعته .

(فالذي يحتاج حقاً إلى إحياء هو بعض المواقف النادرة في التراث ، نأخذ منها القيمة والشكل وزاوية النظر ، أي المنهج ، دون المضمون الذي لا علاقة له بعصرنا وإنساننا) ص ٩٨ .

وهذا المنهج يتحدد في تخريب (القيم التراثية) ، كما يتحدد في تخريب القيم الحضارية المعاصرة ، فيما عدا ما يمس (المجتمع الاشتراكي) . ويتمثل هذا التخريب في الإساءة والنيل من كل ما هو عظيم .

(فنظرية الخلود الكامنة وراء التحنيط والأهرام لموقف هروفي من الموت ، ورؤية غيبية للحياة) ص ٦٧ . بدلا من أن تكون رمزا للانتصار على الموت ، وإيمانا بالإنسان القادر على التحدى بالعمل والبناء ، والرغبة في تجديد الحياة ، حتى لا يكون كفاحنا في الحياة الأولى مجرد نشاط لا تحكمه قيمة ، ولا تسدده عدالة ، ولا يتوجه ثواب أو عقاب .

(١) رسالة لنيل الدكتوراه من جامعة موسكو سنة ١٩٦٦ - مكتبة النهضة - بغداد - بلا تاريخ

(والنراث الإسلامى بقوانينه وتشريعاته يضع المرأة فى منزلة مهينة فالرجال قوامون عليها ، وحصتها فى الميراث وحضانتها للأطفال ، إلى غير ذلك من قوانين العبودية القديمة التى ورثناها ، بالرغم من كل ما حققته المرأة فى الحياة الدنيا ، من حرية اقتصادية وحمل للمسئولية) ص ٩٩ .

وللأسف ، هذا الوهم العاثر يتكىء على ما جاء فى (تجديد الفكر العربى) للدكتور زكى نجيب محمود (ص ٧٩ - ٨٠) ، على حين من يقرأ قراءة عابرة ما ورد فى السور القرآنية (النساء والمائدة والنحل والنور) يجد تسوية كاملة بين الرجل والمرأة أمام القانون ، وفى شئون المسئولية والجزاء فى الدنيا والآخرة ، وفى الحقوق المدنية بمختلف أنواعها .

فلمرأة - فى نظر الإسلام - شخصيتها المدنية المستقلة عن شخصية أبيها - أو من هى تحت رعايته ، وقد ذهب أبو حنيفة إلى أن للمرأة أن تزوج نفسها متى شاءت ، بشرط ألا تزوج إلا بكفء ، وليس لوليها الاعتراض إلا عند عدم الكفاءة ، وأباح للمتوفى عنها زوجها - إذا كانت بالغة عاقلة - أن تتزوج بمن تشاء ، وأحاط حقوق القاصرات من البنات بسياج من الحماية والرعاية ، والمرأة المسلمة بعد زواجها تحتفظ باسمها واسم أسرتها وجميع حقوقها المدنية ، وبأهليتها فى تحمل الالتزامات ، وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية ، وما إلى ذلك ، وتحتفظ بحقوقها فى التملك تملكاً مستقلاً عن غيرها ، ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها ، قل ذلك الشيء أو أكثر ، ولا يحل له أن يتصرف فى شيء من مالها إلا إذا أذنت له بذلك ، أو وكلته فى إجراء عقد بالنيابة عنها ، ولها حق أن تلغى وكالته وتوكل غيره متى شاءت .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وأعبائه فى الحياة ، وما يصلح له ، وكفالة المصلحة العامة ، ومصلحة الأسرة ، ومصلحة المرأة نفسها .

وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق التعليم والثقافة ، بل إنه ليجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بوظائف الحياة . وسوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة في حق العمل ، فأباح لها أن تضطلع بالوظائف والأعمال المشروعة التي تحسن أداءها ، ولا تتنافر مع طبيعتها ، ولم يعتبر هذا الحق إلّا بما يحفظ للمرأة كرامتها ، ويصونها عن التبذل ، وينأى بها عن كل ما يتنافى مع الخلق الكريم .

ولها الحق في أن تبأشر السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية^(١)
فهل حققت المرأة الأوربية - مع ما وصلت إليه الحضارة الأوربية اليوم
ما نحقق للمرأة المسلمة ؟

أمّا عن المرأة في البلدان الاشتراكية ، فما أطول الحديث عن هوانها وقسوة معاناتها . ولا حاجة إلى الحديث عن المرأة قبل التشريع الإسلامى ، لأنه لا مجال للمقارنة بين ما كانت عليه وما صارت إليه .

أما عن (الحرية الفكرية) في الإسلام ، و(الحرية الاجتماعية) ، وأما عن (روح الإبداع والخلق والمبادرة) التي توكأ في غمزها على الدكتور زكى نجيب محمود ، فإن من الخير للسيد (الباحث) أن يرجع إلى كتاب (مشروع رؤية جديدة للفكر العربى في العصر الوسيط) ، لصاحبه الدكتور طيب تيزينى ، الذى وصفه بأن (الموضوعية القريبة من روح العلم الطبيعى هي أدواته الرئيسية الأولى في الفرز والتبويب) ، وأنه (تابع العلاقة بين الفكر والواقع متابعة ميكروسكوبية مذهلة) ، وأن (هذا الشكل العلمى الدقيق هو الذى أثمر النتائج العلمية الدقيقة التي أت بدورها برهاناً ساطعاً على صحة القوانين الأساسية للفكر المادى التاريخى الجدل) .

(١) انظر للدكتور على عبد الواحد وفى كتابه : المساواة في الإسلام ، والمرأة في الإسلام ، ولأستاذ العقاد كتابه : المرأة في القرآن ، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، وهى من الكتب الشائعة التداول .

ص ١١٠/١١١ . ولعله يتواضع ويقرأ عرضنا لهذا الكتاب ، لعله يتعرف إلى الحقيقة ، دون أن يجهد نفسه في قراءة ما كتب الفقهاء وعلماء الكلام والفلاسفة والأدباء والعلماء في دولة الإسلام .

ولعله (من الطريف أن كاتباً أمريكياً يدعى « كامب ولفريد سميث » أصدر كتاباً بعنوان : « الإسلام في العصر الحديث » Islam in Modern History ، عن جامعة مونتريال بكندا ، ومعرفة مؤسسة روكفلر ، يرى هو الآخر أنه لا خلاص للبشرية إلا باعتراف الإسلام) . هامش ص ١٦٥ .

ولم يكن سميث وحده في هذه الدعوة ، فما أكثر الذين دخلوا في الإسلام ، من أبناء الحضارة المعاصرة ، ولعل السيد الباحث يكون قد سمع بما كتبه المستشرقون عن (التراث الإسلامي) و (دائرة المعارف الإسلامية) ، إذا لم يكن قد سمع عن كتابات عبد الكريم جرمانوس المجرى ، والشيخ عبد الواحد رينيه جينو الفرنسي ، والدكتور موريس بوكاي الطبيب الفرنسي المشهور ، وصاحب كتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم) ، وكثير كثير ممن دخلوا في الإسلام ، أو ممن آمنوا بهذا الفكر العظيم أمثال ماسينون ونولدكه وبروكلمان ومرجليوث ومكدونالد وكراتشكوفسكى وآسين بلاثيوس ، فضلاً عما كتبه جوته وكارليل .

أما أن يتكئ على فكر الدكتور زكى نجيب محمود الذى يصفه بما وصفه به طيب تيزينى من أنه (يفتقد الاتساق الداخلى ، فبين عناصره يضم بعضاً من أفكار عصر التنوير ، وبعضاً من أركان الوضعية المنطقية والبراجماتية والتجريبية ، والمادية الديناميكية ، فى وقت واحد) حتى (تناقضت كثير من النتائج مع المقدمات) ص ١٠٤ - فهذا هو العبث بعينه ، وكان أولى به أن يرجع - فى مجال الفكر الإسلامى - إلى المفكرين الإسلاميين ، أو إلى مصادر هذا الفكر ، حتى يكون على بينة من الأمر ، وهذا من بديهيات (المنهجية العلمية) . . ولعله إذا قرأ

شيئاً من هذا كله يقول بقول الدكتور عبد العزيز كامل : (لا أستطيع أن أفرق ما بين فكر إسلامي وفكر إنساني) ص ١٧١ .

لكن الكاتب الفاضل اعتمد على ما جاء عَرَضاً في قلم الدكتور حسين فوزي أو توفيق الحكيم أو أحمد بهاء الدين ، وغيرهم من غير المعينين بالفكر الإسلامي ، أو الدارسين له .. وهذا هو التجاوز ..

* * *

والأستاذ الباحث يردد أفكار الدكتور تيزيني في كثير مما عرض له ، وينهج نهجه في تناول الأفكار أو الأيديولوجيات السائدة ، في محاولة تقديمها بالطريقة التي تخدم هدفه .

فهو يزعم (أن الذي يرى في القرآن خلاصاً فردياً لذاته محاصر كل لحظة في حياته اليومية بما يחדش حياء صوفيته هذه ، بما يتناقض معها ، لأنه لا يعيش في الفضاء المجرد ، وإنما هو يحيا في إطار مجموعة من العلاقات الاجتماعية التي لا تتفق في الكثير أو في القليل مع إيمانه ورغبته في السلوك وفق هذا الإيمان) ص ١٩٢ . ويتجاهل دور الأنبياء والرسل ، وكأنه يريد أن يخضع الدين لنقائص المجتمع ومبازله وآفاته ، أو كأنه يريد مجتمعاً لا يخضع لقوانين تحق الحق وتبطل الباطل ، وإنما تسيره الغرائز والعواطف الدنيا ، أو كأنه يرى أن يخضع المرء لسلبات المجتمع ، لأن يقاومها ، فيأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر .

ويزعم (أن الذين طبقوا أو يطبقون أو سيطبقون القرآن هم « بشر » ، بكل معنى الكلمة ، فلما أن نفترض أنهم معصومون من الخطأ ، بحيث إن العنصر الإلهي فيهم هو الذي سيتعامل مع النص الإلهي ، ولما أنهم معرضون للخطأ ، وفي الحالة الأولى يبرز السؤال عن هو الوصي الإلهي الذي سيختار مبعوث العناية الإلهية ، وفي الحالة الثانية يبرز السؤال عن سننسب إليه الخطأ إذا وقع ، وإذا تراكمت الأخطاء فأين المنقذ من الضلال ؟) .

ويعلق ساخراً منهمكاً : (ربما كان الحل هو أن « يُسَلِّم » العالم كله ، ولكن حتى يتم ذلك فإن تحديات العصر قد تكون قد أنجزت مهمتها ، وألقت بنا في مزبلة التاريخ) ص ١٩٣ .

ونسى ، أو تناسى أن العقائد الإسلامية لا تختلف في جوهرها عن العقائد التي جاء بها موسى وعيسى والأنبياء والرسل من قبلها ، وأن التشريعات الإسلامية إنما جاءت عن طريق إنسان (يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) . ويتعامل مع الخير والشر ، فينصر الحق ويزهق الباطل ، ثم إنَّ التشريعات الإسلامية ليست من أفق سماوى فقط ، فقد اشترك في صياغتها وتفصيلها وتطويرها العنصر البشرى . فحديث الرسول وعمله ، وما أجمع عليه الصحابة ، بل ما يجمع عليه العلماء في أى زمان ، إنما هو من التشريع ، ثم إن باب الاجتهاد مفتوح أمام القادرين من العلماء ليطوروا الفكر الإسلامى بما يتلاءم والتطورات الاجتماعية المستمرة ، والتمسك بالتعاليم الإسلامية هو الذى انتقل بحفنة من أبناء الصحراء إلى قمة المسؤولية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية فى أزهى العصور الحضارية . ولا يغيب عن فكر السيد الباحث أن جميع الحضارات القديمة ، أصبحت فى ذمة التاريخ . ما عدا الحضارة الإسلامية التى ظلت على مدى ألف وأربعائة عام تعمل عملها وتجدد شبابها . . وليس خافياً ما يجرى اليوم على الساحة العالمية من محاولات الانبعاث الإسلامى ، فى تحرك الفكر ، وتحرك الجماهير العريضة من الشباب المثقف الواعى ، وفى تحرك الدول والحكومات ، وهذا هو الذى يربط ما بين السيد الباحث وسادته وبين (مزبلة التاريخ) .

ويعيب على من (يرى فى القرآن وبقية عناصر التراث الإسلامى « منهجاً » فى التفكير أقرب إلى ما نسميه الآن « دليل عمل ») ١١ ص ١٩٤ .
فإذا كان أصحاب هذا (المنهج) يرون صلاحيته للحياة ، وقدرته على تحقيق الخير للبشرية ، لماذا يحول دون الأخذ به ، وتطبيق تعاليمه ؟

كيف نصادر من يدعو إلى الحق ، وإنهم ليرون أنفسهم على حق ، مستندين إلى تجربة طويلة ناجحة ، على حين نصفق لباطل هذا المجتمع الحديث الذي يقر قيام العصابات المسلحة بالاستيلاء على نظم الحكم ، ويعترف بشرعيتها ، ما دامت قادرة على فرض سيطرتها المستمدة من السلاح ؟

ألا تقوم النظم الاشتراكية بقتل الملايين ، وتهجير وتشريد شعوب عن أراضيها ، لمجرد أنها ترفض الإلحاد وتخريب الذمم والقيم ؟ وفي سبيل أى غاية يحدث هذا ؟ أليس من أجل تسييد وتسلط ، لا دكتاتورية الطبقة ، بل فئة حاكمة نافذة من هذه الطبقة ؟

فهل يلعن النور وينصر الظلام إلا الصم البكم العمى الذين لا يعقلون ؟

* * *

ثم . . يدعو بدعوة سادته - متكئاً على كاتب مغربي يدعى مصطفى النبري إلى الفصل بين الدين والدولة ، فيقول : (إذا كانت السلطة الدينية ترغب رغبة حقيقية في حماية الدين الحقيقي فما عليها إلا أن تفك ارتباطها بالسلطة ، وتخطبها من موقع الشعب البسيط المؤمن القادر على تسييج أى إيمان ، يرفع صوته هو ، ويجسد مطالبه هو) ص ٢٠٣ .

فلماذا رفع (الشعب البسيط المؤمن القادر على تسييج أى إيمان) صوته في وجه السلطة ، (وجسد مطالبه) ولم تستجب السلطة ، فماذا يحدث يا أيها اللبيب ؟

* * *

ويمضى في عرض أفكار شيعته التي لا تكاد تضيف جديداً إلى ما سبق تناوله ، مردداً آراء لا يملكها بصورة من يملكها ، لمجرد التدليل على أن (المفهوم الماركسي للتراث والعصر هو المرشح الوحيد للنضال ، لا لإنجاز المهام الاشتراكية فحسب ، بل لإنجاز ما لم تستطع البورجوازية نفسها تحقيقه ، كقيام الدولة العلمانية) ص ٢١٠ .

فن خلال عرض أفكار عدد من كتّاب اليسار ، والتعليق عليها ، كان هذا الحوار . .

وهو - في جملته - لا يقوم على رفض كل ما يقدّم اليسار ، بل يدعو إلى الأخذ بالمرونة ، وسعة الأفق ، والحرص على المكتسبات التي تتجلى في هذا الفكر ، وإلى أن نحسن اللقاء به ، والانتصاف منه . . .

. لا يطالب بأكثر من الحد من المغالاة في (التبعية) ، بحيث تضيع معالم الشخصية العربية ، ولا تكاد تعدو أن تكون ظلاً باهتاً يتحرك بحركة السادة القابعيين في موسكو أو بكين ، أو بوقاً يحسم كل فحيح الآخرين .

ولا مجال لإنكار أن اليساريين العرب يمثلون نخبة ذكية ، ذات قدرة واضحة على اكتساب المعرفة ، لكنها - مع واقع السخط والنقمة لما أصاب العالم العربي من الاستبداد والجشع الاستعماري ، أو لما أصاب الأقاليم العربية من تحكم فردى مهين ، واستنزاف للقوى خلف تطلعات عنترية ، أو لما أصاب أفراد (النخبة) من هوان الحياة ، وقسوة التباين الطبقي ، والتوزيع غير العادل للثروات - مالت هذه (النخبة) كل الميل نحو التطرف الحاقداً ، الذي يسهل عليه أن يحرق كل نبتة خضراء ، في سبيل أن ينال من الاستعمار الذي يملك المقدرات ، أو من المستبد الذي يفرض الظلم والظلام ، أو من الإقطاعي الذي تقتله التخمة ، في حين يقتل الآخرين الجوع .

لهذا قد يجدون قدرًا من التعاطف ، وقد يرغب القارئ في تشجيعهم ،

والتصفيق لهم ، لكن مع إحساس بالغ بالرتاء ، ومزيد من الأسى والأسف ، لأن ضياع هذه المواهب القادرة على العطاء الخصب ، وتبديد هذه الطاقات على مذابح الشيطان ، إنما هو بعض المؤامرة الاستعمارية التي تعمل على تخريب العقول والقلوب والذمم ، حتى تصل إلى الفريسة مثخنة الجراح سهلة التناول .

إن من هوان أمرنا أن صرنا نخرب بيوتنا بأيدينا ، وما أسير الهدم ، وما ألد الانتقام والتشقى، ونحن بموارث القبيلة ، نحكمنا عادة الثار ، وأن نتفانى على طريقة حرب البسوس وداحس والغبراء . . لهذا ، ننال من أنفسنا أكثر مما ينال منا أعداؤنا .

على خريطة اليوم كل العرب يتناحرون بأقدام موحلة ، في مستنقعات لبنان ، وفي الصحراء المغربية ، وعلى الحدود بين إيران والعراق ، فضلا عن حشود واستنزاف قوى ، على حدود سوريا والأردن ، والعراق وسوريا ، واليمن الشمالي والجنوبي ، وبين جنوب اليمن وعمان ، وبين مصر وليبيا ، وبين ليبيا والسودان ، وبين ليبيا وتونس ، بالإضافة إلى جنود عرب يحاربون ضد إرتريا والصومال !! فماذا يطلب الاستعمار الأحمر أو الأزرق أكثر من هذا ؟!

إن العدو التقليدي ، إسرائيل ، لم تصبه من سهام العربية ، ولم تجتمع من حوله قبضة العرب ، ولم تحتدم النفوس ضده ، بهذا القدر الذي يدور على سعة الساحة العربية ، المحترقة بأيدي عربية .

لهذا ، أناشد اليساريين ، وغير اليساريين ، من أولئك الذين يندفعون إلى الهدم دون تبصر ، ودون تفكير في مدى هذه السهام المسمومة .

أناشدهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يتدبروا أمر بلادهم .
إن ما يحدث في أفغانستان ليس بعيداً من الخليج ، وما يحدث في أثيوبيا ليس بعيداً من السودان ، وما يحدث في اليمن الجنوبي ليس على مرمى بعيد من الحرمين .
والمخالب الحمراء ليست بعيدة من المغرب وسوريا والعراق .

فاتقوا الله في أنفسكم ، وفي عروبكم ، وفي دينكم . .
إنكم لا ترقصون على صفيح ساخن ، ولا تستدفئون على حرائق الجيران .
لقد شبت النار في ثيابكم ، يا أيها الواهمون !!

د . كامل سحافان

٤ إبريل ١٩٨٢ م .

الفهرست

الصفحة

- ١ - نقد الفكر الديني ٧
- ٢ - مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ٤٣
- ٣ - حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث ١١٣
- ٤ - من التراث إلى الثورة ١٣٧
- ٥ - في الدين والتراث ١٩٧
- ٦ - التوحيد في تطوره التاريخي ٢١٩
- ٧ - التراث والثورة ٢٤٥
- ٨ - أما بعد ٢٦٥

للمؤلف

كتب مطبوعة :

- ١ - المنهج البياني في التفسير الحديث للقرآن الكريم الأنجلو المصرية
المجلس الأعلى للفنون والآداب
دار المعارف
- ٢ - أمين الخولي في مناهج تجديده
دار الهلال
- ٣ - سبحان الله
توزيع دار المعارف
- ٤ - اليهود تاريخاً وعقيدة
المجلس الأعلى للثقافة
- ٥ - في مرقص الظلال (شعر)
الهيئة العامة للكتاب
- ٦ - حتى تعود الابتسامة (شعر)
الهيئة العامة للكتاب
- ٧ - أمين الخولي ، حياته وأعماله

كتب تحت الطبع :

- ١ - التراث ، واجبنا نحوه
الأنجلو المصرية
- ٢ - الأرض لا تنبت أغصانا جافة (شعر)
الهيئة العامة للكتاب

